الأمانة العامة
العتبة الحسينية المقدسة

صدى القرآن

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

تصدر عن

دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة

دار القرآن الكريم
في العتبة الحسينية المقدسة

العدد الخاص ببحوث المؤتمر العلمي
القرآني الاول المنعقد بتاريخ ١٦ ربيع
الاول ١٤٤٠هـ 2018/11/24 م
وتحت شعار «لن يفترقا»

الإشراف العام
الشيخ حسن المنصوري (م. دار القرآن الكريم)

رئيس التحرير
أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي (جامعة كربلاء)

مدير التحرير
د. مجيب سعد ابو كطيفة (جامعة كربلاء)

سكرتير التحرير
الشيخ علاء حسين النعماني (دار القرآن الكريم)

هيئة التحرير
* السيد مرتضى جمال الدين (دار القرآن الكريم)
* أ.د بلاسم عزيز شبيب (جامعة كربلاء)
* د. الشيخ عماد الكاظمي (الجامعة العالمية)
* د. زينب عبد الله كاظم (جامعة الكوفة)

التدقيق اللغوي
م. د. أحمد حسن منصور (جامعة كربلاء)

التنسيق والعلاقات العامّة
أ. م. د. حميد جاسم الغرابي (جامعة كربلاء)
الحافظ منتظر حسن المنصوري (م. مركز التبليغ القرآني الدولي)

التصميم والإخراج الفنّي
أسامة جبار

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣م

ضوابط النشر

١-تَنشر المجلّة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.

٢- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحةA4 ، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.

٣-تقديم ملخص للبحث في صفحة مستقلّة، على أن يحتوي كلّ ملخص على عنوان البحث واسم الباحث، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).

٤-تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة بالطريقة الآتية: (اسم الكتاب، المؤلف، اللقب: ج...، ص...)، ويزوّد البحث بقائمة المصادر مستوفاة التفاصيل في آخره.

٥- أن لا يكون البحث قد نُشر في أيّ كتابٍ أو مجلةٍ أو موقعٍ الكتروني.

٦- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبِّر عن رأي كاتبها.

٧-تُرسل الأبحاث على البريد الإلكتروني أدناه، أو تُسلّم إلى أسرة المجلّة.

(sadaalqurandq@gmail.com) كربلاء المقدسة

(im.hu.qu@gmail.com) قسم المشرّفة

بحوث المؤتمر العلمي القرآني الاول

المنعقد بتاريخ ١٦ربيع الاول ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨/١١/٢٤م

١ الافتتاحية ٩

٢ ترتيل القرآن (منهج تأويلي في تفسير القرآن الكريم) ١١
الأستاذ المتمرّس الدكتور حاكم حبيب الكريطي / الجامعة الإسلامية/ النجف الأشرف

٣ مَوقفُ الآلوسيِّ من مَروياتِ الإمَامَين البَاقر والصَادق عليهما السلام ٣١
الأستاذ الدكتور عصام كاظم الغالبي / جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية

٤ الإيقاع المعنوي في القرآن الكريم ٥٥
أ.م.د. خالد كاظم حميدي/ كلية الشيخ الطوسي الجامعة - النجف الأشرف

مظاهر التلازم المعرفي بين القرآن الكريم والصحيفة السجادية
م.د. حميد يوسف إبراهيم / كلية العلوم الإسلامية – جامعة ذي قار ٥ ٩١

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مفسراً للقرآن
دكتور أحمد راسم النفيس ٦ ١٠٧

البعد القرآني في كلمات الإمام الهادي عليه السلام
أ.م.د خولة مهدي شاكر الجراح / كلية الفقه – جامعة الكوفة ٧ ١٣٧

دور آيات الأحكام في فهم الأحكام الشرعية
أ.م.د طارق حسن كسار / جامعة ذي قار – كلية العلوم الإسلامية ٨ ١٥٧

فهم القرآن بين التأصيل والتجديد على مستوى القراءة القرآنية
الأستاذ المساعد الدكتور جبار كاظم الملا / كلية العلوم الاسلامية – جامعة بابل ٩ ١٨١

منهج أهل البيت عليهم السلام في بيان أسس التعامل مع النص الديني
م. م. صلاح عوده عبد الأمير، م. م. زين العابدين عوده عبد الأمير ١٠ ٢٠٧

مرجعية أهل البيت في تأسيس قواعد فهم النص القرآني
ساجد صباح العسكري ١١ ٢٤٩

الافتتاحية

الحمدُ لله الذي خَلَقَ الإنسانَ وعلَّمَهُ النطقَ واللسانَ، وأنزلَ القرآنَ، وتكفَّلَ البيانَ، والصلاةُ على سيد الإنس والجانِ محمدٍ الذي شرَّفَ العربَ على الاقرانِ. والصلاةُ على هداة الأنام، وأمراءِ الكلام .. وبعد:

فإنَّ كتابَ الله رمزٌ بينَ الحبيبِ والمَحبوب، لا يعرفُ بحقيقة مراده سواهما؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه جَعَلَ نبيّه صلى الله عليه وآله رسولاً إلى جميع خلقه. وقد دلَّتْ الآياتُ والرواياتُ على أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً وتأويلاً، وللظاهر ظاهرٌ، وظاهرُ ظاهر إلى السبعة، وللباطن باطنٌ، وباطنُ باطن، وباطنُ باطن باطن إلى السبعة، وللتأويلِ تأويلٌ، وتأويلُ تأويل إلى السبعة، ولبَاطن التأويل باطنٌ، وباطنُ باطن إلى السبعة.

والقولُ في معرفة جميع المراتب على التفصيل لا يسع المقام لذكرها، فلو مررنا بعجالة على المراد من «الظاهر» و«التأويل» نجد أنَّ الظاهرَ ظاهرٌ؛ لأنه التفسيرُ على وضع اللغة العربية مع ملاحظة جميع تركيباته النحوية مِنْ تقديم العامل على المعمولِ وبالعكس في مواضع عديدة.

أما التأويل فهو أن لا تلاحظ هذه الأمور بل تأخذ بعض الكلام مجرداً عن ملاحظة ارتباطه بما قبله أو بما بعده مثل قوله تعالى ﴿يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ النساء/١٣٠، فتأويلها بحسب ما ورد عن آل البيت عليهم السلام يعني إذا خرج القائم عجل الله فرجه يمتاز الأخيار من الأشرار ويعز الأخيار ويذل الأشرار عنده تنبسط العلوم وتنتشر المعارف بحيث لا يحتاج أحدٌ إلى أن يتعلمَ العلمَ والمعرفةَ، فيكون العالم والمتعلم بمنزلة سواء عندَ ذلك يغني الله كلا من سعته، هذا إذا قطعت النظر عن أولها وآخرها؛ لأنك إذا لاحظتها مع أولها وآخرها لا يفيد المعنى الذي قلنا آنفاً فالمعنى في الجانب التأويلي يكون باطنياً خلاف ما يعرفه أهلُ الظاهر.

أما الكلام عن الباطن، وباطن الباطن، وباطن باطن الباطن، وباطن التأويل فليس هنا محل التفصيل فيه.

ومن ثَمَّ فالذي يدرك هذه الحقائق وما يحيط بها من رموز هو الذي خوطِب بهذا الكلام وهو النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فهم أركانُ البلادِ، وأمناء الرحمن، وأبوابُ الإيمانِ. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا بماذا تخلفوني فيهما».

من هذا المنطلقِ بادرَت إدارة دارِ القرآنِ الكريمِ التابعة للعتبةِ الحسينيةِ المقدسةِ بإقامة المؤتمر العلمي القرآني الأول متخذاً من شعار «لن يفترقا» أساساً في محاوره وأهدافه وشعاره الذي جاء بعنوان «التلازم المعرفي بين القرآن الكريم والعترة الطاهرة» الذي انعقد بتاريخ ١٦/ ربيع الأول/ ١٤٤٠ هـ الموافق ٢٠١٨/١١/٢٤م.

وقد نتج عن هذا المؤتمر مجموعة من البحوث القرآنية التي نهلت من علوم آل البيت عليهم السلام في استكناه دلالة الآيات القرآنية. ولأهمية هذه البحوث قررَت إدارة دارِ القرآنِ الكريم أن تفرد لها أعداداً خاصة من مجلة صدى القرآن التابعة للدار فجاء العددَ الخامس عشر من أعداد المجلة ليكون عدداً خاصاً ببحوث المؤتمر.

ومن الله التوفيق.

مدير التحرير

الأستاذ المتمرّس الدكتور حاكم حبيب الكريطي
الجامعة الإسلامية / النجف الأشرف

مدخل

يسعى هذا البحث إلى النظر في (ترتيل القرآن) على وفق رؤية جديدة، تستمد جدّتها من الاستعانة بالتأويل المأمور به في القرآن الكريم. ونعني بالتأويل هنا، استثمار دلالات الجذر (رتل) من خلال العودة إلى المعجم العربي، وموازنة تلك الدلالات بما جاء في القرآن الكريم من استعمال للجذر نفسه، ومن هنا سيتمظهر التأويل الذي نريده لبيان مفهوم (الترتيل) الذي نحسبه جديداً هنا - إن شاء الله تعالى -. وسيحقق لنا هذا الأمر طريقاً آخر لإدراك المعنى القرآني، يقترب مرة ويبتعد مرات عمّا قال به المفسرون، الذين اعتنوا - في الغالب - بعلوم القرآن أكثر من عنايتهم بالمعنى الذي تؤديه اللغة، ولعلّنا لا نبتعد عن جادة الحق إذا قلنا: إنّ الإشارات القرآنية الكثيرة إلى عربية النص القرآني، تدعونا إلى تمثل اللغة تمثلاً تاماً في أي نظر في محاولة تدبّر معاني الآيات القرآنية.

واستناداً إلى ما تقدّم سنقفُ أوّلاً عند دلالات الجذر (رتل) في المعجم العربي، لنتّكئ عليها في الوصول إلى ما نُريده بشأن الترتيل.

(رتل) في الاستعمال الاجتماعي:

جاء في لسان العرب[1]:

١- الرتل: حسن تناسق الشيء.

٢- ثغر رتل: حسن التنضيد، وقيل: المفلّج، وقيل: بين أسنانه فروج لا يركب بعضها.

٣- الرتل: بياض الأسنان وكثرة مائها.

٤- كلام رتل: مرتّل حسن على تؤدة.

٥- ورتل الكلام: أحسن تأليفه وتمهّل فيه.

٦- الترتيل في القراءة: الترسل والتبيين فيها من غير بغي.

٧- الترتيل في القرآن: التحقيق والتبيين والتمكين.

٨- ترتيل القراءة: التأني فيها وتبيين الحروف والحركات تشبيهاً بالثغر المرتل.

إن النظر المتأني في المعاني السابقة، يعطينا ثلاثة معانٍ كبيرة تستوعب المعاني الثمانية كلّها، وهذه المعاني:

١- المعنى الأول: التنظيم وحسن التنسيق والتنضيد بحيث لا تركب الأشياء المنضدة على بعضها، وإنما تكون متسقة منتظمة كانتظام الأسنان. وهذا المعنى تجسده المعاني ١، ٢، ٣، فضلاً عن الجمال المتمثل بالبياض وكثرة الماء الذي يشكّلُ معلماً جمالياً للأسنان.

٢- المعنى الثاني: يستوعب هذا المعنى تنظيم الكلام وحسن التأليف والترسل والتبيين والتحقيق والتمكين.

وهذه معانٍ تحتاج إلى جهد معرفي كبير كي ينالها الإنسان ويتمثلها بعد إدراكها.

٣- أما المعنى الثالث: فيخص القراءة، إذ يكون التأني سبيلاً إليها، حتى يتحقق تبيين الحروف والحركات.

والملاحظ أنّ المعاني الثلاثة، تتوحد في التنظيم والتحقيق والتنسيق، فتكون هذه المعاني هي الدائرة التي تحتضن معاني الاستعمال الاجتماعي للجذر (رتل) كلّها، مع ملاحظة أن الذي يجسد هذه المعاني هو الإنسان، فلا تتحقّق هذه الدلالات إلّا بجهده، وتفكيره، كي يحصل لها الاتساق والانتظام حتى تكون كلاماً مرتلاً على حسن تؤدة (المعنى ٤).

الترتيل في الاصطلاح القرآني:

ورد الجذر (رتل) ومصدره ترتيلاً في آيتين سندرجهما على وفق ترتيب نزولهما:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ المزمّل ١-٤.

٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان ٣٢.

نلاحظ ابتداءً أن آية سورة المزمل تتضمن أمراً من الله تعالى للنبي ﷺ بترتيل القرآن، وتشديد أمر الترتيل بالمفعول المطلق الذي جاء لتوكيد فعله.

واذا استحضرنا معاني الاستعمال الاجتماعي لـ(رتل) بغية الوصول إلى

دلالة الترتيل في الآية، نقول: إن الدلالة هنا لا تنصرف إلى ضرب من القراءة، كما جاء في (المعنى٨)، أي التّأنّي فيها وتبيين الحروف والحركات، فمعلوم أنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب بعد أنْ وصلت إلى ذروة الإتقان، ووصل أهلها إلى ذروة الإفصاح عن معانيهم من خلال التأني وتبيين الحروف والحركات، والنبيﷺ سيد العرب وأفصحهم؛ لقوله: ((أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش))[٢]، فلا يبقى مسوّغ لأن يصرف معنى الآية إلى هذا؛ لأنّ عدم الإفصاح يعدّ ضربا من العيّ لمن يكون على هذا النحو[٣]، فلا يصحّ هنا أنْ يكون النبيﷺ غير مبيّن - وحاشاه - وهو يقرأ القرآن، حتى يقول عنه المشركون هو عييّ في كلامه.

وثمة ملاحظة أخرى، وهي أن نمط قراءة القرآن، أمر الله تعالى به في أول آية نزلت منه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق ١-٤، فالأمر بهذه القراءة جاء مقروناً بالتّدبّر والتفكر في خلق الله تعالى بشكل مطلق، والنظر في أسرار الخلق يحتاج إلى هذا كلّه.

هذا فضلاً عن أن القراءة المأمور بها في القرآن، هي من الله تعالى علّم بها النبي ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ القيامة /١٨، فإذاً، ثمة ضرب من القراءة علّمها الله تعالى للنبيﷺ وأمره باتباعها. واستناداً إلى هذا فلا يمكن أن يكون الترتيلُ ضرباً من القراءة؛ لأن القراءة صارت معلومة عند النبيﷺ فأمره عزّ وجلّ بترتيل القرآن يعني أمراً آخر.

إذاً، يبقى من معاني الترتيل المأمور به في هذه الآية معنى يتصل اتصالاً وثيقاً بالآية التي بعدها، فقد رتّل الله القرآن الكريم ترتيلاً بيّناً في سورة الفرقان/٣٢. وبغية ملامسة المقصود بالترتيل تأويلياً، نعود إلى ما ورد في المعنيين الأول والثاني من معاني المعجم، فالمعنى الأول هو تنظيم القرآن الكريم

وتنسيقه وتنضيده، وهذا يعني أن الله تعالى أمر النبيﷺ بهذا من الأيام الأولى لنزول القرآن الكريم؛ لأن سورة المزمل من أوائل ما نزل منه. وسنرى القول في بيان التنظيم في موضع لاحق.

أما المعنى الثاني فيعني أنّ الله أمر النبيﷺ بتبيين القرآن وتحقيقه وتمكينه بعد أن بسط له بيان ذلك - كما جاء في الفرقان/٣١ فيما بعد.

ولكي نستكمل دلالة الترتيل، لابد من العودة إلى ما قرره المفسرون في هذا الشأن.

الترتيل في الاصطلاح:

يمكن أن نصنّف أقوال المفسرين إلى صنفين في فهمهم للترتيل:

١- الصنف الأول: يتعلق بضرب من القراءة - كما مرّ - في الاستعمال الاجتماعي[٤].

٢- الصنف الثاني: يتعلّق ببيان القرآن تبييناً، وترسيل بعضه في أثر بعض[٥].

ويلاحظ هنا أنّ أقوال المفسرين في الترتيل اصطلاحياً، لم تبتعد عن الاستعمال الاجتماعي الذي مرّ بنا، بل أخذت منه تماماً، ووقفت عنده، وإذا سلّمنا بأن ترتيل النبيﷺ للقرآن الكريم هو ضرب من القراءة، فماذا نقول في قوله تعالى ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾؟.

إن المعقول تماماً أن الترتيل في سورة الفرقان/٣٢ يعني بيان القرآن تبييناً واضحاً، ولا يكون التبيين - بحق - تبييناً إلّا إذا نظرنا إلى معاني الآيات القرآنية المتشابهة بعد جمعها في نسق واحد (بعضها في أثر بعض) وترسيله ترسيلاً على النحو المشار إليه.

واستناداً إلى ما تقدم، نقول: إن الوصول إلى معنى القرآن الكريم يستدعي أمرين:

الأول: ترتيب الآيات القرآنية (آيات الأحكام مثلاً) على رتل واحد بحسب ترتيب نزولها، ثم ملاحظة أية زيادة في المعنى في الآية اللاحقة عما جاء في السابقة.

وهذا يعين الباحث عن المعنى القرآني على تمثله تماما، ويمكن أن يضاف هذا إلى علوم القرآن بوصفه

علماً مستقلاً ينهض بمهمة تتجلى في محاولة الوقوف على المعنى القرآني على وفق منهج جديد قديم في آنٍ معاً؛ لأن القدماء لم يغفلوه تماماً، ولكنهم لم يهتموا به، وجاء النظر فيه مفرقاً على علوم القرآن الأخرى وخاصة علم الناسخ والمنسوخ.

الثاني: ترتيب الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد على رتل واحد أيضاً، ولكن ليس شرطاً أنْ ترتّب على زمان نزولها. ومن اجتماع هذه الآيات تتكشف المعاني التي تحملها، وهنا يحضر قولهم «الآيات القرآنية يُفسّر بعضها بعضاً، ويتمم بعضها بعضاً من حيث الدلالة على المعنى العام أو الخاص على السواء»[٦].

إن هذا الفهم للترتيل المأخوذ من الاستعمال الاجتماعي القرآني والاصطلاحي للجذر (رتل) يفتح أمامنا باباً جديداً يمكن أنْ يضاف إلى أبواب تلمس المعنى القرآني، مع ملاحظة إن هذا التوجيه يتطلب إقامة صلة معرفية متينة بين علوم القرآن وبين الموضوع المراد البحث فيه بغية الوصول إلى المعنى؛ لأن تلك العلوم لم توضع إلّا لتفسير النص القرآني وتأويله ولا علاقة لها بماهيته حقاً، فهي كعلوم اللغة التي يستعان بها في التفسير وليست منه[٧].

ومن أجل تطبيق هذا المنهج لابد من أنْ نطبقه على بعض الآيات القرآنية لنرى إلى أي حد يمكن أن يكون هادياً لنا في الوصول إلى بعض وجوه المعنى القرآني.

تحريم الخمرة:

قال أغلب المفسرين: إن تحريم الخمرة نزل تدريجياً في الآيات الآتية:

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة٢١٩.

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ

أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ النساء٤٣.

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠.

ومن أجل الوقوف على دقة ما نتبنّاه من قضية (ترتيل القرآن) في قضية (تحريم الخمرة) نقول: إنّ آية سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، صريحة في حرمة الخمرة؛ لأنّ الإثم على وفق هذا المنهج محرّم بحسب آية سبقت هذه الآية في النزول. وهي قوله تعالى في سورة الأعراف/٣٣ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فالإثم حرام، والخمرة فيها إثم كبير[٨].

ومن هنا تتجلّى حرمتها، مما لا يُبقي حجة بيد من يُريد أن يقول غير هذا.

أما المنافع فهي منافع معنوية تأتي من المقامرة، يقول ثعلب في هذا الشأن: «كانوا إذا قامروا فقمروا أطعموا منه وتصدقوا فالإطعام والصدقة منفعة»[٩].

فالإثم مرتبط بالخمرة، والمنافع المشار إليها مرتبطة بالميسر؛ لأنّ المقامرة تكون به، فهو وسيلتها على وفق سياق الآية. ولكنّنا لا نستبعد أنّ في الخمرة منافع - كما تنصّ الآية - من وجهة نظر من يقترف شربها؛ لأنّه يرى فيها ذلك.

أما الواقع، وهو ضرر الخمرة، فهذا تجليّه الحرمة التي أمر بها الله تعالى.

وهكذا تُلغي لنا هذه القراءة التأويلية ما عدّه بعض المفسرين حقيقة معرفية، تتمثّل في التحريم التدريجي للخمرة في القرآن الكريم.

هذا ما تقوله اللغة، وهو المعوّل عليه في الوقوف على معاني القرآن، أما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنّ الإثم في الآية هو الضرر، فهو تسويغ لمن اجتهد من الصحابة وبقي يعاقر الخمرة بحجة أنّ تحريمها ليس صريحاً في آية سورة البقرة[١٠].

يقول ابن حزم: «فلما نزلت هذه الآية امتنع قوم من شربها وبقي قوم»[11]. هذا فضلاً عن أنّ (الضرر) ليس من معاني الإثم، فكيف يُفسر (الإثم) على هذا النحو ؟.

بيد أن بعض العلماء جعل هذه الآية حرمة للخمرة، فقال «قال قوم من أهل النظر، حُرّمتْ الخمرة بهذه الآية»[12]، واستند إلى تحريم الإثم الذي سبقت الإشارة إليه.

وإلى هذا أيضاً ذهب السيد الطباطبائي في الميزان حينما قال: «ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين: أن آية البقرة ما كانت صريحة في الحرمة»[13].

والآن ما الذي يمكن أن يقال في آية سورة النساء ﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾، وهي تلي آية سورة البقرة في النزول، إذ كيف يتسق هذا مع منهج الترتيل في آيات الأحكام كما مرّ بنا؟.

إن التمسك بترتيب النزول يُغرينا، بل يُحتّم علينا أنْ نفكّر بتوجيه تأويلي آخر يستند إلى اللغة، وعودة إلى المعجم ستعطينا ما قد يعيننا على تصوّر تأويلي لما نريد. جاء في لسان العرب:

١- السكران: خلاف الصاحي.

٢- السكر: نقيض الصحو.

٣- السكر ثلاثة: سكر الشباب، وسكر المال، وسكر السلطان.

فإذا استبعدنا سكر الخمر في الآية لأنها حُرّمت في سورة البقرة - كما مرّ- يكون معنى السكر هنا واحداً من المعاني الثلاثة المشار إليها: سكر الشباب أو سكر المال أو سكر السلطان.

وهكذا فلا مسوّغ - إذاً- لأن تعدّ هذه الآية من آيات تحريم الخمرة. وقد ذهب ثعلب إلى القول عن الآية: «إنما قيل هذا قبل أنْ ينزل تحريم الخمر»[14] ظنّاً منه أن المراد بالسكر هنا سكر الشراب، بيد أنّ ابن منظور أضافَ معنى آخر للسكر هنا ونسبه إلى غير ثعلب، إذ قال: «إنما عنى هنا سكر النوم»[15].

وهذه المعاني الثلاثة مما يُشغل فكر المسلم ويجعله لا يعي ما يقول في

صلاته، ومن هنا جاء هذا النهي عن الاقتراب من الصلاة في حالة الذهول وشرود الذهن والانشغال الحقيقي بشؤون الدنيا؛ لأن المعاني الثلاثة الأولى تظهر تمسك الإنسان بحب الدنيا وهذا ما لا يستقيم مع ما يريده الله تعالى من الإنسان حينما يأتي إلى الصلاة. أما المعنى الرابع وهو سكر النوم، فهذا وإن اختلف عن المعاني الأولى، إلّا أنّه يُبقي الإنسان في نصف وعي إن لم يكن قد انتبه حقاً، فنهى الله تعالى عن الاقتراب من الصلاة في هذه الحال.

ورواية أخرى تؤيد ما أوردناه هنا، فقد رُوي أنّ الإمام أبا الحسن عليه السلام، فسّر السّكر هنا بسكر النوم، يقول عليه السلام في تفسير الآية: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} يعني سكر النوم، يقول وبكم نعاس يمنعكم أن تعلموا ما تقولون في ركوعكم وسجودكم وتكبيركم»[16].

وثمة روايات تستكمل لنا هذه الدلالات التي برّزها الترتيل لآيات الخمر. فعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً ولا متقاسماً ولا متماثلاً؛ فإنها من خلال النفاق، فإن الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم»[17].

ولو تأنّى بعض المفسرين ومن اهتم بدراسة القرآن الكريم ونظر في هذه الآية والروايات الصحيحة، لكانت النتيجة توجيهاً للمعنى القرآني على وفق ما تقرّره اللغة التي نزل القرآن الكريم بها، مع عطف النظر على الروايات في الحدود التي لا تخالف فيها المعطيات اللغوية، فإن خالفتها فعلينا التدقيق في الدلالات الخفية في الرواية بشيء من النظر التأويلي الذي يهيء لنا مناخاً معرفياً يفتح أمامنا سبل الوصول إلى شيء معقول من المعنى القرآني.

ومن هنا لا تُعد آية ﴿لاَ تقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ من آيات تحريم الخمرة.

واستناداً إلى هذا لا يبقى مسوغ للقول: إنّ «سياق الآية الشريفة يأبى أن

تنزل بعد آية البقرة وآيتي المائدة، فإنهما تدلان على النهي المطلق»[١٨].

على الرغم من أننا لم نعثر في حدود ما اطلعنا عليه على رواية تقول بنزول آية سورة النساء قبل آية سورة البقرة وآية سورة المائدة.

أما آية سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فقد جاءت بياناً واضحاً لأولئك الذين قالوا بأنّ التحريم لم يكن بيناً في آية سورة البقرة - كما مرّ- فنُهوا هنا نهياً مطلقاً عن الاقتراب من الخمرة.

زمن البرزخ:

يصف القرآن الكريم حال الكافرين في لحظة النشور، إذ يتخيلون أنّهم لبثوا في قبورهم وقتاً قصيراً قبل أن يداهمهم الحشر، ولفرط هلعهم من أهوال هذا اليوم لم يقدروا على بيان المدة التي لبثوها في البرزخ من يوم موتهم إلى قيام الساعة، فراحوا يتأرجحون في تخمين ذلك الزمن، ويكشف لنا ترتيل الآيات المتضمنة لهذا المعنى هذا التأرجح على النحو الآتي:

في سورة طه ١٠٢-١٠٣، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾.

فهؤلاء المجرمون يكلّم بعضهم بعضاً بصوت خفيض عن مدة بقائهم في البرزخ، فخمنوا حدساً ووهماً وظناً أنهم لم يلبثوا قبل الحشر إلّا عشرة أيام، وكأنّهم يشيرون إلى قلة هذه المدة بعد تيقّنهم بالخلود في العذاب، لما رأوا من أهوال يوم القيامة، فضلاً عما رأوه بأنفسهم من زرقة أبدانهم بفعل النصب والعطش[١٩].

ولعلهم كانوا ينتظرون من بعضهم من يكشف لهم مدة لبثهم في القبور. قال الله - عز وجل - في الآية اللاحقة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ طه/ ١٠٤، وهو أصلح المجرمين طريقة «وأوفرهم عقلاً ... وأكثرهم سداداً»[٢٠] رأى -على وفق أيام الدنيا- أن الأيام

العشرة كثيرة لسرعة قيام الساعة، إذا قوبلت بأهوال يوم القيامة وما لهم من الأيام في النار فتراءى له اليوم الواحد زمناً لبقائه وصحبه في القبر.

ويستكثر هؤلاء المجرمون مدة اليوم التي أخبر بها الأمثل في الآية السابقة، فظلّوا في الحيرة نفسها، وحينما سُئلوا عن عدد سنين لبثهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ المؤمنون ١١٢/٧٣، جاء جوابهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾ المؤمنون/ ١١٣، فهم الآن استقلوا لبثهم في الأرض حينما وازنوه بالبقاء الأبدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه[٢١]، فنزلوا باليوم إلى بعضه، إذ لم يستقروا عليه، وكانوا حائرين بعد أنْ التبس عليهم الزمان، فلم يعرفوا حقيقته.

وفي الآية ٥٥ في سورة الروم/٨٣، يشعر هؤلاء بانعدام الزمن بين موتهم والنشور، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، لقد جاء قسم هؤلاء بأنهم لم يلبثوا إلّا ساعة في قبورهم لتوكيد كذبهم في هذا اليوم، أيضاً بعد أن كانوا يأفكون في الدنيا.

إن هذا الترتيب القرآني في بسط وجه من وجوه حياة البرزخ لا يتبين إلّا بوضع الآيات مرتبة على وفق نزولها (ترتيلها)، وبهذا يبدو لنا التردد والحيرة التي عليها أصحاب النار، فكان الزمن من عشرة أيام إلى ساعة -على وفق ما ورد- كافياً لبيان اضطراب المجرمين يوم الجمع بحيث لم يتوافقوا على زمن واحد مرّوا به جميعاً.

خلق الإنسان:

شاء الله تعالى أنْ يفتتح نزول القرآن الكريم بذكر خلق الكون وخلق الإنسان في آنٍ معاً في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق ١-٢.

وذكرُ خلق الإنسان جاء بصيغة الجمع (العلق)؛ لأن الكلام هنا عن

خلق جنس الإنسان وهي دعوة منه -جلّ شأنه- للرسول وللمسلمين إلى التدبر في خلق الله تعالى قاطبة مع التركيز على خلق الإنسان؛ لأنّه الأصل الذي من أجله شاء الله أن يخلق موجوداته، واستناداً إلى هذا لم ندرج هذه الآية مع آيات أطوار خلق الإنسان؛ لأنّها تمثل الدعوة الأولى إلى التدبر في الخلق[٢٢].

بيّن الله تعالى أطوار خلق الإنسان، من بداية خلقه من تراب إلى موته، وإذا عُدنا إلى الآيات المباركات التي تتضمن هذا المعنى، وأجلنا فيها النظر على وفق منهجنا المقترح في الترتيل، تتكشف لنا الأطوار الآتية:

* الطور الأول: ويتمثل في أنّ خلق الإنسان يبدأ من النطفة، وهي ماء الرجل القليل، والإشارة إلى هذا وردت أول مرة في سورة النجم في قوله: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ النجم ٤٥-٤٦ / ت٢٣، ثم تكرر ذكرها في سور أخرى، وهذه البداية الحقيقية لخلق الإنسان.

* الطور الثاني: وهو طور تطوّر النطفة إلى علقة في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ القيامة ٣٦-٣٨ ت ٣٠، فبعد أن صار الإنسان علقة في الرحم، أوجز القرآن الإشارة إلى بقية الأطوار بإيجاز غني، فذكر أن الله تعالى عدّل وأكمل خلق الإنسان وسوّاه.

* الطور الثالث: وهنا يذكر الله -عز وجل- نعمه على عباده في إتمام خلقهم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ غافر ٦٧ ت ٥٩.

فذكر الله تعالى هنا أنّه يخرج الناس من بطون أمهاتهم صغاراً ضعافاً حتى يبلغوا أشدهم وتتكامل قواهم، ثم يبلغوا مرحلة الشيخوخة، ومنهم من يموت قبل ذلك، حتى يبلغوا الأجل الذي كتب لهم لا يتجاوزونه، ولعلهم في هذا كله يعقلوا

حجج الله تعالى، وهذا التوصيف لمراحل خلق الإنسان واستمراره في الحياة، خلقاً بعد خلق، يتلمسه الإنسان العاقل في نفسه وفي غيره ممّن يراهم في الحياة.

* الطور الرابع: يضيف القرآن تفصيلاً آخر لمراحل حياة الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون ١٢-١٤ ت ١١٢.

وهذه المراحل تصف حالة الإنسان في رحم أمه، إذ تحوّلت العلقة التي أشير إليها إلى مضغةٍ، ثم حوّل -عز وجل- المضغة إلى عظام وكسا العظام لحماً، فتكامل خلق الإنسان، ثم أنشأه الله تعالى خلقاً آخر، والخلق الآخر هو صيرورة هذه الأطوار المادية إنساناً ذا شعور[٢٣]، وقد يشمل الخلق الآخر ما ذكر في الآية السابقة من انتقال العلقة إلى طفل ثم الذهاب إلى الشيخوخة حتى تنتهي الحياة بالموت.

* الطور الخامس: وهذا آخر المشاهد التي صورها القرآن الكريم لخلق الإنسان، ويتمثل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج ٥ ت ١٨ مدنية. تتمثل الإضافة في هذا المشهد في وصول بعض بني الإنسان إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علمه أيّ شيء.

وهذا التوصيف يخص مرحلة الشيخوخة الشديدة التي تختلف عن الشيخوخة المذكورة في آية سورة الحج.

إن هذه الأطوار الخمسة[٢٤] تكشف لنا عن حقيقة أهمية الترتيل في بيان المعنى القرآني لأطوار خلق الإنسان، إذ تكشف لنا هذه الحركية انتقال المعنى من دلالة إلى أخرى في الآيات المشار إليها وفي داخل الآية الواحدة، وهذا الذي جعل نصوص الآيات المباركة منفتحة في هذا التدرّج الرباني في خلق الإنسان، إذ تجلّى الانسجام داخل الآية الواحدة وبين الآيات بما يجعل الدلالات الجزئية تنساب بانتظام معجز مشكلة المعنى الكلي للآيات مجتمعة، فصارت صورة خلق الإنسان بهذا الاعجاز الجمالي والعلمي[٢٥].

والآن رُبَّ معترضٍ يقول: إنّ البحث يمكن أن يصنف ضمن (متشابه القرآن)، الذي ألف فيها القدماء والمحدثون كتباً كثيرة. وهنا نجيب: إنّ المتشابه يوازن بين الآيات القرآنية المتشابهة في الظاهر، ثمّ يظهر الفروق بينها، ليصل إلى دقة استعمال القرآن للألفاظ في سياقته المتشابهة المتباينة في آنٍ معاً.

وهذا شيء، وترتيل القرآن الذي كشف عنه البحث شيء آخر.

وقد يقال أيضاً: إنّ (الترتيل) يصنف ضمن «الأشباه والنظائر» التي صنفت فيها مؤلفات كثيرة أيضاً.

ويرد على هذا بالقول: إن الأشباه والنظائر تعني بيان معنى اللفظ في الآيات التي يرد فيها، ثم بيان الفرق في تلك المواضع المشار إليها.

ولكن الذي كشفه البحث أظهر أنّ ترتيل القرآن هو نمط من تفسير القرآن بالقرآن، ولكنّ هذا النمط لا يسير على وفق ما ألفه القدماء في هذا الضرب من التفسير؛ لأنّهم إنما كانوا يفسّرون الآية بالآية بصرف النظر عن ترتيب نزولها.

وهذا قد يتنافى مع الروايات التي حفظت هذه التفاسير، ولنأخذ مثالاً واحداً لبيان ذلك. فقد روي أنّ عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢ ت ٥٤،

شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لأبنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٦].

وهنا نقول: إن سورة الأنعام سبقت سورة لقمان في النزول، فكيف تصحّ الرواية على هذا النحو ؟ وقول ابن مسعود نصّ على القول: «لمّا نزلت»، ومنهج (الترتيل) يُبعد لنا ما وقع في الرواية ممّا نراه على وفق هذا المنهج، ويسوّغ لنا القول: إن ما جاء في سورة لقمان يمكن أنْ يُفسّر به ما جاء في سورة الأنعام فيما بعد.

وفي الختام نقول: لقد أظهر هذا البحث فاعلية منهج (ترتيل القرآن) في الوصول إلى بعض وجوه المعنى القرآني المتلاحمة التي تُظهر تماسك الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد بتدرج معجز يجمع مقاصد المعنى. واستناداً إلى هذا سيكون هذا المنهج إن شاء الله تعالى سبيلاً جديداً للبحث في المعنى القرآني يُبعدنا عن وجهٍ من وجوه التفسير بالرأي المنهيّ عنه، ويُهيّء لنا ميداناً معرفيّا يكون معيناً لنا في تدبّر معاني القرآن الذي لا تنقضي عجائبه.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

١- البيان والتبيين، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، الناشر: مؤسسة الخانجي بالقاهرة.

٢- التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق: أحمد حبيب العاملي، ط١، ١٤٠٩هـ مكتب الإعلام الإسلامي.

٣- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٠هـ

٤- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، ط٢، ١٤١٦هـ مؤسسة الهادي، قم، مكتبة الصدر، طهران.

٥- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: صدقي جميل العطار، مطبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦- تفسير العياشي، النضر محمد بن محمود السمرقندي، تحقيق: الحاج السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

٧- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ

٨- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (ت ٤١٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، بيروت.

٩- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة بالأوكست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ.

١٠- فقه القرآن، القطب الراوندي (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتبة المرعشي النجفي، مطبعة الولاية، قم، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١١- مجمع الفائدة والبرهان، المحقق الأردبيلي (ت ٩٩٣هـ)، تحقيق: اشتهاري، جماعة المدرسين، قم، ط١، ١٤١٢هـ.

١٢- مراحل خلق الإنسان على ضوء الكتاب والسنة، شبكة المعلومات العالمية، موقع طريق الايمان.

١٣- مصادر تفسير القرآن بالقرآن، شبكة المعلومات العالمية، موقع الدكتور مساعد الطيار.

١٤- المعنى القرآني بين التفسير والتأويل / دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني، عباس أمير معارز، اطروحة دكتوراه، كلية التربية ـ جامعة بابل، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٥- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم، إيران.

١٦- الناسخ والمنسوخ، قتادة السدوسي (ت ١١٧هـ)، تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، جامعة بغداد، ط٣، ١٤٠٩هـ

الهوامش:

(١) لسان العرب، (رتل).

(٢) سر الفصاحة ٥٩/١.

(٣) ينظر البيان والتبيين ٣٥/١.

(٤) التبيان ١٦٢/١، تفسير الطبرسي ١٥٧/٢٩، تفسير القرطبي ٢٧/١٩.

(٥) تفسير القمي ٢٩٢/٢، مجمع البيان ١٦٢/١٠، التفسير الصافي ٢٤/٥، تفسير الميزان ٧١/٢٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٤٠/١٧.

(٧) المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ٥٧.

(٨) فقه القرآن ٢٧٦/٢، التفسير الصافي ٢٤٨/١، تفسير الميزان ١٥٨/٤.

(٩) لسان العرب (أثم).

(١٠) تفسير الطبري ٣٣٠/٤.

(١١) الناسخ والمنسوخ ٢٨.

(١٢) تفسير القرطبي ٦٠/٣.

(١٣) الميزان ١٩٤/٢.

(١٤) لسان العرب (سكر).

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) تفسير العياشي ٢٤٢/١.

(١٧) مجمع الفائدة ١٠٤/٢.

(١٨) الميزان ١٩٤/٢.

(١٩) الميزان ٢٠٩/١٤.

(٢٠) ينظر التبيان ٢٠٨/٧.

(٢١) الميزان ٧٢/١٥..

(٢٢) أخذنا هذا المصطلح (الاطوار) من قوله تعالى ﴿وخلقناكم أطوارا﴾.

(٢٣) الميزان ٣٦٣/١٩.

(٢٤) ثمة بحث على شبكة المعلومات العالمية عنوانه «مراحل خلق الانسان على ضوء الكتاب والسنة» موقع طريق الايمان.

(٢٥) ينظر مصادر تفسير القرآن بالقرآن في شبكة المعلومات العالمية (الإنترنيت) في مواقع كثيرة، تحت هذا العنوان

(٢٦) صحيح البخاري ٨ / ٥٤.

٢
مَوقف الآلوسيِّ
من مرويّات الإمامين
الباقر والصادق عليهما السلام
الأستاذ الدكتور عصام كاظم شناوة الغالبي
جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد...

فقد زخرت تفاسير الإمامية قديما وحديثا بآلاف الأحاديث المروية عن أهل البيت ولا سيما الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام في تفسير آيات القرآن وبيان معاني كلماته، كيف لا وهم عدل القرآن وفي بيوتهم نزل؟!، فهم «مع القرآن، والقرآن معهم، لا يفارقونه حتى يردوا عليّ الحوض»، وقد نهى صلى الله عليه وآله عن تقدّمهما قائلا: «ولا تَقَدَّموهما فتَهلكوا، ولا تُعلّموهما فإنّهما أعلمُ منكم».

أما تفاسير العامّة فلم يخلُ أغلبها من الرجوع إلى أقوال أهل البيت والنهل من معينهم، ولكن استشهادها كان قليلا جدا إذا ما قِيستْ بتفاسير الإماميّة، وهي متفاوتة فيما بينها في الاستشهاد بأقوال الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فمن التفاسير ما كان رجوعها إليهما واستشهادها بأقوالهما أكثر من غيرها، ومنها ما كان استشهادها بأقوالهما قليلا جدّا، ومنها ما يكاد ينعدم استشهادها.

ويُعَدُّ تفسيرُ روح المعاني للآلوسيّ أكثر تفاسير العامّة رجوعًا للإمامين الباقر والصادق واستشهادًا بأقوالهما؛ إذ بلغ ذكر الإمام الباقر عليه السلام في هذا التفسير أكثر من خمسين مرة، وربا ذكر الإمام الصادق فيه على الثمانين مرة، في مواطن متفرقة.

وقد نوّع الآلوسي في تفسيره الأخذ من الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فتارة ينقل عنهما تفسير آية كاملة وتارة تفسير كلمة وبيان معناها، وتارة يروي عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وتارة ينقل عنهما فيمن نزلت الآية القرآنية، وتارة يروي قراءتهما إذا كانت اللفظة القرآنية قد قُرئتْ بأكثرَ من قراءة، وأحيانا ينقل ما رُوِيَ عنهما فيكذّب راويهما أو ينفي صدوره عن الإمامين؛ لذلك كان هذا البحث لتسليط الضوء على موقفه

من مرويات الإمامين عليهما السلام، واقتضت طبيعته أن يقسم على ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتتبعها خاتمة.

استقريت في المبحث الأول أهم تفاسير العامة مصنفا إياها إلى أصناف بحسب استشهادها بأقوال الإمام عليه السلام أو عدم استشهادها، وتناولت في المبحث الثاني موقف الآلوسي من مرويات الإمام الباقر، وفي المبحث الثالث موقف الآلوسي من مرويات الإمام الصادق عليه السلام، وسيحاول البحث تفصيل ما تقدّم ذكره مُعزّزا بالآيات القرآنية والمرويات المنسوبة إليهما عليهما السلام.

المبحث الأول
مرويات الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في تفاسير العامة

أولا: مرويات الإمام الباقر عليه السلام في تفاسير العامة:

لم تكن تفاسير العامة على مستوى واحد من ناحية الاستشهاد بأقوال الإمام الباقر عليه السلام، واستشهادها بأقواله قليل جدا إذا ما قيست بتفاسير الإمامية أو باستشهاد هذه التفاسير بأقوال الصحابة والتابعين من غير الإمامية.

فمن التفاسير ما لم تستشهد بأقوال الإمام، ولم تروِ عنه أيّ شيء يتعلق بتفسير كلمات القرآن أو آياته نحو تفاسير: الوجيز للواحدي والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري وتذكرة الأريب وتفسير ابن عرفة وتفسير ابن عبد السلام وتفسير التستري وتفسير الصنعاني وتفسير الجلالين وتفسير دقائق التفسير وغيرها.

ومن التفاسير ما يكاد ينعدم استشهادها بأقوال الإمام؛ إذ لم تذكر الإمام سوى مرة واحدة أو مرتين،

وعلى سبيل المثال لا الحصر تفسير الكشاف الذي لم يذكر الإمام الباقر سوى مرة واحدة، وذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة (٢٣٤)؛ إذ روى عن الإمام الباقر رواية تتعلق بموضوع الآية[١].

وكذلك تفسير البحر المديد الذي نقل عن الإمام مرة واحدة، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ الفرقان (٧٢)، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: إذا ذكروا الفروج كفوا عنها[٢].

ومنها أيضا تفسير أبي السعود الذي روى قراءة عن الإمام، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال﴾ الأنفال(١)، فذكر أن الإمام الباقر وغيره قرؤوا (يسألونك الأنفال) بحذف (عن)[٣].

وكذلك تفسير النسفي، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا مَرُّوا باللغو﴾، فقد روى عن الإمام الباقر قوله: إذا ذكروا الفروج كنوا عنها، وهو لا يختلف عن البحر المديد إلا في الفعل ففي البحر المديد (كفّوا) وفي النسفي (كنّوا)[٤].

ومثله تفسير أضواء البيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم﴾ التوبة(٥)، فقد روى عن الإمام الباقر أن هذه الأشهر هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم﴾ التوبة(٣٦)[٥].

وقريب منها تفسير التحرير والتنوير الذي لم يروِ عن الإمام سوى مرتين، منهما ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ الدخان(٣)، قائلا: «واختلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم من ليالي رمضان، فقيل: هي ليلة سبعَ عشرة منه ذكره ابن إسحاق عن الباقر عليه السلام أخذاً من قوله تعالى: ﴿إن كنتم آمنتم بالله

وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال (٤١)، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبعَ عشرة ليلة من رمضان اه. أي تأول قوله: ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ الأنفال(٤١) أنه ابتداء نزول القرآن»[٦].

وكذلك تفسير زاد المسير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الكوثر(٢)؛ إذ روى عن الإمام أن النحر رفع اليدين بالتكبير إلى النحر[٧].

وقريب منهما تفسير النكت والعيون؛ إذ لم يستشهد بأقوال الإمام سوى نحو خمس مرات منها في معنى كلمة (طه)، فقد روى عن الباقر أن معناها طوبى لمن اهتدى، قائلا: «وهذا قول محمد الباقر بن علي زين العابدين رحمهما الله»[٨].

ومن التفاسير ما وصل استشهادها بأقوال الإمام إلى نحو عشر مرات أو أكثر، نحو تفاسير المحرر الوجيز والبغوي والسراج المنير والطبري والرازي والنيسابوري والكشف والبيان وابن كثير والقرطبي واللباب وغيرها.

وبعد استقراء ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في هذه التفاسير وجد الباحث أن أكثر تفاسير العامة استشهادا بأقوال الإمام هو تفسير روح المعاني للآلوسي؛ إذ بلغت الروايات المنسوبة إلى الإمام الباقر عليه السلام في هذا التفسير أكثر من خمسين رواية، ولعل السبب في ذلك هو تأخر الآلوسي ونقله أغلب ما أورده المفسرون عن الإمام في تفاسيرهم.

ثانيا: مرويات الإمام الصادق عليه السلام في تفاسير العامة:

لم تختلف تفاسير العامة في نقلها عن الإمام الصادق عن نقلها عن أبيه الباقر عليهما السلام، فلم تكن كذلك على مستوى واحد من ناحية الاستشهاد بأقوال الإمام الصادق عليه السلام، واستشهادها بأقواله قليل جدا إذا ما قيست بتفاسير الإمامية أو باستشهاد هذه التفاسير بأقوال الصحابة والتابعين من غير الإمامية.

فمن التفاسير ما يكاد ينعدم استشهادها بأقوال الإمام؛ إذ لم تذكر الإمام سوى مرة واحدة نحو تفسير القشيري الذي

لم يذكر الإمام الصادق سوى مرة واحدة، وذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأنبياء (٨٣)، إذ روى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لما لحقه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّته ليقوم بحقّ الطاعة[٩].

وممن روى عن الإمام الصادق عليه السلام مرة واحدة أيضا تفسير القطان، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف (١٩٩)، إذ ذكر أنه رُوِي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس في القرآن آيةٌ أجمعَ لمكارم الأخلاق من هذه»[١٠].

وزاد عليهما قليلا تفسير الثعالبي، إذ روى عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاث مرات، منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ البيع وَحَرَّمَ الربا﴾ البقرة (٢٧٥)، إذ روى عن الإمام في تفسير الآية الكريمة أنه: وحرم الله الربَا؛ ليتقارض النَّاسُ[١١]، وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان﴾ الرحمن(٣١)، روى عن الإمام في سبب تسمية الإنس والجن بالثقلين أنه قال: سُمِّيَ الإنْسُ والجِنُّ ثَقَلَيْنِ؛ لأنَّهما ثَقُلاَ بالذنوبِ[١٢].

وقريب منه تفسير النسفي، ومما رواه ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ آل عمران (١٩٣)، إذ روى عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: من حزبه أمر فقال خمس مرات: «ربنا»، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد[١٣].

ومثلهما تفسير زاد المسير، ومما رواه عن الإمام الصادق عليه السلام ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الشعراء (٢،١)، إذ ذكر عددا من الآراء التي قيلت في معنى (طسم) ومنها ما نسبه إلى الإمام الصادق عليه السلام وهو أن الطاء شجرة طوبى، والسين: سدرة المنتهى، والميم: محمد صلى الله عليه وآله[١٤].

ومن التفاسير ما وصل استشهادها بأقوال الإمام إلى عشرات المرات،

نحو تفسير الكشف والبيان للثعلبي وتفسير القرطبي وتفسير البحر المحيط لأبي حيان وغيرها.

وبعد استقراء ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في هذه التفاسير وجد الباحث أن أكثر تفاسير العامة استشهادا بأقوال الإمام هو تفسير روح المعاني للآلوسي؛ إذ بلغت الروايات المنسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام في هذا التفسير أكثر من ثمانين رواية؛ ولعل السبب في ذلك هو تأخر الآلوسي ونقله أغلب ما أورده المفسرون عن الإمام في تفاسيرهم.

المبحث الثاني
موقف الآلوسي من مرويات الإمام الباقر عليه السلام

لم يتعامل الآلوسي بتحايد تام مع ما ينقله عن الإمام الباقر عليه السلام من أقوال، فهو معها ما دامت توافق عقيدته ولا تخالف ما يذهب إليه ويتمذهب عليه، أما ما يخالف عقيدته من هذه الروايات فهي مكذوبة على الإمام الباقر وضعها الشيعة (عاملهم الله بما يستحقون) على حدّ تعبيره.

ومما رواه عن إمامنا الباقر لأنه موافق لعقيدته ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة (٥٥)، فقد حاول الآلوسي جاهدا ألا تكون الآية قد نزلت في الإمام علي عليه السلام، قال: «... والثاني: أنا لا نسلم الإجماع على نزولها في الأمير كرم الله تعالى وجهه، فقد اختلف علماء التفسير في ذلك، فروى أبو بكر النقاش صاحب «التفسير المشهور» عن محمد الباقر عليه السلام

أنها نزلت في المهاجرين والأنصار، وقال قائل: نحن سمعنا أنها نزلت في عليّ كرم الله تعالى وجهه، فقال: هو منهم يعني أنه كرم الله تعالى وجهه داخل أيضاً في المهاجرين والأنصار ومن جملتهم. وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن عبد الملك بن أبي سليمان وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الباقر رضي الله تعالى عنه أيضاً نحو ذلك، وهذه الرواية أوفق بصيغ الجمع في الآية، وروى جمع من المفسرين عن عكرمة أنها نزلت في شأن أبي بكر رضي الله تعالى عنه»[١٥].

وكذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ التحريم (٣)، قال: «وفي (مجمع البيان) للطبرسي من أجل الشيعة عن الزجاج قال: لما حرم عليه الصلاة والسلام مارية القبطية أخبر أنه يملك من بعده أبو بكر. وعمر فعرفها بعض ما أفشت من الخبر وأعرض عن بعض أن أبا بكر وعمر يملكان من بعدي، وقريب من ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام إلا أنه زاد في ذلك أن كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك فعاتبهما في أمر مارية وما أفشتا عليه من ذلك، وأعرض أن يعاتبهما في الأمر الآخر»[١٦]، ثم قال: «وإذا سلم الشيعة صحة هذا لزمهم أن يقولوا بصحة خلافة الشيخين لظهوره فيها كما لا يخفى»[١٧].

ومما ورد مخالفا لعقيدته فحاول تكذيبه أو رده ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ البقرة (٢٣٣)، قال: والمضارة مفاعلة من الضرر، والمفاعلة إما مقصودة والمفعول محذوف أي

تضار والدة زوجها بسبب ولدها وهو أن تعنف به وتطلب ما ليس بعدل من الرزق والكسوة وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد وأن تقول بعد أن ألفها الصبي أطلب له ظئراً مثلاً ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذ الصبي منها وهي تريد إرضاعه أو يكرهها على الإرضاع وإما غير مقصودة، والمعنى: لا يضر واحد منهما الآخر بسبب الولد»[18].

ولما وجد رواية عن الأئمة تخالف ما ذهب قال: «ومن غريب التفسير ما رواه الإمامية عن السيدين الصادق والباقر رضي الله تعالى عنهما أن المعنى لا تضار والدة بترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها الرضيع ولا يضار مولود له بمنعه عن الجماع كذلك لأجل ولده، وحينئذٍ تتعين الباء للسببية، ويجب أن يكون الفعلان مبنيين للمفعول ولا يظهر وجه لطيف للتعبير بالولد في الموضعين، وتخرج الآية عما يقتضيه السياق، وبعيد عن الباقر والصادق عليهما السلام الإقدام على ما زعمه هذا الراوي الكاذب»[19].

ولا أعرف كيف توصل الآلوسي إلى أن راوي هذه الرواية كاذب أم هو التعصب الأعمى الذي لا يجعله يسلّم بكل ما يخالفه حتى لو ورد عن إمامين عظيمين كالباقر والصادق عليهما السلام.

واختلف المفسرون في تفسير (ثم اهتدى) في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾طه(٨٢) على آراء كثيرة نقلها الآلوسي في تفسيره، ومنها ما رواه الإمامية من عدة طرق عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت فوالله لو أن رجلاً عبد الله تعالى عمره بين الركن والمقام ثم مات ولا يجيء بولايتنا لأكبه الله تعالى في النار على وجهه»[20].

ثم علق قائلا: «وأنت تعلم أن ولايتهم وحبهم مما لا كلام عندنا في وجوبه لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان

موسى عليه السلام مما يستدعي القول بأنه عز وجل أعلم بني إسرائيل بأهل البيت وأوجب عليهم ولايتهم إذ ذاك ولم يثبت ذلك في «صحيح الأخبار».

نعم روى الإمامية من خبر جارود بن المنذر العبدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يا جارود ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز وجل إلى أن سل من أرسلنا قبلك من رسلنا علام بعثوا؟ قلت: علام بعثوا؟ قال: على نبوتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما ثم عرفني الله تعالى بهم بأسمائهم ثم ذكر صلى الله عليه وسلم أسماءهم واحداً بعد واحد إلى المهدي وهو خبر طويل يتفجر الكذب منه ولهم أخبار في هذا المطلب كلها من هذا القبيل فلا فائدة في ذكرها إلا التطويل»[٢١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ﴾ الأحزاب(٦) نقل كثيرا من روايات الإمامية التي تنص على أن أمير المؤمنين عليّا قد طلق عائشة يوم الجمل، وذكر أيضا أنه رأى في كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحراني في مثالب جمع من الصحابة روايات كثيرة قريبة مما ذكر، ومنها ما رواه الطبرسي أيضاً في «الاحتجاج» عن الباقر أنه قال: لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال علي كرم الله تعالى وجهه: والله ما أراني إلا مطلقها فأنشد الله تعالى رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا علي أمر نسائي بيدك من بعدي لما قام فشهد فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا بذلك الحديث، وكذلك قول البحراني: رأيت في بعض الأخبار التي لا تحضرني الآن ما هو صريح في وقوع الطلاق[٢٢].

ومعلوم أن ما ذكر لا يوافق عقيدة الآلوسي لذلك قال: «وهذا لعمري من السفاهة والوقاحة والجسارة على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بمكان وبطلانه أظهر من أن يخفى وركاكة ألفاظه تنادي على كذبه بأعلى صوت ولا أظنه قولاً مرضياً عند من له أدنى عقل منهم فلعن الله تعالى من اختلقه وكذا من يعتقده»[٢٣].

وفسّر الآلوسي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ التحريم (٩) قائلا: «﴿يأيُّها النبى جاهد الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة ﴿واغلظ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرفق مداه»[٢٤]، ثم روى عن الطبرسي أنه حكى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قرأ جاهد الكفار بالمنافقين، ولم يعجبه ما حكاه الطبرسيّ فقال: «وأظن ذلك من كذب الإمامية عاملهم الله تعالى بعدله»[٢٥].

وقد اتهم الآلوسيُّ الطبرسيَّ بالكذب في هذه الرواية، ولقد قال في موضع سابق: إن الطبرسي من أجلّ علماء الشيعة، فما حدا مما بدا؟؟؟. أ لأن ما رواه الطبرسي سابقا يوافق عقيدته، وهنا يخالفه أم ماذا؟؟؟.

وفي معرفة حمالة الحطب في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ المسدّ (٤) قال: «... وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ثم روى رواية قال فيها: أخرج ابن عساكر عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عليه السلام أن عقيل بن أبي طالب دخل على معاوية فقال معاوية له: أين ترى عمك أبا لهب من النار، فقال له عقيل: إذا دخلتها فهو على يسارك مفترش عمتك حمالة الحطب والراكب خير من المركوب»[٢٦].

ولم تعجب الآلوسي هذه الرواية؛ لأن فيها ذمًا لمعاوية فعلق عليها قائلا: «ولا أظن صحة هذا الخبر عن الصادق لأن فيه ما فيه»[٢٧].

وذكر الآلوسي أن المفسرين اختلفوا في معنى (النعيم) الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر(٨) على أقوال «فأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود مرفوعاً هو الأمن والصحة وأخرج البيهقي عن الأمير علي كرم الله تعالى وجهه قال النعيم العافية وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبردا وأخرج ابن جرير عن ثابت البناني مرفوعاً النعيم المسؤول عنه يوم

القيامة كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه وأخرج الخطيب عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسره قال الخصاف والماء وفلق الكسر وروي عنه وعن جابر أنه ملاذ المأكول والمشروب وقال الحسين بن الفضل هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن»[٢٨].

ثم نقل ما رواه جابر الجعفي من الإمامية قال: دخلت على الباقر عليه السلام قال: ما يقول أرباب التأويل في قوله تعالى لتسئلن يومئذ عن النعيم؟، فقلت: يقولون: الظل والماء البارد فقال: لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وسقيته أتمن عليه؟، قلت: لا، قال: فالله تعالى أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه، قلت: ما تأويله؟، قال: النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله تعالى به على أهل العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً﴾؟ آل عمران (١٦٤).

ونقل أيضا ما رواه العياشي من الإمامية أيضاً أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام «قال لأبي حنيفة في الآية: ما لنعيم عندك يا نعمان؟، فقال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال أبو عبد الله: لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه فقال أبو حنيفة: فما النعيم؟، قال: نحن أهل البيت النعيم أنعم الله تعالى بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألف الله تعالى بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء وبنا هداهم إلى الإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع والله تعالى سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته عليه وعليهم الصلاة والسلام»[٢٩].

والروايتان تخالفان عقيدة الآلوسي لذلك ردّهما قائلا: «وكلا الخبرين لا أرى لهما صحة وفيهما ما ينادي عن عدم صحتهما كما لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد والحق عموم الخطاب والنعيم بيد أن المؤمن لا يثرب

عليه في شيء ناله منه في الدنيا بل يسأل غير مثرب وإنما يثرب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه الطبراني عن ابن مسعود»[٣٠]، ثم أتى بأحاديث استدل من خلالها على عموم الخطاب[٣١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ التوبة (٧٤) ذكر التآمر الذي قام به عدد من المنافقين لقتل رسول الله، وذكر أنهم اثنا عشر رجلا وكانوا كلهم كما أخرج ابن سعد عن نافع بن جبير من الأنصار أو من حلفائهم ليس فيهم قرشي. ثم ذكر ما نقله الطبرسي عن الباقر عليه السلام أن ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب[٣٢]، وهذا النقلُ لا يعوّل عليه برأي الآلوسي؛ لأن فيه طعنا لبعض الصحابة الذين هم من قريش، وإن كان الناقل الطبرسي الذي هو من أجلّ الشيعة بحسب رأيه.

المبحث الثالث
موقف الآلوسي من مرويات الإمام الصادق عليه السلام

لم يختلف موقف الآلوسي من مرويات الإمام الصادق عليه السلام عن موقفه من مرويات أبيه الباقر عليه السلام، فلم يتعامل الآلوسي بتحايد تام مع ما ينقله عن الإمام الصادق عليه السلام من أقوال، فهو معها ما دامت توافق عقيدته ولا تخالف ما يذهب إليه ويتمذهب عليه، أما ما يخالف عقيدته من هذه الروايات فهي مكذوبة على الإمام الصادق وضعها الشيعة (عاملهم الله بما يستحقون)، على حدّ تعبيره، أو أن غيرها أقرب إليه منها.

ومما رواه الآلوسي مؤيدا لما يعتقده ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ النمل (١٦)، فحاول أن يصرف الوراثة عن معناها الحقيقي إلى المعنوي قائلا: ﴿وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ﴾ أي قام مقامه في النبوة والملك وصار نبياً ملكاً بعد

موت أبيه داود عليه السلام فوراثته إياه مجاز عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته، وقيل: المراد وراثة النبوة فقط، وقيل: وراثة الملك فقط، وعن الحسن ونسبه الطبرسي إلى أئمة أهل البيت أنها وراثة المال، وتعقب بأنه قد صح «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[٣٣].

ثم روى حديثا أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»، وروى محمد بن يعقوب الرازي في (الكافي) عن أبي البحتري عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام أنه قال ذلك أيضاً، ومما يدل على أن هذه الوراثة ليست وراثة المال ما روى الكليني عن أبي عبد الله أن سليمان ورث داود وأن محمداً ورث سليمان صلى الله عليه وسلم، وأيضاً وراثة المال لا تختص بسليمان عليه السلام فإنه كان لداود عدة أولاد غيره كما رواه الكليني عنه أيضاً، وذكر غيره أنه عليه السلام توفي عن تسعة عشر ابناً فالإخبار بها عن سليمان ليس فيه كثير نفع وإن كان المراد الأخبار بما يلزمها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام فما الداعي للعدول عما يفيده من غير خفاء مثل وقال سليمان بعد موت أبيه داود (يا أيها الناس) الخ»[٣٤].

وكذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ...﴾ البقرة(١٣٦)، تكلم على معنى الأسباط الواردة في الآية، ثم قال: «واختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب هل كانوا كلهم أنبياء أم لا؟، والذي صح عندي الثاني وهو المروي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وإليه ذهب الإمام السيوطي وألف فيه؛ لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه الصلاة والسلام ينافي النبوة قطعاً وكونه قبل البلوغ غير مسلم؛ لأن فيه أفعالاً لا يقدر عليها إلا البالغون، وعلى تقدير التسليم لا يجدي نفعا على ما هو القول الصحيح في شأن

الأنبياء وكم كبيرة تضمن ذلك الفعل وليس في القرآن ما يدل على نبوتهم»[٣٥].

وكذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ البقرة(١٤٢)، فقد ذكر الآلوسي أنَّ الناس اختلفوا في مدة بقائه صلى الله عليه وآله مستقبلاً بيت المقدس ففي «رواية مالك بن أنس تسعة أشهر أو عشرة أشهر، وعن معاذ ثلاثة عشر شهراً، وعن الصادق عليه السلام سبعة أشهر، وهل استقبل غيره قبل بمكة أم لا؟ قولان: أشهرهما الثاني وهو المروي أيضاً عن الصادق رضي الله تعالى عنه»[٣٦].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ النساء(٢٤) ناقش الآلوسي رأي الشيعة في زواج المتعة ذاكرا أن أبا نصير من الشيعة روى في صحيحه «عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن امرأة المتعة أهي من الأربع؟ قال: لا ولا من السبعين»، فعلق قائلا: «وهو صريح في أنها ليست زوجة وإلا لكانت محسوبة في الأربع، وبالجملة الاستدلال بهذه الآية على حل المتعة ليس بشيء كما لا يخفى»[٣٧].

ومنه أيضا ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فاطر (٣٢)، فقد ذكر الآلوسي عددا من الآراء في المراد بالمصطفَين في الآية الكريمة منها أن المراد بالمصطفين علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم وإيراثهم القرآن جعلهم فاهمين معناه واقفين على حقائقه ودقائقه أمناء على أسراره، ثم ذكر أن الإمامية رووا عن الصادق والباقر عليهما السلام أنهما قالا: هي لنا خاصة وإيانا عنى أرادا أن أهل البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسي الإمامي قال في تفسيره (مجمع البيان): وهذا أقرب الأقوال لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الأنبياء عليهم السلام[٣٨].

وقد علق الآلوسي قائلا: «وربما يستأنس له بقوله عليه الصلاة والسلام:

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض... وحملهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص ويدخل فيهم علماء أهل البيت دخولاً أولياً ففي بيتهم نزل الكتاب ولن يفترقا حتى يردا الحوض يوم الحساب، وإذا كانت الإضافة في ﴿عِبَادِنَا﴾ للتشريف واختص العباد بمؤمني هذه الأمة وكانت من للتبعيض كان حملُ المصطفين على العلماء كالمتعين، وعن الجبائي أنهم عليهم السلام اختارهم الله تعالى وحباهم برسالته وكتبه»[٣٩].

ومما ورد مخالفا لعقيدته فحاول تكذيبه أو رده ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ البقرة (٢٣٣) قال: «والمضارة مفاعلة من الضرر، والمفاعلة إما مقصودة والمفعول محذوف أي تضار والدة زوجها بسبب ولدها وهو أن تعنف به وتطلب ما ليس بعدل من الرزق والكسوة وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد وأن تقول بعد أن ألفها الصبي أطلب له ظئراً مثلاً ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذ الصبي منها وهي تريد إرضاعه أو يكرهها على الإرضاع وإما غير مقصودة، والمعنى: لا يضر واحد منهما الآخر بسبب الولد»[٤٠].

ولما وجد رواية عن الأئمة تخالف ما ذهب قال: «ومن غريب التفسير ما رواه الإمامية عن السيدين الصادق والباقر رضي الله تعالى عنهما أن المعنى لا تضار والدة بترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها الرضيع ولا يضار مولود له بمنعه عن الجماع كذلك لأجل ولده، وحينئذٍ تتعين الباء للسببية، ويجب أن يكون الفعلان مبنيين للمفعول ولا يظهر وجه لطيف للتعبير بالولد في الموضعين، وتخرج الآية عما يقتضيه السياق، وبعيد عن الباقر

والصادق عليه السلام الإقدام على ما زعمه هذا الراوي الكاذب»[٤١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ النساء(١١) ذكر الآلوسي أنه روي عن جعفر الصادق عليه السلام «أن حواء عليها السلام أخذت حفنة من الحنطة وأكلت وأخذت أخرى وخبأتها ثم أخرى ودفعتها إلى آدم عليه السلام فلما جعلت نصيب نفسها ضعف نصيب الرجل قلب الأمر عليها فجعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل» فعلق عليه قائلا: ذكره بعضهم ولم أقف على صحته.

ومن ذلك ما نقله الآلوسي عن «ابن بابويه في كتاب (التوحيد) عن الصادق عليه السلام في حديث طويل أيضاً أنه قال: لعلك ترى أن الله تعالى لم يخلق بشراً غيركم بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين... وفي كتاب (الخصائص) ما يكاد يفهم منه التعدد أيضاً الآن، حيث روى فيه عن الصادق أنه قال: إن لله تعالى اثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالماً غيرهم، وأني للحجة عليهم»[٤٢].

وهذا مخالف لما يعتقد به الآلوسي، لذا علق عليه قائلا: «ولعل هذا وأمثاله من أرض السمسمة وجابرسا وجابلقا - إن صح - محمول على عالم المثال لا على هذا العالم الذي نحن فيه، وحمل تعدد آدم في ذلك العالم أيضاً غير بعيد، وأما القول بظواهر هذه الأخبار فمما لا يراه أهل السنة والجماعة، بل قد صرح زين العرب بكفر من يعتقد التعدد، نعم إن آدمنا هذا عليه السلام مسبوق بخلق آخرين كالملائكة والجن وكثير من الحيوانات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى»[٤٣].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿عُرُباً أترابا﴾ الواقعة (٣٧)، ذكر الآلوسي أن ابن أبي حاتم أخرج عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿عُرُباً﴾ كلامهن عربي، فعلق الآلوسي

قائلا: ولا أظن لهذا صحة؛ والتفسير بالمتحببات هو الذي عليه الأكثر[٤٤].

وفي تفسير حمالة الحطب في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ المسدّ(٤) قال: «... وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ثم روى رواية قال فيها: أخرج ابن عساكر عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عليهما السلام أن عقيل بن أبي طالب دخل على معاوية فقال معاوية له: أين ترى عمك أبا لهب من النار؟، فقال له عقيل: إذا دخلتها فهو على يسارك مفترش عمتك حمالة الحطب والراكب خير من المركوب»[٤٥].

ولم تُعجب الآلوسي هذه الرواية؛ لأن فيها ذمًا لمعاوية فعلق عليها قائلا: «ولا أظن صحة هذا الخبر عن الصادق لأن فيه ما فيه»[٤٦].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر (٨)، نقل الآلوسي روايتين ذكرهما العياشي من الإمامية الأولى عن الإمام الباقر والأخرى أن أبا عبد الله الصادق «قال لأبي حنيفة في الآية: ما النعيم عندك يا نعمان؟ فقال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال أبو عبد الله: لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه، فقال أبو حنيفة: فما النعيم؟، قال: نحن أهل البيت النعيم أنعم الله تعالى بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألف الله تعالى بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء وبنا هداهم إلى الإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع والله تعالى سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته عليه وعليهم الصلاة والسلام»[٤٧].

والروايتان تخالفان عقيدة الآلوسي لذلك ردّهما قائلا: «وكلا الخبرين لا أرى لهما صحة وفيهما ما ينادي عن عدم صحتهما كما لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد والحق عموم الخطاب والنعيم بيد أن المؤمن لا يثرب عليه في شيء ناله منه في الدنيا بل يسأل غير مثرب وإنما يثرب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه

الطبراني عن ابن مسعود»[٤٨]، ثم أتى بأحاديث استدل من خلالها على عموم الخطاب[٤٩].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء (٨٠)، ذكر الآلوسي أنه روي «عن جعفر الصادق عليه السلام أن المعنى وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفيني بالتوبة» ولم يعجبه تفسير الإمام فعلق قائلا: «ولعله لا يصح وإن صح فهو من باب الإشارة لا العبارة»[٥٠].

خاتمة البحث:

نظر الباحث في الروايات التي نقلها مفسرو العامة ولا سيما الآلوسي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام مصنفا إياها باحثا فيها، ناظرا في موقف الآلوسي منها، ولعل أهم ما توصل إليه البحث ما يأتي:

١- لم تخلُ أغلب تفاسير العامة من الرجوع إلى أقوال أهل البيت والنهل من معينهم، ولكن استشهادها كان قليلا جدا إذا ما قِيستْ بتفاسير الإماميّة، فمن التفاسير ما كان رجوعها واستشهادها بأقوالهم أكثر من غيرها، ومنها ما كان استشهادها بأقوالهم قليلا جدّا، ومنها ما يكاد ينعدم استشهادها.

٢- أغلب الروايات التي يرويها مفسّرو العامة عن أئمتنا عليهم السلام هي روايات مرسلة ولا نعرف مدى صحة ورودها عن الأئمة؛ لذا يوصي الباحث بتحقيق تلك الروايات والتحقق من نسبتها إلى أئمتنا عليهم السلام.

٣- وجد الباحث أن تفسير الآلوسي أكثر تفاسير العامة استشهادا بأقوال الإمام الصادق عليه السلام، إذ بلغت الروايات المنقولة أكثر من ثمانين رواية، وأرجع

الباحثُ السببَ في ذلك إلى تأخر الآلوسي ونقله أغلب ما أورده المفسرون عن الإمام في تفاسيرهم.

٤- تتعدد الآراء التفسيرية في روح المعاني باختلاف المفسرين واختلاف مشاربهم، ويحاول الآلوسي أن يحيط بأغلب ما ذكروه في تفسير لفظة أو عبارة قرآنية، وممن روى عنهم الآلوسي الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام؛ إذ استشهد بعدد من الروايات المروية عنهما في بيان معنى كلمة أو عبارة قرآنية.

٥- لم يقتصر الآلوسي في تفسيره من روايات الإمامين عليهما السلام على الروايات التفسيرية، وإنما تعداها إلى غيرها فذكر روايات غير تفسيرية.

٦- لم يتعامل الآلوسي بتحايد تام مع ما ينقله عن الإمامين عليهما السلام من أقوال، فهو معها ما دامت توافق عقيدته ولا تخالف ما يذهب إليه ويتمذهب عليه، أما ما يخالف عقيدته من هذه الروايات فهي في نظره مكذوبة على الإمام الصادق عليه السلام وضعها الشيعة (عاملهم الله بما يستحقون)، على حدّ تعبيره.

مصادر البحث

* القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، من مصادر المكتبة الشاملة.

٢. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت.

٣. البحر المديد، ابن عجيبة، من مصادر المكتبة الشاملة.

٤. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحُسَينيّ الزَبيديّ (١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٥. التحرير والتنوير، ابن عاشور، من مصادر المكتبة الشاملة.

٦. تيسير التفسير، إبراهيم القطان، من مصادر المكتبة الإلكترونية (الشاملة).

٧. جواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح أبو سنة - الشيخ علي محمد معوض - والشيخ

عادل أحمد عبد الموجود الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان ١٤١٨هـ.

٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الآلوسي.

٩. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م.

١٠.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م.

١١.كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٩م.

١٢.لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، من مصادر المكتبة الشاملة.

١٣.مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي.

١٤. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، من مصادر المكتبة الشاملة.

الهوامش

(١) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٧٢

(٢) ينظر: البحر المديد لابن عجيبة: ٤ / ٣١٥

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ٣ / ٩١

(٤) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٧٨

(٥) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي: ٢ / ١١٥

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٣ / ٢٦٢

(٧) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: ٨ / ٣٢٠

(٨) ينظر: النكت والعيون للماوردي: ٤ / ١١٨

(٩) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري: ٥ / ١٣٩

(١٠) ينظر: تيسير التفسير للقطان: ٢ / ٩٥

(١١) ينظر: جواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي: ١ / ١٧٢

(١٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤ / ٣٠

(١٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ١ / ٢٠٣

(١٤) ينظر: زاد المسير ٦ / ٣١

(١٥) روح المعاني: ٦ / ١٦٨

(١٦) روح المعاني: ٢٨ / ١٥١

(١٧) روح المعاني: ٢٨ / ١٥١

(١٨) ينظر: روح المعاني: ٢ / ١٤٧

(١٩) روح المعاني: ٢ / ١٤٧

(٢٠) روح المعاني: ١٦ / ٢٤١

(٢١) روح المعاني: ١٦ / ٢٤١

(٢٢) ينظر: روح المعاني: ٢١ / ١٥٢

(٢٣) روح المعاني: ٢١ / ١٥٢

(٢٤) روح المعاني: ٢٨ / ١٦٢

(٢٥) روح المعاني: ٢٨ / ١٦٢

(٢٦) روح المعاني: ٣٠ / ٢٦٣

(٢٧) روح المعاني: ٣٠ / ٢٦٣

(٢٨) روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٦

(٢٩) روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٦

(٣٠) روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٦

(٣١) ينظر: روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٧-٢٢٨

(٣٢) ينظر: روح المعاني: ١٠ / ١٣٩

(٣٣) روح المعاني: ١٩ / ١٧١.

(٣٤) روح المعاني: ١٩/ ١٧١

(٣٥) روح المعاني: ١ / ٣٩٥

(٣٦) روح المعاني: ٢/ ٣

(٣٧) روح المعاني: ٥ / ٧

(٣٨) يُنظر: روح المعاني: ٢٢ / ١٩٥

(٣٩) روح المعاني: ٢٢ / ١٩٥.

(٤٠) روح المعاني: ٢ / ١٤٧

(٤١) روح المعاني: ٢ / ١٤٧

(٤٢) روح المعاني: ٤ / ١٨١.

(٤٣) روح المعاني: ٤/ ١٨١.

(٤٤) يُنظر روح المعاني: ٢٧/ ١٤٢.

(٤٥) روح المعاني: ٣٠ / ٢٦٣

(٤٦) روح المعاني: ٣٠ / ٢٦٣

(٤٧) روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٦

(٤٨) روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٦

(٤٩) ينظر: روح المعاني: ٣٠ / ٢٢٧-٢٢٨

(٥٠) روح المعاني: ١٩ / ٩٧.

٣
الإيقاع المعنوي
في القرآن الكريم
أ.م.د. خالد كاظم حميدي
كلية الشيخ الطوسي الجامعة/النجف الأشرف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونصلّي ونسلّم على نبيّه الأمين محمد وآله الطيبين الطاهرين وأتباعه الغرّ الميامين، وحملة الرسالة من بعده، والداعين إلى سبيله وهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فمهمة هذا البحث محددة في دراسة الإيقاع المعنوي بوصفه موجها قرائيا يستظهر دلالات النص الأدبي وأثره الجمالي في المتلقي، فهو نابع من حركة المعاني الكامنة في النفس والمتفاعلة مع الحركة التعبيرية ليكسبها نمواً حيوياً يسري بفعل نظام العلاقات اللغوية والسياقية، والعلاقات الدلالية والإيحائية في النص، وقد وقع الاختيار التطبيقي على سورة قرآنية كريمة مباركة، وهي سورة الكوثر، وكان للاختيار جملة من المسوغات العلمية، منها ما يتصل بقصر السورة مما يجعل الإحاطة بها أكثر من غيرها، فضلاً عن ورود الإيقاع المعنوي فيها بتقنية إبداعية مقصودة تستدعي القارئ أن يطيل النظر في طريقة بنائها ولاسيما عند النظر في أخص خصائص شكلها الذي وردت فيه، لكشف المعاني العميقة التي أوجدها البناء النصي؛ ذلك أن هذا النوع من الإيقاع يعمل على جعل المتضادات أو المتقابلات المعنوية جنبا إلى جنب وهو بذلك يمنحها وضوحا وهيمنة، فعندما تعرض الكلمات كُلّا في مقابل الآخر نستطيع معرفتها مباشرة وفهمها بسهولة، فضلا عما يتركه الإيقاع المعنوي من أثر جمالي منبعث في متلقي النص بتحقيق بنية إيقاعية من نوع خاص، وهي بنية مختلفة عن إيقاع التشابه القائم على التداعي اللفظي، فالإيقاع المعنوي لا يتأتّى من ظاهر المفردة أو أصواتها المكونة لها، وإنما نحتاج فيه إلى الغور في أعماق الكلمة لبيان

دقائقها ومعرفة المعنى الذي تحمله، وعنده يقوم الإيقاع على فكرة التقابل بين الألفاظ والمعاني وتضاد الدوال في مدلولاتها.

وبذلك تتفاعل الوظيفتان الدلالية والجمالية في تكوين بلاغة قرآنية معجزة تنبئ عن استعمال خاص للغة استدعاه السياق اللغوي والمقامي الذي رصد قضية مهمة وحساسة تعرضت لها سورة الكوثر وهي تقابل كوثر المعطِي وكوثر المُعطَى إليه بلحاظ معنى الكوثر الذي يشمل كل خير كثير، سواء أكان من الخالق أم من المخلوق، وبذلك يقابل العطاء الإلهي (إنا أعطيناك الكوثر) شكر وحمد ورضى من العبد والذي يتجسد على شكل كوثر (الصلاة والنحر) لترسم هذه السورة المباركة سلوكا تطبيقيا راقيا بين العبد الشاكر والخالق القادر.

وقد تعاضدت هذه البنية التقابلية مع بنية تقابلية أخرى وازنت بين: (الأبتر) و(صاحب الكوثر) وقد صاغت السورة المباركة الإيقاع المعنوي أو التقابلي برؤية عميقة مثّلت بمجموعها قلبا للموازين الجاهلية التي أغرقت في أهمية النسل بوصفه الامتداد الطبيعي الذي يخلُد به ذكر الإنسان، وانعدام النسل يعني البتر من الذكر والاندراس من الوجود.

وتأتي سورة الكوثر -على قصرها- لتؤسس نظرة جديدة مستمدة من نظرة عميقة للوجود والكون تخالف نظرة الإنسان البسيطة والسطحية، بأنّ خلود الذِكر لا يتعلق بالنسب قدر تعلقه بما يحققه الإنسان من محامد ومحاسن مشفوعا بالتوفيق الإلهي، فمبغض الرسول ﷺ هو الأبتر، وإن كان له ولد؛ لأنّ المبغض غير مؤمن برسالته فهو كافر منقطع عن الخير بإزاء الإنسان الكامل ﷺ الذي لم ينقطع عنه الخير الكثير، ولهذا لم يبترْ وإن مات ولده. وهذه هي الرؤية الإسلامية المخالفة للرؤية الجاهلية؛ لأن الرسول ﷺ موصول

بالخير الكثير دنيا وآخرة، وهذه النظرة العميقة، وهذا القلب للموازين صيغ بطريقة إيقاعية تقابلية بليغة استطاعت أن تقنع السامع وتجعله يعيد النظر بما تعارفه وجبل عليه من معتقدات مقدسة، بحيث تكون مقبولة على الرغم من عدم تصديقها.

وأخيرا فكلنا أمل أن يُكتب لهذا الجهد من التوفيق والسداد ما يشدّ من أزرنا لمواصلة هذا الطريق وما توفقينا إلا بالله العلي العظيم عليه توكلنا وإليه ننيب.

التمهيد:

الأسس المنهجية للدراسة: (في رحاب السورة المباركة، مفهوم الإيقاع المعنوي).

١- في رحاب السورة المباركة:

* سبب التسمية:

لسورة الكوثر أسماء عديدة منها أسماء توقيفية وأخرى اجتهادية، فاسمها التوقيفي هو سورة الكوثر، وقد سميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

أما أسماؤها الاجتهادية فهي (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، وعُرفت هذه التسمية في عهد الصحابة، فعن عمرو بن ميمون قال: طعن عمر وماج الناس تقدم عبد الرحمن بن عوف فقرأ سورتين في القرآن: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وسورة (إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ)، وعن ابن عباس (رض) قال: أُنزلت سورة (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ...) بمكة. وأمّا وجه التسمية بسورة (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ)؛ ذلك أنها أول آية افتتحت بها السورة[١].

والاسم الثاني هو (النحر)[٢]، وسميت بذلك؛ لأنه معروف في النحر الإبل،

وذلك غاية الكوثر عند العرب. فيكون هذا الاسم اجتهاديّاً منه وليس توقيفيّاً من رسول الله صلى الله عليه وآله[٣].

* سبب نزول السورة الكريمة:

ورد أن معاندي قريش ممن كانوا يتابعون النبي صلى الله عليه وآله ودعوتهِ بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء، ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم بهِ من عند الله تعالى، ومنهم العاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، وأبو لهب وغيرهم، كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وآله إنه أبتر. ويشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده. وقال أحدهم: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره[٤]، وكان هذا اللون من الكيد يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعاً. وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهشُّ لها من أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وشانئيهِ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسّته بالغم أيضا.

ونزلت هذه السورة تمسح على قلبه صلى الله عليه وآله بالروّح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختارهُ له ربُّهُ؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه[٥]. فقد كان للنبي صلى الله عليه وآله ولدان من أم المؤمنين خديجة (رض) أحدهما القاسم، والآخر الطاهر، ويسمى عبد الله وتوفي كلاهما في مكة. وكان للرسول صلى الله عليه وآله ابن آخر من (ماريا القبطية) اسمه إبراهيم ولد في السنة الثامنة للهجرة بالمدينة، ولكن توفي أيضا قبل بلوغ الثانية من عمره، وحزن عليه الرسول صلى الله عليه وآله كثيرا[٦]، وأصبح النبي من دون ولد. وهذه المسألة وفّرت على الأعداء فرصة الطعن بالنبي صلى الله عليه وآله فسموهُ الأبتر، وقد ورد عن ابن عباس أنها نزلت في العاص، وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله. يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تحدث؟، قال: ذاك الأبتر يعني النبي صلى الله عليه وآله وكانوا يسمّون من ليس له ابن أبتر، فأنزل الله هذه السورة[٧].

والعرب بحسب تقاليدها كانت تعير أهمية بالغة للولد وتعده امتدادا للأب. وبعد وفاة عبد الله خال الأعداء أن الرسالة سوف تنتهي بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله[٨].

وعن ابن عباس (رض) قال: كان العاص بن وائل يمر بمحمد صلى الله عليه وآله ويقول: إني لأشنأك وإنك لأبتر من خير الدنيا والآخرة[٩].

والأبتر هو المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى ولو كان لهُ بنون فهم غير نافعيه ويُراد أيضاً في معنى الأبتر الحقير والذليل وللأبتر معانٍ كثيرة نوجز منها ولو الشيء اليسير منها ما جاء في الروايات حيث يروى عن عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله ودعا قريشاً إلى الإسلام، قالوا بتر محمد، أي: خالفنا وأنقطع عنا، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون[١٠].

* فضلها:

جاءت روايات كثيرة في فضل سورة الكوثر نذكر منها ما جاء عن أُبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من قرأ سورة- إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ- سقاه الله من أنهار الجنة وأُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في كل يوم عيد ويقربون من أهل الكتاب المشركين)[١١].

وعن مكحول عن النبي محمد صلى الله عليه وآله: من قرأ إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ، كان له ما بين المشرقِ والمغَربِ أبعرةٌ، على كُلِّ بعِير، كرَاريسُ، كرَّاس مثلُ الدُّنيا وما فيهَا، كتب بدقة الشّعرِ ليس فِيهَا إلاّ صفة قصوره، ومَنازله في الجنَّةِ[١٢].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَر في فرائضه ونوافله، سقاهُ الله يوم القيامة من الكوثر، وكان محدّثه عند محمد صلى الله عليه وآله في أصل طوبى[١٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ سورة الكوثر سقاهُ الله من كل نهر في الجنة ويُكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر العظيم[١٤].

٢ـ مفهوم الإيقاع المعنوي:

من أجل التعريف بالإيقاع المعنوي يجدر بنا قبل ذلك التعريف بالتقابل؛ وذلك لأن هذا النوع من الإيقاع يرتكز بشكل كبير على البنية التقابلية.

*** التقابل في اللغة:**

وردت لفظة التقابل في المعجمات العربية بمعانٍ مختلفة فقد ذكر الخليل الفراهيدي (ت١٧٥هـ) أن التقابل هو: اسم أخذ من الأصل الثلاثي(ق ب ل) وقد تنوعت المعاني التي اشتقت من هذا الأصل، والقِبل: الطاقة، تقول: لا قِبَل لهم. وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قِبلاً أي مواجهة[١٥].

وذكر الجوهري: المقابلة: المواجهة والتقابل مثله[١٦].

أما ابن فارس قد ذكر أن: القاف والباء واللام أصل واحد صحيح تدلّ الكلمة كلّها على مواجهة الشيء بالشيء[١٧].

وأيضا قال ابن سيده: وقابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالا: عارضه، وتقابل القوم: استقبل بعضهم بعضا[١٨].

نفهم مما تقدم أن المعنى من هذا الأصل مرتكز على معنى الطاقة المقابلة لطاقة أخرى، وذلك من خلال معنى المواجهة، فلعلّ الخليل يشير في قوله: (لقيته قبلا أي مواجهة) إلى التقاء طاقتين مواجهتين[١٩].

وهذا هو جوهر الإيقاع المعنوي.

*** التقابل في اصطلاحاً:**

لم يرد التقابل أسلوبا مستقلا ضمن التقسيمات البلاغية، وإنما أشير إليه بوصفه أحد أنواع المواجهة بين الأشياء، والمخالفة المعنوية التي تطرأ على اللفظ بإزاء اللفظ الآخر داخل السياق النصي الذي جمعهما، وقد تجلّت هذه الإشارات في مبحث التكافؤ وهو: «أن يصف الشاعر شيئا أو يذمه، ويتكلم فيه أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين»[٢٠] بحسب قول قدامة بن جعفر، وقد أشار إلى معنى التكافؤ بقوله: «والذي أريد بقولي: متكافئين في هذا الموضع أي: متقابلين، إما من جهة المصادرة، أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام

التقابل، مثل قول أبي الشعب العبسي:

حُلْو الشمائلِ وهوَ مرٌّ باسلٌ
يحمي الذمارَ صبيحةَ الإرهان

فقوله: (مرّ وحلو) تكافؤ»[٢١].

ومبحث الطباق الذي يعرف بأنه: الجمع بين الشيء وضده في الكلام، مع مراعاة التقابل.

ومبحث المقابلة التي هي: الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر ثم مقابلته بمثله، فإذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده[٢٢].

تكشف لنا هذه التعريفات التشابه الكبير بين اصطلاحات التكافؤ والطباق والمقابلة، لتوافرها على سمةٍ أساسٍ ومركزية هي سمة التقابل، وهذه السمة يمكن لها الجمع بين هذه المباحث في نطاق واحد ومجال محدد.

ويفصح النظر في الدرس البلاغي عن أن البلاغيين قد فصلوا بين هذه المباحث على الرغم من كثرة القواسم المشتركة بينها، وكان من الممكن أن تنضوي تحت مصطلح بلاغي واحد يُعطى تعريفا جامعا يحدد إمكاناته ووظائفه الدلالية والجمالية.

ويبدو أنّ البلاغيين - في تقسيمهم هذا - نظروا إلى التكافؤ والطباق والمقابلة من منظور أفقي، فوقعوا تحت تأثير المعيار الكمي، ولم ينظروا إليها من منظور رأسي يأخذ بالحسبان العمق والوحدة التي تنتظم فيها هذه المباحث ضمن نسق أسلوبي يؤدي وظائف متشابهة يعرف بـ(التقابل) الذي يقصد به: وجود طرفين من الألفاظ، يحمل أحدهما خلاف المعنى الذي يحمله الآخر، نحو: الخير والشر، والنور والظلمة، والحب والكراهية، والكبير والصغير، وفوق وتحت، ويأخذ ويعطي، ويضحك ويبكي إلى غير ذلك.

وأطلق على هذه الظاهرة بالإنجليزية (Antonymy)[٢٣]. الذي لم يعدّ ظاهرة فنية بلاغية تستند إلى اقتران المتضادات، اقترانا جدليا، بل صار نسقا جماليا ينماز بالتناغم الإيقاعي لبنية الألفاظ معنى وأصواتا، لتؤلف تماثلات متشاكلة أو متضادة على وفق مقتضى الحال يناصر الحسن والمستحسنين لها

وهي أوقع في النفس وأدعى للقبول[٢٤].

ومن الممكن أن تكون رغبة فريق من البلاغيين في التفريع والتقسيم وإيجاد أنواع جديدة تضاف إلى مباحث البلاغة، هو الذي قادهم نحو هذه التقسيمات فأصبح التكافؤ والطباق والمقابلة مباحث يستقل بعضها عن بعض، ولا يوافق الباحث كثرة هذه التقسيمات ما لم تنتظم تحت أُطر نظرية موحدة؛ ذلك أن تفريقها لا يقدم شيئا ذا بال، بل يؤدي إلى التضارب في المصطلحات والإكثار من التقسيمات وتداخل أمثلتها وشواهدها إلى غضّ الطرف عن قيمها الدلالية والجمالية، وقد أرهق درس البلاغة بما لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، ولعل من المفيد لهذا الدرس أن يستعين بمصطلح (التقابل).

ويعمل على إعمامه على جميع طرائق التعبير التي تنتظم فيها المعاني على أي وجه من وجوهه[٢٥].

وهذا ما التفت إليه بعض البلاغيين منهم، حازم القرطاجني[٢٦] الذي أشار إلى أنّ حقيقة الطباق هي مقابلة الشيء بما هو على قدره، وقديما أبعد العلوي (ت٧٤٥هـ) مصطلح الطباق، وآثر استبداله بالمقابلة؛ ذاك أن الضدين[٢٧] يتقابلان كالسواد والبياض والحركة والسكون وغير ذلك من الأضداد، من دون حاجة إلى تسميته بالطباق أو المطابقة؛ لأنهما يشعران بالتماثل[٢٨]. وأكد السجلماسي الحاجة إلى الجمع بينهما فقال: «إن أنواع المقابلات تتشعب، وإن الناس إنما يفطنون إلى صورة من صورها هي مقابلة التضاد والتخالف، وقالوا ينبغي أن يفهم من اسم المطابقة في هذه الصناعة ما يفهم من اسم التقابل في صناعة المنطق، وينبغي أنْ يقسم جنس المطابقة في البلاغة بحسب انقسام التقابل...»[٢٩].

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي تجعل الباحث يميل إلى فكرة جمع هذه المباحث داخل الأسلوب التقابلي هو التشابه في أداء الوظيفة في الخطاب الأدبي؛ إذ ينبعث أثر التقابل في متلقي

النص بتحقيق بنية إيقاعية من نوع خاص، يطلق عليها الإيقاع التقابلي أو المعنوي[٣٠]، أو إيقاع التباين، وهو مختلف عن إيقاع التشابه القائم على التداعي اللفظي في السجع أو الاشتراك اللفظي أو الاتفاق الزمني من غير ارتباط المضمون[٣١]، فهو لا يتأتّى من ظاهر المفردة أو أصواتها المكونة لها، وإنما نحتاج فيه إلى الغور في أعماق الكلمة لبيان دقائقها ومعرفة المعنى الذي تحمله، وعندها «يقوم الإيقاع على فكرة التقابل بين الألفاظ والمعاني وتضاد الدوال في مدلولاتها»[٣٢].

فالأمر نابع - إذن - من حركة المعاني الكامنة في النفس والمتفاعلة مع الحركة التعبيرية، ليكسبها نموا حيويا يسري من نظام العلاقات اللغوية السياقية والعلاقات الدلالية الإيحائية[٣٣].

ولا يخفى ما لهذا النوع من الإيقاع من أثر في تأكيد المعنى وإيضاحه وجعله أكثر بروزا ورسوخا في ذهن المتلقي بفعل وقعه الجمالي والنفسي، فيتوقف حينئذ بإزاء المتقابلات ويحاول أن يرصد أبعادها ويكشف دلالاتها الصريحة والضمنية، وبهذا التأمل القرائي يتحوّل الدال السمعي إلى دال بصري[٣٤]، فضلا عما يحققه من تماسك في النص يطلق عليه اسم المصاحبة المعجمية أو التضام[٣٥].

المبحث الأول:
الإيقاع المعنوي في سورة الكوثر عن طريق التقابل بين كوثر المُعْطِي وكوثر المُعْطَى له:

ينبغي قبل الولوج في تباين التقابل بين كوثر المعطي وكوثر المعطى له، أن نوضح معنى الكوثر وما تحمله هذه الكلمة من دلالات عميقة وواسعة اتضحت من خلال المعنى اللغوي المعجمي، والمعنى الدلالي السياقي الذي يوجده الاستعمال اللغوي والمجال التداولي المقامي للكلمة، فالكوثر في اللغة: (أصل صحيح يدل خلاف القلة من ذلك الشيء الكثير، وقد كثر، ثم يزاد فيه للزيادة في

النعت، فيقال: الكوثر الرجل المعطاء، وهو فَوْعل من الكثرة: قال الكميت:

وأنت كثير يابن مروان طيب
وكان أبوك ابن العقائل كوثرا[٣٦][٣٧].

فالكوثر صفة للمبالغة، نحو قولهم: (رجل كوثر)، أي كثير العطاء والخير، ويكون ذاتا موصوفة بكثرة الخير، بحسب ما ورد في اللسان: (الكوثر: السيد الكثير الخير)، وعلى هذا تكون كلمة (الكوثر) صفة وموصوفاً، فهي تعني شيئين: الكثرة، وهي صفة، و(الخير) بوصفه شيئاً، فهي تعني الخير الكثير، وليس الكثير فقط؛ ولذلك يقال: (هو رجل كوثر) ونسكُتُ، ولا يقال: رجل كثير ونسكُتُ حتى يتمَّ ذلك بقوله: رجل كثير الخير أو كثير العطاء أو كثير المال إلى غير ذلك، وتقول: أقبل الكوثر، أي السيد الكثير الخير، ولا تقول: أقبل الكثير[٣٨].

وقد ذكر المفسرون قدامى ومحدثون معاني متعددة لمعنى (الكوثر)، ويبدو أن كثرة الدلالات نتج بفعل انفتاح النص واختلاف زاوية رصد المفسر للنص، فمنهم من اعتمد على المأثور من أحاديث نبوية شريفة، وشواهد تتعلق بأسباب النزول، ومنهم من نظر إلى سياق النص ليجيء بمعانٍ تتناسب دلالياً مع السياق اللغوي وعلاقاته المعقدة ونجد أن أغلبهم قد ذكر المعاني كلها؛ لأنهم وجدوها ملائمة ومؤدية للغرض.

وبهذا أصبحت كلمة (الكوثر) خصبة التأويل، فكل خير كثير يصدق عليها، ومن ذلك ما قيل: إنها تعني (نهر في الجنة)[٣٩]، معتمدين في ذلك على حديث للنبيﷺ اختلفوا في إيراد نصه، قال أنس: بينما رسول اللهﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاء ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أُنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ سورة الكوثر، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه عليه ربي خيراً كثيراً، وهو حوضي، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج القرن فيهم

فأقول: «يا ربّ إنهم من أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[٤٠].

وروي في صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، لا يظمأ من شرب منه أبداً[٤١].

وروي عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لما أُسري بي إلى السماء السابعة قال لي جبرائيل: تقدّم يا محمد أمامك -وأراني الكوثر- وقال: يا محمد هذا الكوثر دون النبين. فرأيتُ عليه قصوراً كثيرة من اللؤلؤ والياقوت والدر، وقال: يا محمد هذه مساكنك ومساكن وزيرك ووصيك علي بن أبي طالب وذريته الأبرار. قال: فضربت بيدي على بلاطه فشممته، فإذا هو مسك، وإذا أنا بالقصور لبنة ذهب ولبنة فضة[٤٢].

وعندما فسر ابن عباس (رض) الكوثر بإطلاق المعنى: بالخير الكثير، قال له سعيد بن جبير (رض): فإن أناساً يقولون: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير[٤٣].

وقيل: إن الكوثر هو(الحوض)[٤٤]، ويقال: إنه لمّا قال سعيد بن جبير (رض): الكوثر: الخير الكثير، قيل له: فقد قيل: إنه الحوض، فقال: الحوض من الخير الكثير[٤٥].

وقيل: إن الكوثر هو الإسلام[٤٦]، وقيل: إنه القرآن[٤٧]، وقيل: النبوة[٤٨].

وقيل: كثرة النسل من ولد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام[٤٩].

وقيل: كثرة الأصحاب والأتباع[٥٠]، وقيل: الشفاعة، وقد ورد هذا الرأي عن الإمام الصادق عليه السلام[٥١]، وقد نقل عنه أيضاً: أنه نور في قلبه دلَّ عليه وقطعه عما سواه[٥٢]، وقيل: التوحيد[٥٣]، وقيل: تسيير القرآن وتسهيل الشرايع[٥٤]، وقيل: الإيثار[٥٥].

وقيل: الذكر الجميل في الدنيا والآخرة[٥٦]، وقيل: علماء أمته[٥٧]، وقيل: الفضائل الكثيرة التي فيه[٥٨]، وقيل: رفعة الذكر[٥٩]، وقيل: العلم، وقيل: الخلق الحسن، وقيل: الكوثر هذه السورة[٦٠]،

وقيل: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: العظيم من الأمر[٦١]، وقيل: العلم والعمل وشرف الدارين[٦٢]، وقيل: المقام المحمود[٦٣]، وغيرها.

ويمكن القول: إنّ كلّ المعاني التي ذكرها المفسرون صحيحة، بل تستطيع كلمة (الكوثر) استيعاب معانٍ جديدة، ترتبط بقدرة المؤول وأدواته وثقافته وخبرته الجمالية وما يتناسب مع مقتضيات العصر؛ لأنّ القرآن الكريم نص إشاري قادر على تحقيق متطلبات كلّ عصر ويتفاعل مع الثقافات المتعددة والأغراض المختلفة[٦٤].

ونجد الإعجاز القرآني قد حدد ثلاث آيات على عدد المسليات، من إجلال محل رسول الله صلى الله عليه وآله، وإعلاء كعبه، وإعطاء أقصى ما يؤمله عند ربه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ومن الإيعاز على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية العاص، ولا يحيد عن التفويض إليه محيداً، فلا يذرهُ وائبا ووحيداً، ومن الغضب له بما فيه مسلاته من الكرب، ومن إلصاق عار بتر الكلب إشارة لقوله تعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)، والإشعار بأن كان عدو الله بوراً ولم يكن إلا هو صنبورا[٦٥].

ثم أنه تعالى لما شرفه في هذه السورة من هذه الوجوه العظيمة، قال بعد ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السورة التي كل واحد منها أعظم من تلك الدنيا بحذافيرها، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب، وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم، أما عبادة الرب فإما بالنفس، وهو قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وإما بالمال، وهو قوله تعالى: (وَانْحَر)[٦٦].

بعد أن بينا الهبات والفضائل الإلهية التي كرم الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بها، وبعد الذي بينته السورة الكريمة، فكان لابد للنبي صلى الله عليه وآله أن يشكر الله

تعالى على كل نعمة أنعمها عليه فجاء في السورة المباركة (فَصَلِ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)، أمر بالصلاة على العموم، والنحر نحر البدن والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأنه قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت والجهاد، عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة، فأمر أن يصلي وينحر، ففي الآية طعن على كفار مكة أي أنهم يصلون لغير الله مكاء وتصدية، وينحرون للأصنام ونحوه، فافعل أنت هذين لربك تكن على الصراط المستقيم وإن هذه الآية نزلت يوم الحديبية وقت صلح قريش قيل لمحمد صلى الله عليه وآله: صلِّ وانحر[٦٧].

وقيل (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر) أي: أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر يقصد (الكوثر) فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له كما قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لله رَبِّ الْعالَمينَ، لا شَريكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمين)[٦٨]، ويعني بذلك نحر البُدْن وغيرها، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه كما قال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[٦٩]، وانحر البُدْن التي هي من خيار أموال العرب وأيضاً ارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، وظاهر الآية له صلى الله عليه وآله بمطلق الصلاة ومطلق النحر وأن يجعلهما لله عز وجل له لا لغيره، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم التقييد له[٧٠].

وجاء في قوله: (فَصَلِ لِرَبِّكَ) أي: دُمْ على الصلاة خاصة لوجهه، لا ساهياً مرائياً، شكراً لنعمه، (وَانْحَرْ) البدن وأطعم منها مقابلة للدعَ والمنع، أو استقبل القبلة بنحرك في الصلاة. والأمر للوجوب أو ارفع يديك إلى نحرك في تكبيرها، فالأمر للندب كما هو الأقوى أو صلِّ صلاة العيد

وانحر أضحيتك، وفسرت الصلاة في السورة الكريمة بصلاة عيد الأضحى بقرينة (وانحر) فيكون الأمر بالصلاة على حالها ولا يحتاج إلى الأمر بالدوام فلا يكون الأمر للوجوب والنحر أي: قد فسر النحر بالتضحية. فلا يكون مختصاً بالبدن فيكون النحر شاملاً للذبح بعموم المجاز عندنا وبجمع الحقيقة والمجاز عند الشافعي[٧١].

ونذكر أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ والنحر: ارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، وظاهر الآية الأمر لهﷺ بمطلق الصلاة، ومطلق النحر، وأن يجعلها لله عز وجل لا لغيره، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم التقييد له[٧٢]. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فجاءت الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إعطاءه تعالى إياهﷺ ما ذكر من العطية التي لم يُعطِها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور به أيَّ استيجاب، أي: فدُمْ على الصلاة لربّك الذي أفاض عليك ما أفاض من الخير خالصاً لوجهه (عز وجل)، خلاف الساهين عنها المرائين فيها، أداءً لحق شكره تعالى الله على ذلك، فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر، ولذا قيل: (فَصَلِ)، دون: (فاشكر)، (وَانْحَرْ) البُدْن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدُعُّهم ويمنع عنهم الماعون[٧٣].

وإن هذه السورة مجسدة لعملية الشكر لله، وحينئذٍ فإن الصلاة هي المظهر الأشد بروزاً من غيره في التغيير عن الشكر لله تعالى... أما (النحر) فهو جزء من الصلاة ذاتها حيث تشير النصوص المفسرة إلى أنَّ المقصود هو رفع اليدين إلى الوجه عند استقبال الصلاة أو عند مطلق أفعالها المتصلة بالركوع والسجود[٧٤].

وإن هذه العطية فوق العطايا كلها؛ إذ أمرهﷺ تعالى بعبادة هي فوق العبادات كلها، وهي الصلاة وهي أفضل القربات إلى الله (عز وجل) وأعظم وسائل الزلفى إليه والولاء له...

واللام في (لربك) لام الاختصاص أي: صلّ صلاة لله وحده واجعلها خالصة له سبحانه لا يدخل فيها شيء من الغفلة أو الاستقبال لغير الله[٧٥]، والخطاب في هذه الآيات موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بسبيل البشرى والتطمين فقد أعطاه الله الكوثر. فعليه أن يصلي لربه ويقرب إليه القرابين شكراً ويتأكد أن عدوه ومبغضه هو الأبتر[٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فهاتان الآيتان تضمنتا نتيجة من مقدمتين صادقتين، وبيان ذلك أنّا نقول: إن عطية الكوثر تعدل جميع العطيات، وإنما قلنا ذلك لأن الشكر أعلى مقادير النعم، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وآله بأن يقابل هذه النعمة بجميع العبادات البدنية والمالية شكراً عليها، والصلاة جامعة لجميع العبادات فهي تعدل جميع العطيات.

ثم أمر صلى الله عليه وآله بجميع العبادات شكراً على عطية الكوثر فدل ذلك على أن عطية الكوثر من أهم العطيات التي وهبها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وأن هذه العطية هي مزية له صلى الله عليه وآله؛ لكونه أُعطي بها الفضل والفخر على جميع الأنبياء، حيث تسأل الأمم أنبياءهم في الشفاعة ليرووا من العطش الأكبر فيعتذرون عن ذلك فلا تجد جميع الأمم حينئذٍ من يشفع لها ولا يسقيها سوى محمد صلى الله عليه وآله وفي قوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) التفات من المتكلم إلى الغيبة، والأصل فصلِّ لنا ولكنه عدل عن ذلك في لفظ الرب حثّا على فعل المأمور به؛ لأنه من يربيك يستحق العبادة[٧٧].

فما دام الإعطاء غير محدود فيجب على المعطى له أن يكون شكره غير محدود أيضاً حيث قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فالصلاة هنا ليست الصلاة المفروضة، بل هي صلاة الشكر أو الجمع بينهما، ومثل ذلك صلاة النبي صلى الله عليه وآله عندما نزلت عليه آية تكريم شبيهة بسورة الكوثر، وهي قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾[٧٨]، فقام النبي صلى الله عليه وآله حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر

الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً؟.

(وذكرت الرواية نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام وفيها: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان عند عائشة ليلتها فقالت: يارسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبدا شكورا؟)[٧٩].

وأما النحر فهنا علاقته علاقة العبد بالمجتمع أي المقصود هنا بالنحر نحر الإبل، وذلك غاية الكرم عند العرب فقد أعطى الرسول صلى الله عليه وآله اهتماما كبيراً للمجتمع عن طريق النحر.

وقد اتضح مما تقدم أن البنية التقابلية في السورة الكريمة صيغت بطريقة إعجازية عبّرت بعمق عن عطاء الخالق غير المحدود، إذ جاء بصياغة معجمية تدل على الكثرة، فضلا عن الصياغة الصرفية التي دلّت على المبالغة، والكثرة أيضا، وقد قابل هذا العطاءَ الإلهي شكرٌ وحمدٌ ورضى من المخلوق، إذ حُدد بأداء الصلاة والنحر، مما يضمن للشاكر الاتصال بخالقه من خلال الصلاة، وبالمجتمع من خلال النحر، وبذلك يكون الاتصال متوافرا على جوانب مختلفة تحدد المعنى الحقيقي للشكر والحمد على نعم الخالق جلّ وعلا من قبل المخلوق.

المبحث الثاني:
الإيقاع المعنوي في سورة الكوثر عن طريق التقابل بين الأبتر وصاحب الكوثر

بعد أن اتضح مفهوم الكوثر لابد من توضيح معنى الأبتر لنبيّنَ طرفي التقابل، فالأَبْتَرُ معناه: الذي لا عقب له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر﴾، والبَتْرُ: قَطْعُ الذَّنَب ونحوه إذا استأصَلْتَه[٨٠].

وأيضاً يقال للرجل الذي لا عَقِبَ له: أبتر[٨١].

وقيل: الأَبْتَرُ الذي لا عَقِبَ له، وقيل: المنبتر الذي لا ولد له، وقيل: المُعْدِمُ، وقيل: الخاسر.

وكانت العرب تسمي من كانت له بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي

البنات: أبتر، وقد أطلقوا هذا اللفظ على الرسول الأكرم، فجاء الرد سريعا من قبل الباري (عز وجل) حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر﴾، أي: الذي أطلق عليك هذا الكلام وهو المبتور وليس أنت، فقد توهموا لجهلهم أنه إذا مات أولاد الرسول الكريم ينقطع ذكره. بل على عكس ما فكروا وخططوا فقد أبقى الله تعالى ذكر الرسول صلى الله عليه وآله على رؤوس الأشهاد وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد[٨٢].

وقد ورد عن شمر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبي صلى الله عليه وآله ولد وهو أبتر، فأنزل الله فيه[٨٣]: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. ونرى معنى الأبتر من منظور قرآني يختلف عن المفهوم الجاهلي حيث إنهم قالوا: إن محمداً صلى الله عليه وآله أصبح أبتراً بوفاة أولاده، فجاءت الآيات الكريمة رداً على ذلك، حيث أوضحت الآيات عكس ذلك أي أنه كلما ذكر اسم النبي صلى الله عليه وآله يذكر بكل خير[٨٤].

ونبيّن معنى الأبتر من مفهوم قرآني حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَر﴾، والكوثر كما أوضحنا سابقاً هو نهر في الجنة وهو حوضه صلى الله عليه وآله أو ذريته، رداً على من زعم أنه أبتر أي يعطيك نسلاً في غاية الكثرة لا ينقطع إلى يوم القيامة، والتعبير بالماضي لتحققهُ، وقد وقع كل ذلك كما أُخبر وكثرة نسله من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام حتى ملأت أقطار الأرض[٨٥].

والذي سماك الأبتر أي مبغضك وهو العاص بن وائل الذي أطلق عليك هذا اللفظ بموت ابنك إنما هو الأبتر المنقطع العقب والذكر، لا أنت؛ لبقاء عقبك وحسن ذكرك على مرّ الزمان وتفضيلك بالمقام المحمود في الآخرة[٨٦].

وعنى المشركون بكون الرسول صلى الله عليه وآله أبتر أي: ينقطع ذكره قبل بلوغ مقصوده، والله بين أن خصمه يكون كذلك. وبعد أن بُشر رسول الله صلى الله عليه وآله بأعظم بشارة، وطالبه بالشكر على ذلك، وكان

من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهوراً ذليلاً أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي: كائنا من كان هو الذي ينقطع ذكره من خير الدنيا والآخرة، وأما أنت يا رسول الرحمة فستبقى ذريتك، ويبقى حسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة[٨٧].

أما المشركون فلم يبغضوا رسول الله ﷺ لشخصه فقد كان الصادق الأمين، ولكنهم أبغضوه لما يحمله لهم من الرسالة والهدى، فآثروا أهوائهم، وتخبطوا في ضلالتهم حتى جذلهم الله وقطع أثرهم؛ فقد جرّهم الخذلان إلى غاية الخُسران، ولم يبق لهم إلاّ سوء الذكر لبغضهم، والنسيان التام لبقيتهم، بخلاف النبي ﷺ ومن اهتدى بهديه، فإن ذكرهم لا يزال رفيعاً، وأثرهم لا يزال باقياً في نفوس الصالحين، وأخيراً فقد بقي النبي ﷺ ودعوته على مر الأزمان[٨٨].

بينما انقطع نسل شانئيه وأصبحوا أحاديث وعِبر، وقطع الله ذكرهم إلاّ باللعنة والبراءة سواء أكان هذا الشانئ هو العاص بن وائل، أم أبو جهل، أو عقبة بن أبي معيط، أو غيرهم، وسواء أكانت مناسبة حديثهم عن الرسول ﷺ بموت ابنه القاسم في مكة المكرمة، أم إبراهيم ابنه في المدينة، فإن الأمر لا يختلف؛ إذ إن ذلك الخط الجاهلي قد انقطع وانبتر، وبقي خطُّ النبي ﷺ يضئ عبر العصور، ويحمل التقابل البشرى والتطمين للنبي ﷺ بالأسلوب القوي الذي جاء به. فالله قد أعطاه أعظم الخير وأكثره، باصطفائه للنبوة وعنايته به. ومن كان هذا أمره فكيف يكون أبتر؟. لأنَّ البتر - من رؤية عميقة - يتعلق بالذكر الحسن، وقد يكون من ضمنه الذرية، وقد لا يكون.

وبعد أن أوضحنا معنى أو معاني الأبتر من خلال ما تقدم نأتي إلى خلاصة ما جاء في هذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي: الذي تضاد طريقته طريقتك سيزول منه ما يفتخر به من المال والجاه والأحساب والأنساب، ويبقى لكَ ولتابعيك الذكر الجميل في الدنيا والآخرة والثواب

الجزيل في العقبى، بل يدوم لك النسب الصوري بسبب أولادك الشرفاء والنسب المعنوي بواسطة أتباعك العلماء[٨٩].

أما الشانئ فلم يبقَ له ذكر، ولا يوجد له شاكر ومادح، ولا رافع، وأما هوﷺ فقد ملأت ذريته من السيدة فاطمة عليها السلام الأرض، وهم الأشراف، مع مبالغة الملوك في قتلهم، وإخلاء الأرض من نسلهم، خوفاً من شرفهم العالي على شرفهم ورفعتهم بالتواضع الغالب لصلفهم[٩٠].

وبذلك تتضح اختلاف الرؤية الإلهية العميقة عن الرؤية البشرية بأن النسل هو الامتداد الطبيعي الأساس لتحقيق رغبة الخلود عند الإنسان، أو هو المفضل في الرؤية الجاهلية بالقياس إلى المآثر والأعمال الحميدة التي يخلفها الإنسان، بدليل أن القرآن الكريم جعل المنقطع الذكر، أو الأبتر هو الكافر الذي لا عقب لهُ (إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)؛ لأن العقب يكون غير مضمون أو يكون خيرا، ومصداقه هو العاص بن وائل، وعمر بن العاص، وأبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، أو كفرة قريش بشكل عام، وهؤلاء لم ينفعهم الولد في شيء؛ إذ انقطع ذكرهم عن الخير. في حين أن النبيﷺ الذي شُمتتْ به قريش إثر وفاة ولديه هو صاحب الكوثر بما تحمل هذه الكلمة من معانٍ قرآنية مطلقة تخالف ما تعارف عليه الجاهلون، فالعقب في هذه الرؤية قد يكون جزءاً من الكوثر إذا كان مؤمناً، أو لا يكون أصلا؛ لهذا لا يمكن الركون إلى تقدير معنى وحيد للكوثر وهو كثرة النسل. وأيضاً نوضح كيف أن الرؤية القرآنية قلبت المعاني الجاهلية لكلمة الأبتر وكيف أوضحت أن الأولاد لا يدفعون صفة البتر، فقد كان العاص بن وائل عنده ولد، وغيره من هؤلاء الذين نعتوا رسول اللهﷺ بهذا الوصف فهل نفعه أولاده؟ وأين نسله الآن؟ وهل بقي له ذكر سوى اللعنة إلى يوم يبعثون؟، بخلاف الرسولﷺ فقد نسبوا له لفظة الأبتر، وإنه ليس له من

يحمل اسمه ويُكمل مسيرته بعدهُ، فجاء الرد القرآني سريعاً على قول هؤلاء حيث أنزل الله تعالى سورة الكوثر. فالكوثر هنا على أكثر الروايات هو كل خيرٍ أعطاه الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله.

الخاتمة:

توصل البحث إلى جملة من النتائج لعل من أهمها:

١- إن كثرة الدلالات التي أوجدها عنوان السورة الكريمة (الكوثر) نتج بفعل انفتاح النص، واختلاف زاوية رصد المفسر، فمنهم من اعتمد على المأثور من أحاديث نبوية شريفة، وشواهد تتعلق بأسباب النزول ومنهم من نظر إلى السياق اللغوي وعلاقاته المعقدة.

٢- حقق الإيقاع المعنوي (التقابلي) بين المعطي والمعطى له بنية دلالية وجمالية عبرت عن عظمة المعطي وطاعة المعطى له، بتوظيف بديع للأدوات، فـ(إنّا) بما فيها من بعد تعظيم الخالق يقابله إخلاص وطاعة المعطى له، وهذا التكامل اللغوي وفرّته بنية جمالية مؤثرة في نفس المتلقي.

٣- إن تحديد (الصلاة والنحر) بالذات في السورة المباركة جاء بقصد دلالي يعبر عن كون هذا الفعل يحقق تواصلاً بين المخلوق والخالق، والمخلوق مع

المخلوق، فالصلاة هي علاقة العبد بربه أولا، والنحر هو علاقة العبد بأخيه ثانياً.

٤- إن التقابل بين صاحب الكوثر والأبتر قلبَ المعاني المتعارف عليها ضمن المحيط الجاهلي، فضلا عن إزاحة قناعات المتلقي بأن الذي لا ولد له لا ذكر له فهو أبتر، وأن الذي ينجب الأولاد هو صاحب الخير والذكر والبقاء، وجاء النص ليهدم هذا البنيان الجاهلي بجعل الرسول صلى الله عليه وآله هو صاحب الكوثر، وإن لم يكن له ولد، وإن شانئه مع الولد لكنه أبتر؛ لأن المبغض غير مؤمن برسالته فهو كافر منقطع عن الخير بإزاء الإنسان الكامل الذي لم ينقطع عنه الخير الكثير؛ ولهذا لم يُبترْ وإن مات ولده.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم

- أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (١٤٣٤هـ/٢٠٠٣م).

- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق: الدكتور السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

- الأصول من الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت٣٢٩٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، (١٣٩٤هـ/١٣٩٩م).

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧١٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، (٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ).

-إعجاز سورة الكوثر، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)،تحقيق: حامد الخفاف، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، ط ٢، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

- إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت٩٨٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

- الأمثال العربية القديمة- دراسة أسلوبية سردية حضارية، د. أماني سليمان داود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، (١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م).

- البصائر النصيرية، عمر السهلان (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: محمد عبده،

مطبعة الصاوي، القاهرة، (د.ت).

- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي وآخرون، دار الرشيد، بغداد، (١٩٨٢م).

- التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦هـ)، (د.ط)، (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م).

-تفسير التبيان، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، (د.ط)، (١٣٨٣هـ / ١٩٣٨م).

- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القريشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الخير، ط٢، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

- تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (ت٣٢٩هـ)، إشراف: لجنة التحقيق والتصحيح في مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت- لبنان، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

- حاشية الشهاب، الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

- حاشية القونوي، عصام الدين بن محمد الحنفي (ت١١٩٥هـ)، ضبطه وصححه: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور،

جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تصحيح أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

- زبدة التفاسير، فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني (ت٩٨٨هـ)، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط١، (١٤٢٣ هـ/٢٠٠٤م).

- سواطع الإلهام، أبو الفيض الفيضي الناكوري (ت١٠٠٤هـ)، تحقيق: د. سيد مرتضى آية الله زاده الشيرازي، إيران، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

- الصحاح، الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، (١٣٧٧ هـ/١٩٥٨م).

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، استانبول، (د.ط)، (١٤٠١هـ).

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت٧٤٥هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

- الفتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ)، مؤسسة الريان، بيروت- لبنان، ط ٣، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، رتبه وصححه: محمد بن سلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل

العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، (١٣٧١هـ/١٩٥٢م).

- كنز الدقائق وبحر العجائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي (من أعلام القرن الثاني عشر)، تحقيق: حسين دركَاهي، مطبعة نكَارش، إيران- قم، ط١، (١٣٨٧ش/١٦٣٠ق).

- لباب النقول في أسباب النزول، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي(ت٩١١هـ)، صححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ت).

- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي (ت٨٨٠هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

- لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري (ت٧١١ هـ)، صححه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار التراث العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط٣، (د.ت).

- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، قدم له: السيد محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشامي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ابن سيده (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: مراد كامل، (د.ط)، مصر، ط٢، (١٣٩٠ هـ/١٩٨٠م).

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر

الرازي (ت٦٠٤هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٣م.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠هـ)، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، (١٤٠٨ هـ /١٩٨٨م).

- المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ).

- مفاتيح الغيب، محمد بن فخر الدين بن ضياء الدين الرازي (ت٦٠٤ هـ)، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط٣، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

- مفتاح العلوم، أبو يعقوب بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦ هـ)، ضبطه وشرحه: الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد السجلماسي (ت٧٠٤ هـ)، تحقيق: د. علال الفازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط١، ١٩٨٠م.

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م.

- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر(ت٣٣٧هـ)، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(د.ت).

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين بن عمرو بن الحسين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق ودراسة: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

المراجع:

-الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي، ط ١، (١٤١٨ هـ/١٩٩٧م).

- الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).

- أسماء سور القرآن وفضلها، د. منيرة محمد ناصر الدوسري، دار الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة السعودية، ط ١، (١٤٢٦هـ).

-الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سوريا، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

- تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، السيد شرف الدين علي الحسيني الاسترآبادي النجفي، من أعلام القرن العاشر، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي(عج)، (إيران- قم)، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٣٦٦م).

- تفسير الأحلام، سيجموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٦٩م.

- تفسير البصائر، أبو محمد يعسوب الدين رستكار الجويباري، إيران- قم، (د.ط)، (١٤١٣ق/١٣٧١ش).

- التفسير البنائي، محمود البنائي، د.محمود البنائي، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، ط ١، (١٤٢٣ق/١٣٨١ش).

- التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، (د.ط)، (١٣٨١هـ/١٩٦٢م).

- تفسير الصافي، محمد بن المرتضى الملقب بالفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط ٢، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

-التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية،

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ط٣، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

- التقابل والتماثل في القرآن الكريم، د. فايز القرعان، جدرارا للكتاب العالمي، الأردن-عمان، ط١، (٢٠٠٦م).

- التقابل الجمالي في النص القرآني، د. حسين جمعة، منشورات دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا- دمشق، ط١، (٢٠٠٥م).

- التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ، دراسة أسلوبية، د. محمد عبد المطلب، (بحث) ضمن (فصول) (مجلة) النقد الأدبي، المجلد(٣)، العدد(٢)، يناير فبراير، مارس، ١٩٨٣م.

- التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٢م.

- على طريق التفسير البنائي، د. فاضل السامرائي، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: د. مالك المطلبي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.

- في ظلال القرآن، سيد قطب (ت ١٣٨٧هـ)، ط٥، (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

- المنجد في اللغة، لويس معلوف، انتشارات إسلام، إيران، ط١٣٨٣،٣٥.

- المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ردمك، ليبيا، ط٢، ٢٠٠٧م.

- من بلاغة أسلوب المقابلة في القرآن الكريم، د. فتحية محمود فرج العقدة، مطبعة الأمانة، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

- من هدي القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، دار القارئ للطباعة والنشر، ط٢، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، (١٤١٧ هـ/١٩٩٧م).

- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، المطبعة الإسلامية، طهران، إيران- قم، ط ١،(د.ت).

الرسائل الجامعية:

- أساليب البديع في نهج البلاغة، خالد كاظم حميدي الحميداوي، دكتوراه، كلية الآداب في جامعة الكوفة، ٢٠١١م.

- ظاهرة التقابل في اللغة العربية، عبد الكريم محمد حافظ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

البحوث:

-التأويل السيميائي للعنونة والإيقاع في سورة الكوثر، د. خالد كاظم حميدي الحميداوي، بحث مخطوط، نسخة المؤلف.

-في التوازن اللغوي، المعادل، الإيقاع المعنوي، د. مصطفى الجوزو، (بحث) منشور في (الفكر العربي المعاصر) (مجلة)، العدد(٦٨)، ١٩٨٩م.

الهوامش:

١- أسماء سور القران، منيرة محمد: ٦٠٩-٦١٠.

٢- روح المعاني، الآلوسي: ٤٧٨/١٠.

٣- التاويل السيميائي للعنونة والإيقاع في سورة الكوثر، د.خالد كاظم حميدي: ٥.

٤- روح المعاني، الآلوسي: ٤٨٢/١٥.

٥- في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٦٧/٣.

٦- الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: ٣٨٣/٢٠.

٧- أسباب النزول، النيسابوري: ٣٩٩.

٨- مفاتيح الغيب، الرازي: ١٣٣/٣٢.

٩- تفسير النسفي، النسفي: ٨٣٦/٢، لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ٢١٧.، تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٣٨٣/٥.

١٠- الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: ٣٨٣/٢٠.

١١- مجمع البيان، الطبرسي: ٤٥٨/١.

١٢- للباب، الدمشقي الحنبلي: ٥٢٦/٢٠.

١٣- زبدة التفاسير، الشريف الكاشاني: ٥٣٢/٧.

١٤- حاشية الشهاب، الشهاب الخفاجي: ٥٧٧/٩.

١٥- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: ١٦٦/٥.

١٦- الصحاح، الجوهري: ٦٥/٤، لسان العرب، ابن منظور: ١٣٥/٥.

١٧- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ١٣٠/٦.

١٨- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ابن سيده: ٢٦٣/٦.

١٩- التقابل والتماثل، فايز القرعان: ٩.

٢٠- نقد الشعر: ١٤٧.

٢١- م.ن: ١٤٧-١٤٨.

٢٢- كتاب الصناعتين: ٣٠٧، و ٣٣٧، نهاية الإيجاز: ٢٨٥-٢٨٦، مفتاح العلوم: ٤٢٣-٤٢٤.

٢٣- ظاهر التقابل في علم الدلالة، (بحث): ١٥.

٢٤- التقابل الجمالي في النص القرآني: ١٦١، من بلاغة أسلوب المقابلة في القرآن الكريم: ٢١-٢٢.

٢٥- التناسب البياني: ١٣٥، الأسس الجمالية في النقد العربي: ١٩٥.

٢٦- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٤٨.

٢٧- حاول فريق من البلاغيين أن يجدوا مسوغا مقبولا للفصل بين الطباق والمقابلة، فقالوا: إنّ الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها، ونجد في نص العلوي ردّا على هذا المسوغ. ظ: بديع القرآن: ٣١-٣٢، البرهان في علوم القرآن: ٤٥٨/٣.

٢٨- الطراز المتضمن لعلوم البلاغة: ٣٨٣.

٢٩- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: ٣٣٥.

٣٠- التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ (بحث): ٥٣، في التوازن اللغوي، المعادل، الإيقاع المعنوي، (بحث): ٢٩.

٣١- تفسير الأحلام: ٣٢٢، و ٥٢٠.

٣٢- الأمثال العربية القديمة، دراسة أسلوبية سردية حضارية: ٩٨.

٣٣- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: ١٤٣.

٣٤- علم اللغة العام: ٣٠.

٣٥- يقصد بالمصاحبة المعجمية أو التضام ورود كلمتين أو أكثر بالفعل أو القوة، نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك في سياق النص، أي مجيئها متصاحبة دائما مما يولد قوة ترابط إذا وجدا معا في جمل متجاورة ليؤدي علاقة أشد تماسكا في النص. ظ: لسانيات النص: ٢٥، إشكالات النص: ٣٦٦، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٠٧، المعنى وظلال المعنى: ١٢٢.

٣٦- لم أعثر عليه في ديوان الشاعر.

٣٧- مقاييس اللغة، ابن فارس: ١٦٠/٥ـ١٦١.

٣٨- لسان العرب، ابن منظور: ٢٢٤/٥ـ٢٢٥، على طريق التفسير البياني، د.فاضل السامرائي: ٨٣/١.

٣٩- تفسير القمي، علي بن ابراهيم

القمي: ٤٤٧/٢، التبيان، الطوسي: ٤١٨/١٠، إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: ٨٠١/٤.

٤٠- مجمع البيان، الطبرسي: ٤٥٩/١٠.

٤١- الكشاف، الزمخشري: ٨٠١/٤.

٤٢- تأويل الآيات الظاهرة، الاسترابادي النجفي: ٨٥٧/٢.

٤٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود: ٤٧٧/٦.

٤٤- إعراب القرآن، النحاس: ٢٨١/٥، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: ٥٤٨/٨.

٤٥- إعراب القرآن، النحاس: ٢٨١/٥.

٤٦- مفاتيح الغيب، الرازي: ١٢٦/٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤٨/١٠.

٤٧- مجمع البيان، الطبرسي: ٤٦٠/١٠، المحرر الوجيز، ابن عطية: ٢٢٩/٥.

٤٨- مجمع البيان، الطبرسي: ٤٦٠/١.

٤٩- مجمع البيان، الطبرسي، مفاتيح الغيب، الرازي: ١٢٤/٣٢.

٥٠- مجمع البيان، الطبرسي: ٤٦٠/١٠، الوجيز، العاملي: ٥٢٩/٥.

٥١- مفاتيح الغيب، الرازي: ١٢٧/٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤٨/١٠.

٥٢- المحرر الوجيز، ابن عطية: ٥٢٩/٥، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٥٢١/٨.

٥٣- م.ن.

٥٤- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤٨/١٠، البحر المحيط، ابو حيان الأندلسي: ٥٢١/٨.

٥٥- الجامع لأحكام القران، القرطبي: ١٤٨/١٠.

٥٦- مفاتيح الغيب، الرازي: ١٢٣/٣٢.

٥٧- م.ن.

٥٨- م.ن.

٥٩- م.ن.

٦٠- مفاتيح الغيب، الرازي: ١٢٧/٣٢.

٦١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤٨/١٠.

٦٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٦٦٦/٢.

٦٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: ٥٤٨/٨.

٦٤- التأويل السيميائي للعنونة

والإيقاع في سورة الكوثر، د.خالد كاظم حميدي: ٩.

٦٥- صنبور أي أبتر لا عقب له.ظ: إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: ٤٨ـ٥٥.

٦٦- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: ٤٨ـ٥٥.

٦٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: ٥٢٩/٥ـ٥٣٠.

٦٨- سورة الأنعام: ١٦٢.

٦٩- سورة الانعام: ١٢١.

٧٠- تفسير القران العظيم، ابن كثير: ٣٨٨/٧.

٧١- حاشية القونوي، محمد الحنفي: ٤٥٩/٢٠.

٧٢- فتح القدير، الشوكاني: ٦٧٠/٥.

٧٣- روح المعاني، الآلوسي: ٤٨/١٠.

٧٤- التفسير البنائي، محمود البستاني: ٤٣٥/٥.

٧٥- تفسير البصائر، الجويباري: ٥٩١/٥٩.

٧٦- التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: ١٦٧/١.

٧٧- إعراب القرآن الكريم، محيي الدين درويش: ٥٩٨/١٠ـ٥٩٩.

٧٨- سورة الفتح: ٢.

٧٩- صحيح البخاري، البخاري: ٤٤٤/٦.

٨٠- العين، الخليل: ١٣٠/٢.

٨١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٩٥/٣.

٨٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣٩٠/٧.

٨٣- أسباب النزول، السيوطي: ٢١٧.

٨٤- الدر المنثور، السيوطي: ٤٠١/٦ ـ٤٠٢.

٨٥- سواطع الإلهام، الفيض الناكوري: ٣٩٢/٦ـ٣٩٣.

٨٦- الوجيز في تفسير القرآن العزيز، العاملي: ٥٠٨/٣.

٨٧- تفسير المراغي، المراغي: ٢٥٢/٢٨.

٨٨- الكاشف، محمد جواد مغنية: ٦١٧/٧، الموسوعة القرآنية، جعفر شريف الدين: ٢٤١.

٨٩- جامع البيان، الطبري: ١٧٤/١٢ـ ١٧٥.

٩٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: ٥٤٩/٨ـ٥٥٠.

م.د. حميد يوسف إبراهيم
كلية العلوم الإسلاميّة / جامعة ذي قار

ملخص البحث

يمثل أئمة أهل البيت عليهم السلام امتداداً للقرآن الكريم، بل هم السلوك العملي للقرآن الكريم وأحد تجلياته وتجليات الحق تبارك وتعالى؛ ولذا تجد القرآن الكريم حاضراً في حياتهم عملاً وقولاً، سلوكاً وسكوتاً؛ ومن هنا جاء هذا البحث ليسلط الضوء على العلاقة بين القرآن الكريم والصحيفة السجادية المباركة، فكان بعنوان (مظاهر التلازم المعرفي بين القرآن الكريم والصحيفة السجادية)، وليتوزع على تمهيد عُني ببيان موجز عن الصحيفة السجادية، وثلاثة مباحث الأول منها بعنوان: (مظهر الاقتباس القرآني) يعرض فيه الآيات التي نقلت كما هي وانسبكت في النص السجادي حتى غدت جزءاً منه فكأنهما نص واحد لشدة الترابط بينهما، والثاني (مظهر التناص) فقد بين بعض المواضع التي شكلت امتداداً مضمونياً للنص القرآني، وفيها يتجلى التلازم المعرفي بين النصين، أما الثالث فعني بـ(مظهر التفسير)، وعرض فيه النصوص السجادية التي تضمنت تفسيراً لبعض ألفاظ القرآن الكريم.

ثم خاتمة فقائمة المصادر.

واتجه البحث إلى تقليل الجانب النظري، فقد اقتصر على شيء بسيط منه؛ ليكون التطبيق هو الطابع العام للبحث.

وفي الختام لا أستطيع إلا أن اعتذر من القرآن الكريم، ومن سيدي ومولاي الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، فما ذكر بقدر الباحث لا بقدرهما؛ فقدرهما لا توفيه هذه الوريقات. ومن الله التوفيق.

تمهيد

الصحيفة السجادية

وهي مجموعة من الأدعية المروية عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام (ت٩٥هـ)، وتُعَدُّ «من الآثار الدعائيّة المهمّة التي يعجز البيان عن إطرائها.

وتعتبر بحق موسوعة علمية ثمينة ليست على الصعيد الروحي الذي بلغت فيه القمة من حيث براعة التعبير والمضمون فحسب، وإنّما تطرقت لجوانب عدة - اجتماعية وسياسية واقتصادية - بفلسفة دعائية عظيمة تحتوي هذه الصحيفة على (٥٤) أربعة وخمسين دعاءً وتُسمّى: أخت القرآن، وزبور آل محمد صلى الله عليه وآله، وإنجيل أهل البيت»[١].

أكد العلماء والمحققون نسبتها إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام وتواتر روايتها عنه عليه السلام، قال السيد محمد باقر الداماد (ت١٠٤١هـ): إنّ «الصحيفة الكريمة السجادية المسماة إنجيل أهل البيت وزبور آل الرسول عليه السلام متواترة كما سائر الكتب في نسبتها إلى مصنّفيها»[٢].

وقال العلامة آقا بزرك الطهراني (ت١٣٨٩هـ): «وهي من المتواترات عند الأصحاب؛ لاختصاصها بالإجازة والرواية في كل طبقة وعصر»[٣]، وعدَّدَ من شروحها أربعةً وستين شرحاً، ومن حواشيها إحدى عشرة حاشية، وستاً من تراجمها.

وأشار الشيخ محمد جواد مغنية إلى أنّ: «كل ما في الصحيفة السجادية يدل بذاته على أنها لزين العباد والإمام السجاد عليه السلام لفظاً ومعنىً؛ لأنّ كلماتها تحمل أنفاسه الزكية وتعكس روحه الصافية الطاهرة النقية، ولو نسبت إلى سواه لكانت النسبة محل الكلام والاستفهام»[٤].

المبحث الأول

مظهر الاقتباس القرآني

الاقتباس هو «أن يضمن الكلام، نثراً كان أو نظماً، شيئاً من القرآن أو الحديث»[٥].

وشاعتْ هذه الظاهرة في الأدب بعد الإسلام، ومثلتْ فنّا بديعيا، فغدت من محسّنات الكلام[٦]، لكنها في كلام أهل البيت تأخذ منحى أبعد من ذلك، فهي تحكي ذلك التلازم المعرفي، والاتحاد المضموني بين كلامهم عليهم السلام وبين القرآن الكريم.

وتجد الإمام علي بن الحسين عليه السلام قد وظف القرآن الكريم في صحيفته المباركة بنسيج نصي اكتملت فيه عناصر الربط من الوحدة الموضوعية مروراً بالوحدات اللغوية وتوظيف عناصر الربط، ومنه ما في دعاء التحميد الذي بيَّن ما جعله الله للإنسان بقوله عليه السلام: «ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَيَاة أَجَلاً مَوْقُوتاً، وَنَصَبَ لَهُ أَمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّى إِلَيْه بِأَيَّام عُمُرِه، وَيَرْهَقُهُ بِأَعْوَامِ دَهْرِه، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَرِه، وَاسْتَوْعَبَ حِسَابَ عُمُرِه، قَبَضَهُ إِلَى مَا نَدَبَهُ إِلَيْه مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِه، أَوْ مَحْذُورِ عِقَابِه، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. عَدْلاً مِنْهُ، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَظَاهَرَتْ آلاَؤُهُ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾»[٧].

ففي هذا النص ﴿ليجزي...﴾ اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (سورة النجم، الآية ٣١)[٨]. وفي قوله ﴿ولا يسأل...﴾ اقتباس من قوله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية:٢٣).

ويشكل هذا النص في عمقه مضموناً قرآنياً ينسجم مع ما يفترضه المبحث الثاني، وفضلا عن ذلك فقد وظف الإمام السجاد عليه السلام الآيتين المباركتين، فجعلهما تعليلا لما قبلهما من الكلام باستعمال أداة

التعليل (اللام) مع الضمير المستتر في الأولى، واستعمال الضمير المستتر في الثانية، ولو دققنا النظر في سياق النص لوجدنا ذكر الآيتين ما هو إلا جواب لسؤال مقدر فيما قبل الآيتين، مفاده:(لماذا؟).

ومنه قوله عليه السلام: «وَيَبْلُو أَخْبَارَهُمْ، وَيَنْظُرُ كَيْفَ هُمْ فِي أَوْقَاتِ طَاعَتِه، وَمَنَازِلِ فُرُوضِه، وَمَوَاقِعِ أَحْكَامِه، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى»[٩].

فقد أورد جزء الآية الكريمة في سياق تعليلي لما بينه من حكمة الخلق والتشريع.

وفي موضع آخر وظف الإمام عليه السلام النص القرآني لبيان الزمن الذي يعرض له مضمون الدعاء في المقطع الدعائي بقوله عليه السلام: «وَالْحَمْدُ لله عَلَى مَا عَرَّفَنَا مِنْ نَفْسِه... حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِه ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِه سَبِيلَ الْمَبْعَثِ، وَيُشْرِفُ بِه مَنَازِلَنَا عِنْدَ مَوَاقِفِ الأَشْهَادِ، يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ. حَمْداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ. حَمْداً تَقَرُّ بِه عُيُونُنَا إِذَا بَرِقَتِ الأَبْصَارُ، وَتَبْيَضُّ بِه وُجُوهُنَا إِذَا اسْوَدَّتِ الأَبْشَارُ»[١٠].

تضمن هذا الجزء من الدعاء مجموعة من الآيات الكريمة[١١]، التي تبين حال الإنسان ومصيره.

ومنه ما في صلاته على الملائكة بقوله عليه السلام: «فَصَلِّ عَلَيْهِمْ يَومَ يَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ صَلَاةً تَزِيدُهُمْ كَرَامَةً عَلَى كَرَامَتِهِمْ وَطَهَارَةً عَلَى طَهَارَتِهِمْ»[١٢]. وهنا اقتباس لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾(سورة ق:٢١).

ومنه ما في دعاء صلاته عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله، بقوله عليه السلام: «وَهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُكَ، وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[١٣]»[١٤].

ومما وظف به عليه السلام النص القرآني الكريم بيان صفات بعض الخلق ومنهم الملائكة مع بيان بعض وظائفهم وقد جسد ذلك في وحدة نصية في قوله عليه السلام: «وَالْحَفَظَةِ

الْكِرَام الْكَاتِبِينَ، وَمَلَك الْمَوْت وَأَعْوَانه، وَمُنْكَر وَنَكِير، وَرُومَان فَتَّان الْقُبُور، وَالطَّائِفِينَ بِالْبَيْتِ الْمَعْمُور، وَمَالِك، وَالْخَزَنَة، وَرِضْوَان، وَسَدَنَة الْجِنَان. وَالَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار وَالزَّبَانِيَة الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ابْتَدَرُوهُ سِرَاعًا، وَلَمْ يُنْظِرُوهُ. وَمَنْ أَوْهَمْنَا ذِكْرَهُ، وَلَمْ نَعْلَمْ مَكَانَهُ مِنْك، وَبِأَيِّ أَمْرٍ وَكَّلْتَهُ. وَسُكَّان الْهَوَاء وَالْأَرْض وَالْمَاء وَمَنْ مِنْهُمْ عَلَى الْخَلْق فَصَلِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»[15].

تعددت في النص أعلاه النصوص القرآنية التي اقتبسها عليه السلام، فعبارة (الكرام الكاتبين) اقتباس لقوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(سورة الانفطار، الآية ١١). وعبارة (والذين لا يعصون...) اقتباس لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(سورة التحريم، من الآية٦). وعبارة (خذوه فغلوه...) اقتباس لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾(سورة الحاقة، ٣٠-٣١). وعبارة (يوم تأتي...) اقتباس لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (سورة ق، ٢١). واستدعاء هذه النصوص القرآنية هنا فضلا عن غيرها مما ورد من كلمات قرآنية يمثل صياغة تفسيرية لمفاهيم قرآنية عن بعض الملائكة وصفاتهم ووظائفهم في نسيج نصي متماسك، وفيه إلماح وتأسيس لمنهج تفسيري يمزج بين بيان الموضوع الواحد في نصوصه المتعددة في القرآن الكريم، فضلا عن كونه تفسيراً للقرآن بالقرآن.

ولم تقتصر اقتباسات الصحيفة السجادية المباركة من القرآن الكريم على هذه فحسب، فثمة مواضع أخرى[16].

أما ما أشار إليه صراحة بأنه قوله تبارك وتعالى فله مواضع أخرى[17].

ومما يلاحظ في هذه الاقتباسات أنها جاءت اقتباسات نصية، أي أن الآيات الكريمة وردت بنصوصها لفظا

وتركيبا. فتجد مقاطع من الدعاء هي آيات أو أجزاء من آيات نسجت وامتزجت فصارت هي وباقي أجزاء الدعاء نصا واحداً، لولا أنه قرآن كريم لما تميز عن باقي أجزاء نص الدعاء.

ويشير هذا التوظيف للنص القرآني في نص الدعاء إلى عمق الارتباط وشدته، وإلى مدى التلازم بين النصين، فكأن الأمر لا يقف على التلازم المعرفي وإنما هو تلازم نصي معرفي يحكي مواصلة نصية مضمونية بينهما.

المبحث الثاني
مظهر التناص

يعرف التناص بأنه «تضمين نص لنص آخر واستدعاؤه وفيه يتم تفاعل خلاق بين النص المستحضِر بكسر الضاد والنص المستحضَر بفتح الضاد»[١٨]؛ ولذا فإن «كل نص هو امتصاص وتحويلٌ لوفرةٍ من النصوص الأخرى. والنص حسب هذا المعيار النقدي استمرار وانقطاع في آنٍ معاً للنصوص الأخرى ضمن الأدبية الخاصة بنوع من الأداء اللغوي»[١٩]، فهو «تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[٢٠].

ويعد التناص معياراً أو مظهراً من مظاهر التلازم المعرفي بين النصوص ودليل من أدلة الإبداع، «فالنص الإبداعي الحقيقي هو الذي يتمثل في بنائه النصوص السابقة عليه»[٢١].

وإن قرب النص من النصوص السابقة له يكشف عن مدى التوافق المضموني والتلازم المعرفي بينهما. وإن بعده قد يعكس الانفصال والتنافر

بينهما مما يكشف عن القطيعة المعرفية بينه وبين ما قبله من نصوص.

وقد مثلت الصحيفة السجادية المباركة تناصا لفظيا ومضمونيا مع القرآن الكريم، فهي في مرتبة من المراتب تعد تجلياً من تجليات كلام الخالق في كلام أوليائه، مما يشكل مظهراً من مظاهر التلازم المعرفي بينهما، ولا يكاد يخلو مقطع من الصحيفة السجادية المباركة من تعالق نصي واشتراك مضموني أو لفظي مع القرآن الكريم، ومن ذلك قوله عليه السلام: «الْحَمْدُ لله الأَوَّل بلَا أَوَّل كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخر بلَا آخر يَكُونُ بَعْدَهُ الَّذي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَته أَبْصَارُ النَّاظرينَ، وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْته أَوْهَامُ الْوَاصفينَ»[٢٢]، وقوله عليه السلام: «وَأَنْتَ اللهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، الأَوَّلُ قَبْلَ كُلّ أَحَد، وَالآخرُ بَعْدَ كُلّ عَدَد»[٢٣].

استحضر هذا المقطع مجموعة من الآيات القرآنية الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الحديد، الآية٣).

وقوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام، الآية١٠٣).

ومثل ذلك أحد الأبعاد المعرفية للقرآن الكريم وهو البعد العقدي الذي أولاه النص القرآني اهتماما بالغا، وذلك ببيان الصفات الثبوتية والسلبية لله تبارك وتعالى، وكان التوحيد وبيان الصفات الإلهية من أوائل ما نزل من القرآن الكريم؛ ولذا تجد الإمام علي بن الحسين عليه السلام قد حاكى النص القرآني حتى في ذلك، فقد بدأت الصحيفة المباركة بدعاء التحميد لله الذي استعرض الصفات الإلهية وبينها، مثلما بدأ القرآن الكريم بسورة الحمد، وركز على التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى في أوائل نزوله وفي ثنايا نصوصه.

ومنها قوله عليه السلام: «وَالْحَمْدُ لله الَّذي اخْتَارَ لَنَا مَحَاسنَ الْخَلْق، وَأَجْرَى عَلَيْنَا طَيّبَاتِ الرّزْق»[٢٤]، فقد تعالق هذا المقطع مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين، الآية٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية ٣٢).

ومنها قوله: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِقُوَّتِهِ وَمَيَّزَ بَيْنَهُمَا بِقُدْرَتِهِ وَجَعَلَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدّاً مَحْدُوداً، وَأَمَداً مَمْدُوداً يُولِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ، وَيُولِجُ صَاحِبَهُ فِيهِ بِتَقْدِيرٍ مِنْهُ لِلْعِبَادِ فِيمَا يَغْذُوهُمْ بِهِ»[٢٥]، فقد تناصَّ مع قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (سورة الحج ٦١) فضلاً عن آيات أخرى[٢٦].

ولا يكاد يخلو دعاء من أدعية الصحيفة السجادية المباركة[٢٧] من هذا المظهر من مظاهر التلازم المعرفي.

وإن هذه النصوص وغيرها من الصحيفة السجادية تكشف عن مدى تأثير القرآن الكريم عليها وفيها، حتى غدت كأنها صورة لفظية أخرى لكثير من مفاهيمه وأحكامه واشتراطاته وأهدافه.

وتجدر الإشارة إلى أن التناص قد يأخذ على عاتقه إزاحة النص السابق ليكون النص اللاحق محله فهو «يسعى إلى الحلول محل هذه النصوص أو إزاحتها من مكانها وذلك مقابل ما يقع في ظل النصوص الأخرى»[٢٨]. وهذا في الأعمال الأدبية.

أما في الصحيفة السجادية فإنَّ الأمر مختلف تماما؛ إذ ليس من غايتها أن تزيح النص لتحل محله، وإنما من غاياتها أن تكون ترجمانا وإيضاحا وبيانا للنص القرآني، فالصحيفة السجادية لا تتنافس مع القرآن الكريم على أحقية في الإبداع أو مزية في السبك، وإنما غايتها أن تكون تجليا من تجليات القرآن الكريم وتطبيقا من تطبيقاته.

المبحث الثالث

مظهر التفسير

يعد كلام النبي صلى الله عليه وآله من المصادر التي يعود إليها المفسر في بحثه عن المعاني القرآنية، وكلامهم عليهم السلام حجة في ذلك أيضا، ولأن أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن الكريم وهم الثقل الثاني؛ وفقاً لقوله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين، ألا إن أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٢٩].

فكلامهم عليهم السلام امتداد القرآن الكريم ويساعد على فهمه وبيانه للناس، سواء أكان في مقام بيانهم عليهم السلام معنى آية أم كان جواباً لسؤال يوجه إليهم عليهم السلام، أم غير ذلك من كلامهم المبارك في الخطب والأدعية ونحو ذلك. فكلامهم وفعلهم وتقريرهم حجة عند المفسرين والفقهاء والعلماء من أتباعهم عليهم السلام.

وقد مثلت الصحيفة السجادية واحداً من مصادر الأدعية الصحيحة السند المتواترة عن الإمام زين العابدين عليه السلام[٣٠].

وقد وصفت الصحيفة السجادية القرآن الكريم بمجموعة من الأوصاف، بعضها بألفاظ قرآنية وبعضها مستوحاة من المضامين القرآنية، ومنها قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُوراً، وَجَعَلْتَهُ مُهَيْمِناً عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ. وَفُرْقَاناً فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلَالِكَ وَحَرَامِكَ، وَقُرْآناً أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ وَكِتَاباً فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلاً، وَوَحْياً أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلاً. وَجَعَلْتَهُ نُوراً نَهْتَدِي مِنْ ظُلَمِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشِفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصْدِيقِ إِلَى اسْتِمَاعِهِ، وَمِيزَاناً قِسْطٍ لَا يَحِيفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ، وَنُورَ هُدًى لَا يَطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بُرْهَانُهُ، وَعَلَمَ نَجَاةٍ لَا يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَّتِهِ»[٣١].

فبعض عبارات هذا الدعاء تعد تفسيراً لبعض الآيات الكريمة، فقد فسرت كلمة (الفرقان) التي وردت اسما أو وصفاً للقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، الآية:١)[٣٢]. وكذلك تضمنت بيانا لوصفه بالنور فضلا عن الأوصاف الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الدعاء (دعاؤه عند ختم القرآن) إنما هو بمثابة منهج للتعامل مع القرآن، إذ يوجد فيه بيان وظائف القرآن وغايته وتكليف الناس تجاهه.

ومن دعائه عليه السلام ما عرف به من الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ومنهم جبريل وميكائيل، فقد عرف بهم بذكر صفاتهم ووظائفهم وهو ما يشكل تصوراً لبيان شأنهم والكشف عن مدلولات ذكرهما في القرآن الكريم.، فقال عليه السلام: «وَمِيكَائِيلُ ذُو الْجَاهِ عِنْدَكَ، وَالْمَكَانِ الرَّفِيعِ مِنْ طَاعَتِكَ. وَجِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَى وَحْيِكَ، الْمُطَاعُ فِي أَهْلِ سَمَاوَاتِكَ، الْمَكِينُ لَدَيْكَ، الْمُقَرَّبُ عِنْدَكَ»[٣٣].

فهذا الكلام يعد مكملاً ومفسراً لما ذكره القرآن الكريم عن هذين الملكين عليهما السلام.

أما قوله عليه السلام: «فَخَلَقَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ حَرَكَاتِ التَّعَبِ وَنَهَضَاتِ النَّصَبِ، وَجَعَلَهُ لِبَاساً لِيَلْبَسُوا مِنْ رَاحَتِهِ وَمَنَامِهِ، فَيَكُونَ ذَلِكَ لَهُمْ جَمَاماً وَقُوَّةً، وَلِيَنَالُوا بِهِ لَذَّةً وَشَهْوَةً وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِراً لِيَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَلِيَتَسَبَّبُوا إِلَى رِزْقِهِ، وَيَسْرَحُوا فِي أَرْضِهِ، طَلَباً لِمَا فِيهِ نَيْلُ الْعَاجِلِ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَدَرَكُ الْآجِلِ فِي أُخْرَاهُمْ بِكُلِ ذَلِكَ يُصْلِحُ شَأْنَهُمْ، وَيَبْلُو أَخْبَارَهُمْ، وَيَنْظُرُ كَيْفَ هُمْ فِي أَوْقَاتِ طَاعَتِهِ، وَمَنَازِلِ فُرُوضِهِ، وَمَوَاقِعِ أَحْكَامِهِ»[٣٤]. فيمثل تفسيراً لوصف القرآن الكريم أو إخباره عن الليل بأنه سكن ولباس، وعن النهار بأنه نشور ومعاش، في مثل قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(سورة الأنعام٩٦)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان٤٧)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (سورة النبأ، ١٠-١١).

الخاتمة

وبعد هذه السياحة الدعائية مع الصحيفة السجادية توصل البحث إلى ما يأتي:

* مثل النص السجادي ذوابانا وانصهارا في النص القرآني وهو ما يحكي عن التلازم المعرفي فضلا عن اللفظي.

* تجلى التلازم المعرفي بين القرآن الكريم والصحيفة السجادية في ثلاثة مظاهر، فالاقتباس القرآني وإيراد النصوص القرآنية في نسيج نصي واحد قد لا يتمكن بعضهم من تمييز النص القرآني عن النص السجادي. ليتواصل التلازم المعرفي إلى استحضار المضمون القرآني في ثنايا النص السجادي، ويتجلى المظهر الثالث في كون النص السجادي قد تضمنت إشارات تفسيرية للنص القرآني، وهو ما يدعو للبحث في نصوص الأدعية لتكون منبعا تفسيريا ثرًا يمكن الإفادة منه في بيان المضمون القرآني.

* إن بعض الآيات أوردها في سياق بيان أمر للمتلقي لنص الدعاء، لكن بعضها الآخر أورده في أسلوب حجاجي يبين فيه الوعد الإلهي.

* تلازمت الصحيفة السجادية مع القرآن الكريم في ما بدء به كل منهما؛ فالقرآن بدأ بالحمد وبسورة الحمد، والصحيفة تبدأ بالحمد وبدعاء التحميد. وتضمن التوحيد وتنظيم العلاقة مع الله تبارك وتعالى، وكانت الصحيفة السجادية كذلك.

* إن كثيرا من نصوص الصحيفة السجادية تمثل تفسيرا أو تاويلا قرآنيا، فعبرت بذلك عن التلازم المعرفي والاتحاد المضموني مع القرآن الكريم؛ ولذا يمكن الإفادة من نصوص الأدعية في تفسير القرآن الكريم والعمل به.

المصادر

* القرآن الكريم.

١. إشكاليات القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط٧، ٢٠٠٥.

٢. الأمالي: الشيخ الطوسي، انتشارات دار الثقافة، قم، ١٤١٤هـ

٣. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص): د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥.

٥. التعريفات: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣ م.

٦. الذريعة الى تصانيف الشيعة: العلامة آقا بزرك الطهراني (ت١٣٨٩هـ)، ط٣، دار الأضواء، بيروت ١٤٠٣ هـ.

٧. رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين: العلامة الأريب والفاضل الأديب السيد علي خان الحسيني المدني الشيرازي (ت١١٢٠هـ) تحقيق: السيد محسن الحسيني الأميني، ط٤، مؤسسة النشر الإسلامي، طهران، ١٤٢٥هـ.

٨. شرح الصحيفة الكاملة السجادية: المحدث الفقيه الأمير السيد محمد باقر المشتهر بالداماد (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، باهتمام السيد محمود المير داماد، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠٦هـ.

٩. الصحيفة السجادية (أدب الدعاء): د. حسين علي محفوظ، مجلة البلاغ، الجمعية الإسلامية للخدمات الثقافية، عدد: ٦ السنة الأولى، كانون الأول، ١٩٦٦.

١٠. الصحيفة السجادية الكاملة، مع الدليل الموضوعي والمعجم اللغوي والفهارس، تحقيق وتنسيق: علي أنصاريان، ط١، سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١١. فتح الأبواب: السيد ابن طاووس (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: حامد الخفاف، ط١، مؤسسة آل البيت، دار الإحياء

للتراث، بيروت، ١٩٨٩م.

١٢. في ظلال الصحيفة السجادية: الشيخ محمد جواد مغنية، تحقيق: سامي الغريري، ط١، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، إيران، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٣. فيض الدلالة وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر: فريال جبوري غزول.

١٤. مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

١٥. نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الفكري: د. حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

الهوامش

١- فتح الأبواب: ٧٦.

٢- شرح الصحيفة الكاملة السجادية: ٤٥.

٣- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٥ / ١٨.

٤- في ظلال الصحيفة السجادية: ٣٨- ٣٩.

٥- التعريفات: ٢٦، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٢٩/١.

٦- وضع العلماء والباحثون هذا الحقل النظري في الفنون البديعية من علوم البلاغة، ينظر: مختصر المعاني، للتفتازاني: ٣٠٧.

٧- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠

٨- ينظر: رياض السالكين: ٢٩٨/١.

٩- الصحيفة السجادية الكاملة: ٤٠.

١٠- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢

١١- ينظر: الآيات: ٢٥ من سورة آل عمران، و٥١ من سورة إبراهيم، و١٧ من سورة غافر، و٢٢من سورة الجاثية، و٤١ من سورة الدخان، و١٩-٢٠ من سورة المطففين.

١٢- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٩.

١٣- ينظر: الآيتين، ٣٣ من سورة التوبة و٩ من سورة الصف.

١٤- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٦

١٥- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٩

١٦- ينظر الصحيفة السجادية الكاملة: ٣٢، و٩٠، و١٢٠، و١٢٤، و ١٣٢، و١٤٠، و١٦٥، و١٦٦، و٢٢٧.

١٧- ينظر الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠، و١٠٧، و١٧٢-١٧٣.

١٨- فيض الدلالة وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر، فريال جبوري غزول: ٧٥

١٩- تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح: ١٢١.

٢٠- إشكاليات القراءة واليات التأويل، نصر حامد أبو زيد:٢٥٧.

٢١- الصحيفة السجادية الكاملة: ١٩.

٢٢- الصحيفة السجادية الكاملة: ١٨٦.

٢٣- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١.

٢٤- الصحيفة السجادية الكاملة: ٣٩.

٢٥- ينظر: سورة لقمان الآية ٢٩، وسورة فاطر الآية ١٣، وسورة الحديد الآية ٦.

٢٦- الصحيفة السجادية الكاملة: ٤٧، و٤٩، و٥٧، و٦١، نحوها.

٢٧- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الفكري:١٩٦-١٩٧.

٢٨- الأمالي، الشيخ الطوسي: ٢٩٠/١.

٢٩- ينظر: الذريعة الى تصانيف الشيعة: ١٥ / ١٨، والصحيفة السجادية: (حسين علي محفوظ): ٦٨.

٣٠- الصحيفة السجادية الكاملة: ١٥٧.

٣١- وينظر: سورة آل عمران الآية:٤.

٣٢- الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٧.

٣٣- الصحيفة السجادية الكاملة: ٣٩.

٥
الإمام علي
بن أبي طالب عليه السلام
مفسراً للقرآن
دكتور أحمد راسم النفيس / مصر

رجال الله

روى الشريف الرضي في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال عند تلاوته: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ النور آية ٣٧:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاَءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ للهِ - عَزَّتْ آلاَؤُهُ - فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ، مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ فَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ، عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلاَلِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلاَمَ هُدىً، وَمَصَابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ

بهمُ الْمَلائكَةُ، وَتنزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكينَةُ، وَفُتحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّماء، وَأُعدَّتْ لَهُمْ مَقَاعدُ الْكرَامَات، في مَقْعَد اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فيه، فَرَضيَ سَعْيَهُمْ وَحَمدَ مَقَامَهُمْ يَتَنَسَّمُونَ بدُعَائه رَوْحَ التَّجَاوُز، رَهَائنُ فَاقَة إلَى فَضْله، وَأَسَارَى ذلَّة لعَظَمَته، جَرَحَ طُولُ الأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاء عُيُونَهُمْ. لكُل بَاب رَغْبَة إلَى الله سُبحانَهُ منْهُمْ يَدٌ قَارعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لاَ تَضيقُ لَدَيْه الْمَنَادحُ، وَلاَ يَخيبُ عَلَيْه الرَّاغبُونَ. فَحَاسبْ نَفْسَكَ لنَفْسكَ، فَإنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُس لَهَا حَسيبٌ غَيْرُكَ[1].

إنها الآية السابعةُ والثلاثون من سورة النور، ولكي تتحقق الفائدة نورد الآية وما سبقها من الآيات وما جاء بعدها، قال تعالى:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في تفسير هذه الآية: النور هو القرآن والنور اسم من أسماء الله تعالى والنور النورية والنور ضوء القمر والنور ضوء المؤمن وهو الموالاة التي يلبس لها نورا يوم القيامة والنور في مواضع من التوراة والإنجيل والقرآن حجة الله على عباده وهو المعصوم فقال تعالى: ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف)، فالنور في هذا الموضع هو القرآن ومثله في

سورة التغابن: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾، يعني سبحانه القرآن وجميع الأوصياء المعصومين من حملة كتاب الله تعالى وخزانه وتراجمته الذين نعتهم الله في كتابه فقال: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾، فهم المنعوتون الذين أنار الله بهم البلاد وهدى بهم العباد قال تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة.....﴾ فالمشكاة رسول الله صلى الله عليه وآله والمصباح الوصي والأوصياء عليهم السلام والزجاجة فاطمة والشجرة المباركة رسول الله صلى الله عليه وآله والكوكب الدري القائم المنتظر عليه السلام الذي يملأ الأرض عدلا. معجم أحاديث المهدي.

كما روى القمي في تفسيره: عن صالح بن سهل الهمداني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قول الله: (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة)، المشكاة فاطمة عليها السلام (فيها مصباح المصباح) الحسن والحسين (في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري) كأن فاطمة عليها السلام كوكب دري بين نساء أهل الأرض (يوقد من شجرة مباركة) يوقد من إبراهيم عليه السلام (لا شرقية ولا غربية) يعني لا يهودية ولا نصرانية (يكاد زيتها يضيء) يكاد العلم يتفجر منها (ولو لم تمسسه نار نور على نور) إمام منها بعد إمام (يهدي الله لنوره من يشاء) يهدي الله للأئمة من يشاء أن يدخله في نور ولايتهم مخلصا (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم).

وروى أيضا: عن منخل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ قال: هي بيوت الأنبياء، وبيت علي عليه السلام منها.

التفسيرات التي نقلناها عن أمير المؤمنين وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد الدور المركزي لأهل البيت في هداية الأمة وهي تفسير بالخاص،

وإذا كانت البيوت المقصودة في الآية هي بيوت الأنبياء، فالرجال هنا هم آل الأنبياء وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إنه التفسير بالخاص الذي لا يناقض العام. والمعنى أن مركزية النور لا تناقض انتشاره ولمعانه نحو الأقرب ثم الأقرب وصولا إلى كل بقعة يمتد وينتشر إليها هذا الفيض الإلهي الرباني.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا[3] مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ[4] مِنَ الْكَدَرِ[5].

وبقدر ما ينهل المؤمن من هذا النور الرباني ومن نبع الهداية الإلهي يصبح هذا النور مكونا من مكوناته ويصبح الصفاء الإلهي صفة من صفاته.

فالنور الإلهي والهداية الربانية لعباده المؤمنين المخلصين هو جزء ومكون رئيس من مكونات النفحة الربانية ورديفا للروح الإلهية المودعة في قلب الإنسان والتي تتصارع مع النفث الشيطاني، فأيهما غلبَ ساقَ الإنسانَ في ناحيته واتجاهه إما نحو الله أو نحو الهاوية.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[6].

ولا شك أن الله تبارك وتعالى لم يأمر ملائكته المقربين بالسجود لبشر دخل في حزب الشيطان بل لبشر كان ما زال يومها يحتفظ بفطرته الصافية النقية فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا شك أن المؤمنين الأخيار ما زالوا يحملون في نفوسهم هذه الروح النقية الطاهرة التي تمكنهم من الصمود في مواجهة الهجمات الشيطانية العارمة، فَيَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ[7]. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[8].

أما إذا كسب الشيطان معركته ونجح في جر الإنسان إلى حزبه ومعسكره، فستكون أولى ثمار انتصاره هو تبدل الخلقة الإنسانية وخروجها عن مسار الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وانزواء هذه الروح الطاهرة وتحول الإنسان إلى مسخ يعفّ اللسان عن وصفه. ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبهم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾[9].

والشاهد أن النور الربانَي يمتزج بالروح الإلهية المودعة داخل قلب الإنسان ويرفعه إلى أعلى درجات الكمال حسب درجة الإيمان والإخلاص وعلى قدر أهل العزم تؤتى العزائم.

نعود لموضوعنا (رجال الله) وهم تلك الصفوة الطاهرة المقربة التي تدور في فلك النور الإلهي الصافي محمد وآل محمد، وهم الذين تسلحوا بذلك السلاح الرباني وهو الذكر في مواجهة عدوهم وعدو الإنسانية وعدو الرسل والأنبياء إبليس اللعين.

إنهم يمثلون النموذج المستهدف من وراء بعث الأنبياء للناس ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[10]. الذكر الذي جعله الله جلاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ[11]، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ.

إن من أوليات أي معركة أن يسعى العدو لحرمانك من معرفة حقيقة الخطر الذي يتهدّدك، فلا تسمع ولا ترى ما يخططه لك، والأسوأ أن يحرض رجالك على التمرد عليك وعصيان أوامرك، أما الأكثر سوءاً فهو فقدان مركز القيادة قدرته على السيطرة والتحكم في المقاتلين. ويوم يحدث هذا فماذا بقي لك؟ .

فمركز القيادة هو القلب، وأجهزة المخابرات هي السمع والبصر، ومن ثم فالذكر هو سلاحك الرئيس في مواجهة الشيطان، فتسمع وترى بقلبك الواعي ما يدور من حولك وما يدبر لك، فتصبح قادرا على اتخاذ القرار الصائب الذي تنفذه بقية الحواس فتتحرك أدوات الحركة والتنفيذ حركة فاعلة واعية مدركة

قادرة في الاتجاه الصحيح؛ لتبعدك عن مواضع الخطر وعن فخاخ الشيطان المنصوبة في كل مكان من حولك.

إنها مقدمة لازمة لبيان ما يصنعه الذكر في نفوس الذاكرين وعقولهم، وكيف أن الذكر يمنحهم حزمة من القابليات الذهنية والروحية يفتقدها الغافلون عن ذكر الله.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١٢].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١٣].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١٤].

معنى الذِكر

يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن: الذكر: هيئة للنفس تمكن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذكر ذكران ذكر بالقلب وذكر باللسان وهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ.

وكل قول يقال له ذكر، فمن الذكر باللسان قوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾[١٥]، وقوله: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾[١٦]، وقوله: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾[١٧]، وقوله: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾[١٨]، أي: القرآن، وقوله: تعالى: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾[١٩]، وقوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾[٢٠]، أي: شرف لك ولقومك، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾[٢١]، أي: الكتب المتقدمة.

وقوله: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا *

رسولا﴾[٢٢]، ومن الذكر عن النسيان قوله: ﴿فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾[٢٣]، ومن الذكر بالقلب واللسان معا قوله تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾[٢٤]، وقوله: ﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم﴾[٢٥]، وقوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾[٢٦]، أي: من بعد الكتاب المتقدم.

وقوله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾[٢٧]، أي: لم يكن شيئا موجودا بذاته، وإن كان موجودا في علم الله تعالى. وقوله: ﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل﴾[٢٨]، أي: أولا يذكر الجاحد للبعث أول خلقه، فيستدل بذلك على إعادته، وكذلك قوله تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾[٢٩]، وقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾[٣٠]، وقوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾[٣١]، أي: ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد له، وذلك حثّ على الإكثار من ذكره.

والذكرى: كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر، قال تعالى: ﴿رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾[٣٢]، ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٣٣]، في آي كثيرة. والتذكرة: ما يتذكر به الشيء، وهو أعم من الدلالة والأمارة، قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾[٣٤]، ﴿كلا إنها تذكرة﴾[٣٥]، أي: القرآن.

فالذكر كما يقول الراغب الأصفهاني: هيئة للنفس تمكن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ إحراز للمعرفة، والذكر هو حضورها عند احتياجها، وتارة يقال لحضور الشيء في القلب أو بالقول ولذلك قيل الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان. أي أن الحفظ هو إحراز المعرفة والذكر استحضارها والمعرفة هي معرفة الله تبارك وتعالى والوعي بأوامره ونواهيه وما يسخطه وما يرضيه، وهي حالة مؤسسة على العلم والعقل، ومن ثم فهي أشمل وأعم مما يسمى بحلقات الذكر أو مجالس الدعاء.

والذكر علم فاعل ونشط يبدأ من العقل ويمتد ليشمل القلب ويقود جوارح الإنسان ويشحذ إرادته في مسيره نحو الله. الذكر معرفة إحاطة وهو أرقى أنواع المعرفة التي تبدأ من الأرض وترتفع إلى السماء ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣٦]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[٣٧].

ولأن الذكر هو عكس الغفلة، وهو معرفة راسخة في القلب تقترن بالعمل وهو الإيمان الصحيح عكس ما يفعل المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا تتطابق أفعالهم مع أقوالهم؛ لأن إيمانهم يسكن على أطراف ألسنتهم ولم يستقر يوما ما داخل قلوبهم، بل إن قلوبهم تنكر ما تنطق به ألسنتهم (فَمِنَ الأَيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي القُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ القُلُوبِ وَالصُّدورِ)[٣٨].

قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ﴾[٣٩].

آليات المعرفة:

يجيب أمير المؤمنين على هذا السؤال بأنهم: عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ. إنها - إذن- معرفة عقلية متجددة ومتواصلة وليست معرفة تجريبية كما أنها ليست مستلهمة من عالم المثالية والخيال.

والذكر -أيضا- (معرفة) تتكفل العناية والإرشاد الإلهي بتحديد مناهجها، وليست دراسة حرة يختارها الإنسان حسب رغباته وسلم أولوياته، فربما اتجه الإنسان إلى طلب نوع من المعرفة وأمضى فيه وقتا طويلا من عمره من دون أن يستفيد من هذا العلم بالدرجة التي تتناسب مع الوقت الذي أمضاه في تحصيله. الأمر -إذن- كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤٠].

فالله تبارك وتعالى يصنع أولياءه على عينه ويرعاهم بإرشاده وتسديده وهدايته كما يرعى الوالد الشفيق ولده ويهتم بتعليمه ما يعينه على التقدم والرقي فضلا عن مواجهة أعباء الحياة وتكاليفها.

وقبل أن نسترسل في بيان طبيعة هذه المعرفة التي يلقيها الله في عقول الذاكرين وفكرهم، لا بد أن نطرح سؤالا ونجيب عليه، وهو عن إمكانية التواصل المباشر بين الخالق والمخلوق وهل هو وحي يوحى؟.

الجواب عن ذلك فيما ذكرناه سابقا في آية سورة البقرة (آية ٢٥٧) وهو أيضا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٤١]. يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)، إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم والبشرى بالكرامة، فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن.

والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها و الخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم، فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئا أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم.

ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم: ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ وفي قولهم: (كنتم توعدون) دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما

هو بعد الحياة الدنيا. وقوله تعالى: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ إلخ من تتمة البشارة، وعلى هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها -كما تقدم- من باب التوطئة والتمهيد إلى ذكر الآخرة؛ للإشارة إلى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل: نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا -لما كنا- أولياءكم في الحياة الدنيا، وسنتولى أمركم بعد هذا كما توليناه قبل.

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي؛ لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة والمقايسة بين أوليائه تعالى وأعدائه، إذ قال في حق أعدائه: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ إلخ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته: ﴿نحن أولياؤكم﴾.

وبالمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددين هم المخصوصون بأهل ولاية الله، وأما الملائكة الحرس وموكلو الأرزاق والآجال وغيرهم فمشتركون بين المؤمن والكافر.

ومعنى الذي ذكره العلامة الطباطبائي هو أن الخطاب الموجه من الملائكة لأولياء الله يكون عند موتهم وانتقالهم من الحياة الدنيا إلى العالم الآخر، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إلا أن الآية التالية تكشف عن أن هذه الولاية والوساطة بين الله وأوليائه لم تبدأ لحظة الموت، بل هي امتداد لعلاقة سابقة قائمة بين ملائكة التسديد المخصوصين بأهل ولاية الله وهؤلاء الأولياء. ومن ثم فالحوار بين الملائكة وأهل الولاية يبدأ من اللحظة التي يتعلق فيها الإنسان بحبل ولاية الله. وفي مقابل هذا التواصل القائم بين الله تبارك وتعالى وأوليائه عبر ملائكة التسديد والإرشاد فهناك تواصل مضاد بين الشيطان وحزبه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِم مِنَ الجِنّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[٤٢].

فعلاقة الولاية بين الله تبارك وتعالى وأوليائه لا تبدأ لحظة الموت، بل تبدأ لحظة التعلق والارتباط بين الله وأوليائه بالولاية، فهي حبل الله المتين وصراطه المستقيم وهي السبب المتصل بين الأرض والسماء. ولا عجب ولا غرابة - إذن- أن يتولى الله أولياءه بحفظه وعنايته ورعايته وإرشاده أفرادا كانوا أم جماعات فهو سبحانه ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤٣].

مدرسة الحكمة

امتلأ القرآن الكريم بالآيات التي تشرح وتحدد مهمة الرسل والأنبياء وهي تهدف إلى رفع شأن البشرية وتزكيتها وتعليمها الكتاب والحكمة، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[٤٤]، ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٤٥]، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[٤٦].

إنها دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام لربه أن يرسل إلى أمته رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. والحكمة أيضا هي منحة منحها الله تبارك وتعالى لنبيه عيسى عليه السلام وبقية أنبياء الله العظام.

لقد استجاب الله تبارك وتعالى لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فبعث محمدا صلى الله عليه وآله

إلى العرب الأميين ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم.

ومن البديهي أن حرف الواو يعني العطف والمغايرة، وأن عطف الكتاب على الحكمة يعني أن الأمر لا يتعلق بظاهر النص التشريعي الموجود بالفعل في كتاب الله، والذي يقرأه كل من يعرف اللغة العربية سواء أفهمه أم لم يفهمه.

والسنة النبوية كما يفهمها كثير من المسلمين هي نص شرعي مكمل للقرآن الكريم ولسنا هنا في موارد مناقشة مفهوم السنة السائد لدى من يسمون أنفسهم بأهل السنة ولا طريقة جمعها، ولكننا نؤكد أن كلمة الحكمة لا يقصد بها تلك التي يسمونها سنة والتي جُمعت بعد أكثر من قرنين من رحيل نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله عن هذه الدنيا في كتب سميت بعد ذلك بالصحاح، وأسبغ عليها هالة من القداسة تقارب قدسية كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المهم أن إقرار القوم بأن كتب السنة تحتاج إلى تمحيص وتدقيق (لا يقدر على القيام به غيرهم!!) يعني إقرارا ضمنيا بوجود ما يحتاج إلى تصحيح، وما يحمل بذور التناقض مع الصحيح، ومن ثَمَّ يصبح التساؤل منطقيا عن مدى انطباق كلمة (حكمة) على مجموع ما في هذه الكتب رغم قناعتنا بأن صحيح هذه الكتب يندرج في إطار الكتاب والحكمة.

إن الحكمة هي منة من الله يهبها للأصفياء من عباده: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٤٧].

معنى الحكمة:

الحكمة كما يقول الراغب الأصفهاني: إصابة الحق بالعلم والعقل. وحكمة الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، أما الحكمة الإنسانية فهي معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[٤٨]، ونبه على جملتها بما وصفه بها، فإذا قيل: إن الله تعالى

حكيم، فمعناه بخلاف معناه إذا وصف به غيره، ومن هذا الوجه قال تعالى: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾[٤٩]، وإذا وصف به القرآن فلتضمنه الحكمة، نحو: ﴿آلر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾[٥٠]، وعلى ذلك قال: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر... حكمة بالغة﴾[٥١]، وقيل: معنى الحكيم المحكم نحو: ﴿أحكمت آياته﴾[٥٢]، وكلاهما صحيح، فإنه محكم ومفيد للحكم، ففيه المعنيان جميعا، والحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة، فإن الحكم أن يقضي بشيء على شيء، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا، قال ﷺ: (إن من الشعر لحكمة)، أي: قضية صادقة، وقال ﷺ: (الصمت حكم وقليل فاعله)، وقيل: فهم حقائق القرآن، وذلك إشارة إلى أبعاضها التي تختص بأولي العزم من الرسل، ويكون سائر الأنبياء تبعا لهم في ذلك وقوله عز وجل: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[٥٣]، فمن الحكمة المختصة بالأنبياء أو من الحكم قوله عز وجل: ﴿آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[٥٤]، فالمحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى.

الحكمة والفلسفة:

أما الدكتور مصطفى عبد الرازق فيقول: (لا يفوتنا أن نشير إلى أن فلاسفة الإسلام استعملوا إلى جانب كلمة (فلسفة) اليونانية وما اشتق عنها كلمة (حكمة) العربية وما أخذ عنها فقالوا: حكمة وحكيم وعلوم حكمية)[٥٥].

وينقل عن الفارابي: (لما كانت الفلسفة إنما تحصل بجودة التمييز، وجودة التمييز إنما تحصل بقوة الذهن على إدراك الصواب، كانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذا وقوة الذهن تحصل متى كانت لنا قوة نقف بها على الحق أنه حق يقين فنعتقده، وبها نقف على الباطل أنه باطل بيقين فنجتنبه، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه، ونقف على ما هو

حق في ذاته وقد أشبه الباطل فلا نغلط فيه ولا ننخدع، والصناعة التي بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق)[٥٦].

وينقل الدكتور عبد الرازق عن ابن سينا المتوفى (٤٢٨ هـ) تعريفه للحكمة في «رسالة الطبيعيات»: (الحكمة استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية، فالحكمة المتعلقة بالأمور التي لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعمل بها تسمى حكمة نظرية، والحكمة المتعلقة بالأمور التي لنا أن نعلمها ونعمل بها تسمى حكمة عملية، وكل واحدة من هاتين الحكمتين تنحصر في أقسام ثلاثة: فأقسام الحكمة العملية: حكمة مدنية، وحكمة منزلية، وحكمة خلقية. ومبدأ هذه الثلاثة مستفاد من جهة الشريعة الإلهية وكمالات حدودها تستبين بها وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية في البشر بمعرفة القوانين واستعمالها في الجزئيات)[٥٧].

أما الشيخ يوسف القرضاوي فينقل عن المفسرين معنى الحكمة فيقول: اختلف مفسرو السلف في معنى الحكمة في هذه الآيات فروى ابن جرير عن ابن وهب قال: قلت لمالك: ما الحكمة؟، قال: المعرفة بالدين والفقه في الدين والاتّباع له، وروى ابن جرير عن قتادة: أن الحكمة هي السنة، وعن ابن وهب: الحكمة هي الدين الذي لا يعرفونه إلا برسول الله صلى الله عليه وآله يعلمهم إياها والحكمة هي العقل في الدين.

وينقل عن صاحب تفسير المنار في معنى (ويعلمكم الكتاب والحكمة) أي: الكتاب الإلهي أو الكتابة التي يخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور الحضارة والعلم. أما الحكمة فهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها الباعث على العمل بها، وفسرها بعضهم بالسنة وهو غلط فإنها أي (الحكمة) أطلقت على بعض نصوص الكتاب كالعقائد والفضائل والأحكام الإيجابية والسلبية بدليل

قوله تعالى بعد الوصايا المقرونة بعلل الأمر والنهي من سورة الإسراء: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾[٥٨].

ثم يقول: والحكمة يراد بها حسن الفهم للكتب والتفقه في أحكامها بحيث يعرف مقاصدها وأسرارها، ولا يقف عند ظواهرها، ويعرف ما وراء أحكامها وتوجيهاتها من المنافع والمصالح الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، وسعادة الفرد والمجتمع بحيث يدفع هذا الفقه المنشود إلى حسن العمل بها ووضعها في موضعها الملائم.

وهذه الحكمة هبة ونعمة من الله يؤتيها من يشاء من عباده كما قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾[٥٩]، وقد يعبر عن هذا الإيتاء الإلهي بالإنزال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[٦٠]، فليس المقصود هنا أن الله أنزل بها جبريل عليه السلام كالقرآن بل ألهم بها رسوله ومَن عليه، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾، قال الأستاذ: إعطاؤه آلتها -العقل- كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة، فالعقل هو الميزان الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام[٦١].

وقد استوقفني أولا ما نقله أو ما أقرّ به الشيخ القرضاوي من أن الحكمة هي هبة ونعمة من الله يؤتيها من يشاء من عباده، والمعنى أن ليس كل من سعى في تحصيل العلم والفقه صار من الحكماء، أي ليس كل فقيه حكيم. فالحكمة هي منة وهدية من الله تبارك وتعالى لمن يستحقها من عباده (فمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ وَلاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ)[٦٢].

كما أنه قد أقر بأن إدراك الحكمة لا يتحقق بمجرد الاطلاع على الكتاب والسنة كما يقول بعض المفسرين،

فالحكمة الإلهية ليست علما مستقلا أو قائما بذاته، بل هي طريقة في إدارة العلم والمعرفة تتيح للعقل استيعاب الحد الأقصى من العلم (معرفة واسعة)، وهي أيضا أسلوب حكيم في التعامل والتعاطي مع الحقائق الكونية والدينية سواء أكانت نصاً سماويا منزلا أم خبرات تاريخية متراكمة أو رؤى مستقبلية توجب التصرف بأسلوب يوازن بين وقائع التاريخ والواقع المعاصر في إطار أخلاقي يحقق الأهداف العليا للدين، وهي ميزة يحتاج إليها قادة الأمة الحقيقيون وليس المزيفون؛ من أجل القيام بواجبهم الإلهي، أي أنها (معرفة دراية وليست مجرد معرفة سرد ورواية).

والحكماء الإلهيون (رجال الله) يشكلون فريق عمل موحد ومتجانس حتى وإن تباعدت بينهم الأزمان والأماكن؛ كونهم يدينون بالولاء لقائد رباني واحد بدءا بنبينا محمد صلى الله عليه وآله ومرورا بأئمة أهل البيت عليهم السلام واحدا بعد واحد.

والحكماء الإلهيون (رجال الله) هم قادة المستقبل الذين سيخلص الله بهم هذه الأمة من أمراضها وعللها التي أقعدتها عن المسير وجعلتها في ذيل الأمم، فكأس الحكمة الذي تسقيهم إياه يدُ العناية الإلهية هو وحده القادر على شفاء الأمة من عللها وبلاياها الأخلاقية والفكرية، وفكرهم هو فكر النهضة الذي يشحذ عزائم الرجال ويهديهم سوي الصراط ثُمَّ (لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ[٦٣] تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ)[٦٤].

دعك -إذاً- من تخبُّط من يزعمون امتلاك الفهم الشامل الكامل للإسلام، وادعائهم الواهي بالقدرة على تخليص الأمة مما هي فيه وتصحيح مسارها، وهم أبعد ما يكونون عن مدرسة الحكمة الإلهية، ناهيك عن أنهم لا يقرون بوجودها من الأساس!!.

وليس غريبا -إذاً- أن نكمل الحديث عن الحكمة والحكماء مستضيئين بتلك

الرواية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله التي رواها الترمذي وغيره، فقد روى الترمذي ٣٦٥٧: حدثنا إسماعيل بن موسى حدثنا محمد بن عمر بن الرومي حدثنا شريك عن سلمة بن كهيل عن سويد بن غفلة عن الصنابحي عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا دار الحكمة وعلي بابها.

لذا فالحكمة الإلهية لها نبع واحد ومنهج واحد، حيث لا يمكن للحكيم الرباني المتخرج من مدرسة أهل البيت أن يناقض أقرانه خريجي المدرسة نفسها. ومن هنا فالآيات القرآنية تؤكد أن الحكمة هي منحة وهبة يمنحها الله لمن يشاء من عباده ولا يمكن أن تكون وساما يتبادله الأدعياء فيما بينهم.

علي بن أبي طالب والفلسفة الإلهية:

يقول العلامة الطباطبائي: بعث الرسول صلى الله عليه وآله في عصر سماه القرآن بالجاهلية، وكان عامة العرب آنذاك أميين لا يقرءون ولا يكتبون، ولم يكن فيهم أثر للعلم والثقافة، وليس لديهم شيء من المدنية، بل كانت حياتهم فوضى وهمجية، وأمة هذا حالها تكون مرتعا خصبا للجاهلية العمياء التي هي السم الناقع للفلسفة الإلهية؛ لأن العصبية تذهب باستعداد النفس لتقبل الحق. ومن الصعب جدا أن يتهيأ لأمة هذه حالها ظرف صالح يخرجها من ظلمة الجهالة وينفي عنها رذائل الأعمال المهلكة ويعوضها عنها بالأعمال الصالحة (أولا)، ويلهمها الحكمة والموعظة الحسنة (ثانيا)، لينتهي بها الأمر إلى الفلسفة الإلهية، وعند ذلك يتم الكمال الإنساني وتلتقي سعادة الدنيا بسعادة الآخرة وإن إلى ربك المنتهى.

وإذا تتبع الباحث الناقد ما وصل إلينا من أخبار تفصّل لنا أحوال صحابة النبي صلى الله عليه وآله وتحكي أقوالهم، يرى هذه

الحقيقة التي أشرنا إليها رأي العين، فإن أغلب هذه الأخبار قد تضمنت عرضا لأعمالهم الصالحة التي يبدو منها اتّباعهم للسنة النبوية، أو تتضمن أحداثا ترتبط بالدعوة الدينية وشؤونها، وقليل من هذه الأخبار يشتمل على الحكمة والموعظة الحسنة وتعاليم الدين، وأما ما يشير منها إلى معرفة حقيقية ويرمز إلى فلسفة إلهية تأخذ الألباب وتشد القلوب وتربطها بسرادق العزة والكبرياء وساحة العز والبهاء فهو شاذ ونادر، والحديث الذي يتعرض لهذا لا يتجاوز عدد أصابع اليد، وليس فيما ورثناه من كلام في المعارف إلا أخبار التجسيم والتشبيه أو التنزيه وبعض المعارف الساذجة البسيطة، مع أن عدد من ترجم لهم من الصحابة يبلغ اثني عشر ألفا ولم تألُ الأمة في النقل عنهم وإحصاء أقوالهم ورواياتهم.

لكننا نجد كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يفيض بالمعارف الحقيقية، وتحار فيه النفس الوالهة الخائضة في الفلسفة الإلهية، ونجد أن الفكر الإنساني يلتقي ويرتقي معه إلى أن يصل إلى أوج مرتقاه حتى غدا في كل موقف كأن كلامه السائر وحده في مراقي الحقيقة لا يشق له غبار ولا تناله الأوهام والأفكار.

ولا نعني بذلك توحد كلامه في بلاغته بل نعني به كلامه الذي يزخر بالمعارف الحقيقية والفلسفة الإلهية[٦٥].

الحكمة والفلسفة الإلهية - إذاً- هي منحة ربانية، ولا قيمة ولا معنى لتوافق الأدعياء على منح هذا المقام كما تمنح الرتب والنياشين والجوائز لأناس لم يكن لهم من ميزة سوى إعراضهم وتجاهلهم لحكيم الأمة الأول وعالمها الرباني علي بن أبي طالب عليه السلام بدعوى أن (أمرهم شورى بينهم)، وهم لا يمانعون بعد ذلك أن يستشهدوا بآيات القرآن التي تؤكد أن الحكمة هي عطاء واصطفاء واختيار إلهي ولا يمكن لأحد اكتسابها بمحض إرادته!!.

ونريد أن نسمع منهم إجابة واضحة: هل الحكمة محض اكتساب؟؟!!. أم هي منحة إلهية كما قال سبحانه (يؤتي الحكمة من يشاء)؟!.

أما إذا كانت منحة إلهية وهي كذلك بالفعل ولا يمكن أن تكون غير ذلك وهي في آل الأنبياء عامة وآل إبراهيم وآل محمد خاصة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾[٦٦].

وظيفة الأنبياء:

يمكننا أن نزعم بعد هذا الشرح أن وظيفة الأنبياء هي تلاوة الكتاب أي تعريف الناس بالدين، ودعوتهم للالتزام بأحكامه الظاهرة، وتزكية الأمة وتطهيرها ودفعها نحو الترقي، وهو الأمر الذي يتحقق عندما يلتزم المؤمنون بأحكام الدين وقواعده من فعل للحلال وترك للحرام.

أما مهمة تعليمهم الحكمة فتهدف لتأسيس تلك النواة الصلبة (رجال الله) أي الصفوة القادرة على قيادة الأمة والأخذ بيدها سيرا على الصراط المستقيم وصولا إلى تحقيق مرضاة الله في الدنيا والآخرة.

والذي نوقن به أن مهمة الرسل والأنبياء ليست مهمة عشوائية تقتصر على الإنذار والبلاغ، وأن دورهم ووظيفتهم لا يمكن أن يغفل عن مهمة تربية الأمة وحفظ كيانها من خلال غرس تلك الأعمدة ونصب تلك الأوتاد التي تمنح الأمة عمودا فقريا وتجعل كيانها كيانا شامخا صلبا لا تزعزعه الأعاصير والرياح ولا يتلاعب به رموز الفتنة وتجار الفتن والأهواء... رجال الشيطان.

ولأن الحكمة هي نقيض السفه؛ والحكماء هم نقيض السفهاء يشير القرآن الكريم إلى الدور الهام والخطير الذي يؤديه السفهاء في تدمير أي أمة أسلمت قيادها لهم فيقول عز من قائل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾[٦٧].

ومن المعلوم أن بني إسرائيل قد خالفوا أمر نبي الله موسى عليه السلام الذي ألزمهم بطاعة وصيه وخليفته على قومه هارون عليه السلام فكان أن وقعوا في هاوية عبادة العجل وكان أن استحقوا جميعهم العقاب بمن فيهم تلك النخبة التي اختارها موسى وذهب معهم للقاء ربه.

الحكمة -إذاً- ليست مجموعة من المعارف النظرية والاصطلاحات الفلسفية التي يهوم بها (الفلاسفة والعرفاء)، فالحكماء وحدهم هم من يملكون القدرة والمعرفة التي تؤهلهم للحكم بما أنزل الله؛ إذ إن كل حكمة حكم وليس كل حكم حكمة، وما أكثر الأحكام الطائشة والفاسدة التي يطلقها السفهاء المتسربلون بلبوس الفقهاء، المتمسحون بمسوح علماء الدين والشريعة، وهي لا تعدو كونها حكم الهوى والشيطان.

الحكمة هي امتلاك الرؤية الثاقبة والنظرة الفاحصة التي تمكن صاحبها من اتخاذ القرار الصحيح في إطار الظروف الموضوعية التي يعيشها حكماء الأمة استشعارا لمسؤوليتهم في حفظ الدين والدفاع عن المؤمنين بما يرضي الله عز وجل ويحقق العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وربما كان هذا القرار (الحكم) تضحية بأغلى وأعز ما يملكه الإنسان وهي النفس أو المال أو الوشائج الاجتماعية التي يحرص كل إنسان على الاستفادة منها.

وما زال المسلمون حتى هذه اللحظة - وبفضل هؤلاء السفهاء - منقسمون في رؤيتهم لثورة الإمام الحسين بن علي عليه السلام التي ضحى فيها بنفسه وولده حفاظا على الشرع والدين رغم أن هذه الحركة الحسينية المضحية قد حفظت للأمة معالم دينها ومكنت السائرين على درب الإمام الحسين من التمييز بين الحق والباطل والحقيقة والزيف.

ورغم أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قد تصرف بطريقة تبدو ظاهريا وكأنها في الاتجاه المضاد؛ لأنه اختار أن يسلم الخلافة الدنيوية لابن آكلة الأكباد، إلا أن المضمون والهدف الذي سعى الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام لتحقيقه

واحد وهو حفظ الدين وما تبقى من المؤمنين.

وفي المقابل واستمرارا لنهج السفاهة التاريخي (سيقول السفهاء من الناس)، فإن هؤلاء السفهاء لا وظيفة لهم إلا تسفيه حكماء الأمة ورجال الله، والتشويش عليهم وقلب الحقائق، معتبرين نهج الطغاة السفهاء هو المسار الطبيعي، وهو (منطق الحكمة) الذي لا يجوز الخروج عليه ولا اعتراضه. تماما كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٦٨].

لذا فإن المطلع على كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ووصاياه للمسلمين يرى بوضوح مدى اعتنائه بحث المؤمنين على اقتناص الحكمة وتعلمها، وأنها ضالة المؤمن التي ينشدها ويبحث عنها ويطاردها في كل مكان، على عكس السفهاء الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فـ (الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ)[٦٩].

وهو يوصي المؤمنين بألا يضيعوا كنوز الحكمة من بين أيديهم فيقول عليه السلام: (خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ)[٧٠].

وهو يصف رحلة رجال الله في طلب العلم والحكمة وأنها غايتهم التي لا يبغون عنها حولا: (قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا وَالتَّفَرُّغِ لَهَا فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلاَمُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ)[٧١].

دور رجال الله في المجتمع المسلم

إنهم كما وصفهم أمير المؤمنين: (أَدِلَّة الْفَلَوَاتِ (الصحارى)، ومَصَابِيحَ الظُّلَمَاتِ، ودليل المتحير بين الشُّبُهَاتِ)؛ ولذا فهم (أَعْلاَمَ الهُدىً، وَمَصَابِيحُ الدُجى).

هذا هو الوصف الإجمالي لهم وهذه هي ألقابهم التي يتعين تقديمها بين يدي أسمائهم.

وأما تفاصيل دورهم:

فهم يُذَكّرُونَ بأَيَّام الله، وَيُخَوّفُونَ مَقَامَهُ. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ (أي الصراط المستقيم والنهج القويم) حَمِدُوا إِلَيْه طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بالنَّجَاة، وَمَنْ أَخَذَ يَميناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْه الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَة.

وَيَهْتِفُونَ بالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ الله، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بالقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِه، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ.

ماذا لو افترضنا أن أمة من الأمم يقودها أناس يتمتعون بتلك الصفات ويمتلكون تلك القدرات والملكات التي ذكرها الفارابي؟!. أناس يمتلكون قدرة وحكمة وعقلا يمكنهم من الوقوف (على الحق أنه حق يقين فنعتقده، وأن الباطل باطل بيقين فنجتنبه، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه، ونقف على ما هو حق في ذاته وقد أشبه الباطل فلا نغلط فيه ولا ننخدع).

هل يمكن لهذه الأمة أن تتورط في المزالق والمهالك التي تورطت فيها أمة ما زالت تزعم أنها خير أمة أخرجت للناس رغم أنها لا تميز بين الحق والباطل، ومن ثم فهي لا تقدر على الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر؛ لأنها عاجزة عن التمييز بينهما من الأساس بفضل قيادات السوء التي تملك أمرها وتصوغ وعيها؟!.

إن ما قاله الفارابي عن الحاجة لامتلاك القدرة على التمييز بين الحقيقة والشبهة يتطابق مع ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (وَإِنَّمَا سُمِّيَت الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأنها تُشْبِهُ الْحَقَّ فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ الله فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ

الله فَدُعَاؤُهُمْ الضَّلالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمْى)[٧٢]، ومن ثَمَّ (فمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ وَلاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ)[٧٣]، ومن باب أولى ليس كل من ادعى العلم والفقه بعالم أو بفقيه، ولا كل من تلبس لبوس الحكمة بحكيم، ولا كل من رفع شعارات الإصلاح صار من المصلحين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[٧٤].

نحن أمام حكمة إلهية ليست كحكمة غير المتألهين الذين لا هم لهم إلا إصلاح شأن الإنسان في الحياة الدنيا وتحقيق الرفاهية والتقدم كما هو شأن الكثيرين في هذا العالم.

إنها حكمة تهدف إلى تحقيق السعادة الإنسانية الشاملة الكاملة التي تبدأ من الدنيا ولا تكتمل إلا بالوصول إلى ساحة الرضا والسعادة الإلهية، حيث يتصالح الإنسان مع الكون صلحا نهائيا ويُقتص للمظلوم من ظالمه، وتسقط هذه القيود والأغلال الدنيوية الزائفة.

نحن أمام حكيم ملتزم بقضية كلية هي قضية الألوهية، يدور في فلكها ويذب عن حريمها ولا يرضى بالجائزة الكبرى بدلا، ولا يبغي عنها حولا فيبيعها ويتخلى عنها مقابل منصب في قصر أو جائزة يمنحها صاحب قصر، وبعد أن أقعدتهم هذه الحكمة الإلهية والمنحة الربانية في (مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ)، ليس لهم من همة إلا أن (يَنْشُرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ وَمُحَاسَبَةَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ).

رجال الله لا يختلفون عن غيرهم من البشر الذين يرغبون دوما في أن يحمد سعيهم، ولكنهم لا يرضون بالدون من مدائح أشباه البشر، وهم لا يفتشون عن هذه المدائح في عالم الزيف السلفي عالم الشهرة الزائفة والشهادات المزورة، فهم ينالون هذا بالفعل من خلال تواصلهم مع العالم العلوي، ويكفيهم فخرا ورضا

عن الذات أن تحفّ بهمُ الْمَلاَئكَةُ وَتتَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ بالسَّكِينة، وأن تقر أعينهم بعلمهم أن أَبْوَابَ السَّماء مفتوحة لهم حيث أَعدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَد اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فيه، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ، ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧٥].

رجال الله (الذين أخذوا الذِّكْر مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتهم بينما يجري غيرهم وراء الدرهم والدينار) من حلّه ومن غير حلّه، لا يمكن أن يكونوا من أثرياء هذه الدنيا!!.

إنهم فقراء إلى رحمة ربهم وهم أذلاء، ولكن بين يدي ربهم وليس بين أيدي فقراء هذه الدنيا، المصابين بوهم الثراء، ظنا منهم أن بوسعهم الاستغناء عن واهب النعم؛ ولذا فهم لا يلجؤون إلى غيرهم ولا يطلبون من سواه، وهم (رَهَائِنُ فَاقَة إِلَى فَضْله، وَأُسَارَى ذِلَّة لِعَظَمَته، لِكُلّ بَاب رَغْبَة إِلَى الله سُبحانَهُ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لاَ تَضِيقُ لَدَيْه الْمَنَادِحُ، وَلاَ يَخِيبُ عَلَيْه الرَّاغِبُونَ).

إن هذه الكلمات تكشف لنا عن سر آخر من أسرار تسميتهم برجال الله وهو التطابق بين ما يقوله هؤلاء الحكماء وما يفعلونه في سرهم وإعلانهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[٧٦]، إذ لا يمكن أن يكون رجال الله من المنافقين بحال من الأحوال، ولا من الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلوبهم أنهم ألد الخصام.

وأخيرا وليس آخرا، فإن رجال الله ليسوا طلاب شهرة أو زعامة، وما دفعهم للتصدي للشأن العام إلا قيامهم بالواجب الملقى على عاتقهم، وخشيتهم من عقاب الله على عدم قيامهم بهذا الواجب. فالأمر ليس شهوة تسلط ولا رغبة في الهيمنة والتحكم؛ ولذا كانت آخر سماتهم التي ذكرها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو تشددهم في محاسبة أنفسهم، (فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ).

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- نهج البلاغة، ج، ١١، الخطبة ٢٢١.

٣- نهج البلاغة، الخطبة، ١٠٤.

٤- من كلمات الامام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة، ١٣٩.

٥- نهج البلاغة، الخطبة، ١٨٩.

٦- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، د، مصطفى عبد الرزاق، مكتبة الاسرة ٢٠٠٧.

٧- العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبه.

٨- نهج البلاغة، الخطبة، ٨٧.

٩- نهج البلاغة، الخطبة، ١٥٠.

١٠- علي والفلسفة للعلامة محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الثقلين، بيروت.

١١- حكمة، ٧٥، نهج البلاغة.

١٢- حكمة، ٧٤، نهج البلاغة.

١٣-نهج البلاغة، الخطبة،١٨٢.

١٤- نهج البلاغة، الخطبة، ٣٨.

١٥- نهج البلاغة، الخطبة،٨٧.

الهوامش

(١) نهج البلاغة خطبة ٢٢١.، ج ١١، ص ١٧٧

(٢) النور ٣٥-٣٨.

(٣) امتاحوا: استَقُوا وانزِعوا الماء لريّ عطشكم من عين صافية صَفَتْ من الكَدَر.

(٤) رُوّقَتْ: صُفّيَتْ.

(٥) نهج البلاغة خطبة ١٠٤.

(٦) سورة ص ٧١-٧٢.

(٧) من كلمات الإمام علي ١٣٩ نهج البلاغة.

(٨) الروم ٣٠.

(٩) المطففين ١٤-١٦.

(١٠) آل عمران ٧٩.

(١١) الوقرة: ثقل السمع والعشوة ضعف البصر.

(١٢) الزخرف ٣٦-٣٧.

(١٣) الأنعام ٣٩.

(١٤) الجاثية ٢٣.

(١٥) الأنبياء ١٠.

(١٦) الأنبياء ٥٠.

(١٧) الأنبياء ٢٤.

(١٨) ص٨.
(١٩) ص ١.
(٢٠) الزخرف ٤٤.
(٢١) النحل ٤٣.
(٢٢) الطلاق ١٠-١١.
(٢٣) الكهف ٦٣.
(٢٤) البقرة ٢٠٠.
(٢٥) البقرة ١٩٨.
(٢٦) الأنبياء ١٠٥.
(٢٧) الدهر ١.
(٢٨) مريم ٦٧.
(٢٩) يس ٧٩.
(٣٠) الروم ٢٧.
(٣١) العنكبوت ٤٥.
(٣٢) ص ٤٣.
(٣٣) الذاريات ٥٥.
(٣٤) المدثر ٤٩.
(٣٥) عبس ١١.
(٣٦) الحج ٤٦.
(٣٧) يونس ١٠١.
(٣٨) نهج البلاغة خطبة ١٨٩.
(٣٩) النحل ٢٢-٢٣
(٤٠) البقرة ٢٥٧.
(٤١) فصلت ٣٠-٣١.
(٤٢) فصلت ٢٥.
(٤٣) البقرة ٢٥٧.
(٤٤) البقرة ١٢٩.
(٤٥) المائدة ١١٠.
(٤٦) الجمعة ٢.
(٤٧) البقرة ٢٦٩.
(٤٨) لقمان ١٢.
(٤٩) التين ٨
(٥٠) يونس ١.
(٥١) القمر ٤-٥.
(٥٢) هود ١.
(٥٣) المائدة ٤٤.
(٥٤) آل عمران ٧.
(٥٥) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. د مصطفى عبد الرازق. ص ٤٩، مكتبة الأسرة. ٢٠٠٧.
(٥٦) المصدر السابق ص ٥٨.
(٥٧) المصدر السابق ص ٦١.
(٥٨) الإسراء ٣٩.
(٥٩) البقرة ٢٦٩.
(٦٠) النساء ١١٣.
(٦١) العقل والعلم في القرآن الكريم،

مكتبة وهبة ١٩٩٦. ص ١٩٧-٢٠١.

(٦٢) خطبة ٨٧ نهج البلاغة

(٦٣) شحذ القين النصل: ما يقوم به الحداد من سن لنصل السيف أي حده.

(٦٤) خطبة ١٥٠ نهج البلاغة.

(٦٥) علي والفلسفة الإلهية، العلامة محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الثقلين، بيروت ص ٣٣-٣٥.

(٦٦) النساء ٥٤.

(٦٧) الأعراف ١٥٥.

(٦٨) البقرة ١٣-١٦.

(٦٩) حكمة ٧٥ نهج البلاغة.

(٧٠) حكمة ٧٤ نهج البلاغة.

(٧١) خطبة ١٨٢ نهج البلاغة.

(٧٢) خطبة ٣٨ نهج البلاغة.

(٧٣) خطبة ٨٧ نهج البلاغة

(٧٤) البقرة ١١-١٢.

(٧٥) آل عمران ١٨٨.

(٧٦) الصف ١-٢.

٦
البُعد القرآني
في كلمات
الإمام الهادي عليه السلام
أ.م.د. خولة مهدي شاكر الجراح
كلية الفقه/جامعة الكوفة

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد وآله الطيبين الطاهرين. القرآن هوالمصدر الأول للإسلام، وأقدس كتاب لدى المسلمين، وخاتم الكتب السماوية، وبه تثبت نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وبه تقوم الحجة على الناس جميعا إلى يوم القيامة بالتزام الإسلام دينا؛ لأنه معجزة في كل وجه من وجوهه، وحال من أحواله، بداية ما نزل منه كآخر ما انتهى إليه، ووسطه كطرفيه نسيج فريد ونسق واحد، ومستوى شاهق. فهوكما عبر عنه الإمام الرضا عليه السلام: (إنه المهيمن على الكتب كلها، وإنه حق من فاتحته إلى خاتمته، نؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه، وقصصه وأخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله)[١].

إنَّ القرآن الكريم كانت له عند أهل بيت النبوة بدءاً بالإمام علي عليه السلام ومرورا بفاطمة الزهراء عليها السلام ثم الحسن والحسين عليهما السلام والأئمة التسعة من ولد الحسين عليهم السلام مكانة أكبر ومنزلة أسمى فاقت ما لهذا الكتاب العظيم من المكانة والمنزلة عند غيرهم من المسلمين، فهذا أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول في شأن القرآن موجها أنظار المسلمين إلى أهمية هذا الكتاب الإلهي المقدس: (الله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتاب)[٢]، وقال أيضا: (عليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع والري الناقع، والعصمة للمستمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب)[٣].

وها هوالإمام الهادي عليه السلام يركز في العديد من فقرات حديثه على ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم، ففي حديثه في مسألة إبطال الجبر والتفويض -في الرسالة الذهبية التي بعثها لأهل الأهواز رداً على فكرة (الجبر)

التي تبنتها الأشاعرة، والتفويض الذي قال به المعتزلة، حيث كشفت فقرات الرسالة عن مدى الاختلاف الخطر الناشئ بين المسلمين بسبب هذه المسائل- يؤكد الإمام عليه السلام ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم بقوله: (... وقد أجمعت الأمة قاطبة، لا اختلاف بينهم: أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلّها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضاً. والقرآن حقّ لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه، وأنكر الخبر طائفة من الأمة لزمهم الإقرار به ضرورة حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب، فإذا جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملة)[٤].

جاء تركيز الإمام عليه السلام على ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- فيما اختلفت فيه الأمة من نزاعات فكرية، وعقائد مذهبية، فما وافق منها الكتاب فهوحقّ لا ريب فيه، وما خالفه فهوزخرف وباطل، ومن دان به فهوخارج عن ربقة الإسلام.

وهنالك لقطات فنية في كلمات الإمام عليه السلام الأخرى اشتملت على قبسات لامعة من أضواء القرآن الكريم، وهي متعددة الروافد، سوف يوجز البحث بعضاً منها:

أولا: إجابات الإمام عليه السلام على مسائل يحيى بن أكثم.

من أبرز كلمات الإمام الهادي عليه السلام ذات البعد القرآني ما جاء في إجاباته لقاضي القضاة يحيى بن أكثم في مسائله التي وجهها للإمام وأعدّها لامتحانه، فما كان من الإمام إلا أن نهد للإجابة وأمر ابن السكيت أن يكتب أجوبته مع علمه

أن الغرض وراء ذلك سياسي محض قصد به التعنت لا الإفادة[٥]، كتب الإمام: (بسم الله الرحمن الرحيم، وأنت فألهمك الله الرشد، أتاني كتابك فامتحنتنا به من تعنتك لتجد إلى الطعن سبيلا إنْ قصرنا فيها، والله يكافيك على نيتك، وقد شرحنا مسائلك فأصغ إليها سمعك وذلل لها فهمكَ، وشغل بها قلبك، فقد لزمتك الحجة والسلام)[٦].

وهنا نجد الإمام قد أدرك السر من وراء هذه المسائل فوصف ابن أكثم بالتعنت، وبين هدفه منها لغرض الطعن ومع ذلك فهو يجيب فيها بما يفحمه ويدعه باهتا.

وفيما يأتي يعرض الباحث ما جاء في هذه المسائل من بعد قرآني:

١- يقول الإمام عليه السلام: (سألتَ عن قوله عز وجل: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب...﴾[٧]. قال الإمام علي الهادي: وهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرف آصف، لكنه صلوات الله عليه أحب أن يعرِّفَ أمّتَهُ من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه عند آصف بأمر الله، ففهّمه ذلك لئلا يُختلف عليه في إمامته ودلالته، كما فهّم سليمان في حياة داود لتعرف نبوته وإمامته من بعده، لتأكد الحجة على الخلق)[٨].

وفي إجابة الإمام الهادي هذه دلالة إيحائية تشير إلى إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، إذ إن آصف عنده بعض علم الكتاب بدلالة (من) في قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ أما أمير المؤمنين الإمام عليّ فعنده علم الكتاب كله، فكما أراد سليمان أن لا يُختلف على آصف في إمامته ووصايته، فكذلك الرسول الأعظم فيما عهد به إلى أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن لا يختلف عليه في إمامته ووصايته[٩].

٢- سأل ابن أكثم عن قوله تعالى:

﴿ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجَّدا﴾[١٠]. فأجاب الإمام الهادي عليه السلام: (إن سجود يعقوب عليه السلام وولده كان طاعة لله ومحبة ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن لآدم، وإنما كان ذلك طاعة لله ومحبة منهم لآدم عليه السلام، فسجود يعقوب وولده ويوسف معهم كان شكرا لله باجتماع شملهم، ألم ترّه يقول في شكره ذلك الوقت: ﴿ربَ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾[١١][١٢].

٣- سأل يحيى بن أكثم عن قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب..﴾[١٣]. قال الإمام علي الهادي بعد ذكر الآية: (فإن المخاطب به رسول الله، ولم يكن في شك مما أنزل إليه ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث الله نبيا من الملائكة؟ ، إذ لم يفرق بين نبيه وبيننا في الاستغناء عن المآكل والمشارب والمشي في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيه (فاسأل الذين يقرءون الكتاب) بمحضر الجهلة: هل بعث الله رسولا قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ولك بهم أسوة، وإنما قال: فإن كنت في شك، ولم يكن في شك، ولكن للمنفعة، كما قال: ﴿فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[١٤].

ولوقال (عليكم) لم يجيبوا إلى المباهلة، وقد علم الله أن نبيه يؤدي عنه رسالته وما هومن الكاذبين، فكذلك عرف النبي أنه صادق فيما يقول، ولكن أحب أن ينصف من نفسه)[١٥].

٤- وسأل يحيى بن أكثم عن قوله تعالى: ﴿ولوأن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله..﴾[١٦]. فأجاب الإمام علي الهادي عليه السلام بعد ذكر الآية بقوله: (فهو كذلك، لوأن أشجار الدنيا أقلام، والبحر يمده سبعة

أبحر، وانفجرت الأرض عيونا، لنفدت قبل أن تنفد كلمات الله...)[١٧].

والأبحر هي: عين الكبريت، وعين اليمن، وعين برهوت، وعين الطبرية، وحمة ماسيدان تدعى لسان، وحمة أفريقية تدعى سيلان، وعين باحوران[١٨].

٥- وسأل ابن أكثم عن قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين..﴾[١٩] فاشتهت نفس آدم أكل البر، فأكل وأطعم وفيها ما تشتهي الأنفس فكيف عوقب؟. فأجاب الإمام علي الهادي عليه السلام: (وأما الجنة فإن فيها من المآكل والمشارب والملاهي ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأباح ذلك كله لآدم والشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته أن يأكلا منها شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظرا إلى من فضل الله على خلائقه بعين الحسد (فنَسي ولَم نَجد لَه عَزماً)[٢٠][٢١].

٦- وسأل ابن أكثم عن قوله تعالى: ﴿أويُزوجهم ذُكراناً وإناثاً﴾[٢٢]، يزوج الله عباده الذكران، وقد عوقب قوم فعلوا ذلك؟. فأجاب الإمام عليه السلام بعد ذكر الآية (أي يولد له ذكور، ويولد له إناث، يقال لكل اثنين مقرنين زوجان، ولكل واحد منهما زوج. ومعاذ الله أن يكون الله عنى الجليل ما لبّستَ به على نفسك تطلب الرخص لارتكاب المآثم ﴿ومن يفعل ذلك يلقَ أثاما* يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويَخلُد فيه مُهاناً﴾[٢٣][٢٤].

وفي الإجابة تعريض مهذّب بيحيى ابن أكثم كما لا يخفى.

ثانيا: استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم.

قد يفيد الإمام الهادي عليه السلام من القرآن الكريم حكما شرعيا أشكل على بعض الفقهاء علمه، واستعصى على بعض العلماء حكمه، وفيما يأتي يعرض الباحث لبعض من ذلك:

١- عن العياشي بإسناده عن حمدويه عن محمد بن عيسى قال سمعته يقول: كتب إليه (يعني الإمام

الهادي) إبراهيم بن غبسة: إن رأى سيدي ومولاي أن يخبرني عن قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر..﴾[٢٥] في الميسر، جعلت فداك. فكتب عليه السلام: (كل ما قومر به فهو الميسر، وكل مسكر حرام)[٢٦].

٢- كما أفاد الإمام من قوله تعالى: ﴿لقد نَصَرَكُم الله في مواطنَ كثيرة﴾[٢٧] أحد مصاديق الشيء الكثير. فعن أبي عبد الله الزيادي: لما سُمَّ المتوكل نذر لله إن رزقه الله العافية أن يتصدق بمال كثير، فلما عوفي اختلف الفقهاء في المال الكثير، فقال له الحسن حاجبه: إن أتيتك يا أمير المؤمنين بالصواب فما لي عندك؟ قال: عشرة آلاف درهم وإلا ضربتك مائة مقرعة، قال: قد رضيت، فأتى أبا الحسن عليه السلام فسأله عن ذلك فقال: قل له يتصدق بثمانين درهما. فأخبر المتوكل، فسأله: ما العلة؟، فأتاه، فسأله، فقال: (إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿لقد نَصَرَكُم الله في مواطنَ كثيرة﴾، فعددنا مواطن رسول الله صلى الله عليه وآله، فبلغت ثمانين موطناً، فرجع إليه فأخبره، ففرح. وأعطاه عشرة آلاف درهم)[٢٨].

٣- كذلك الحال في استيحاء الإمام عليه السلام مدرك الحكم الشرعي، فقد استفتاه المتوكل برجل نصراني فجرَ بامرأة مسلمة وأراد أن يقيم عليه الحدّ فأسلم، فأفتى الإمام: يضرب حتى يموت. فأنكر يحيى بن أكثم ذلك وقال: قد هدم إيمانه شركه وفعله. وطلبوا من المتوكل أن يكتب للإمام ويطلب منه مدرك الحكم[٢٩]، فأجاب عليه السلام بعد البسملة: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنَّا بالله وحده وكفرنا بما كنَّا به مشركين*فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لمَّا رأوا بأسنا سُنَّت الله التي قد خلت في عباده وخسِرَ هنالك الكافرون﴾[٣٠][٣١].

فقد أبان الإمام من خلال القرآن أن إسلام الرجل قد أُعلن في اللحظات الأخيرة خوفا من الحدّ الشرعي، وهولا يقبل منه لأنه غير صادر عن حالة طبيعية.

٤- وعن أحمد بن محمد قال: قال

أبو الحسن (يعني الإمام الهادي) في قول الله عز وجل ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق﴾، قال: طواف الفريضة طواف النساء[٣٢].

٥- في جواز كنية الكتابي:

نادى المتوكل أحد أصحابه وكان نصرانياً، يا أبا نوح، فأنكر عليه بعض مَن حضره أن يُكنَّى الكتابيون فاستفتى الفقهاء فاختلفوا، فبعث إلى الإمام الهادي يسأله فوقّع الإمام: ﴿تبَّت يدا أبي لهب وتبَّ﴾[٣٣]، فعلمَ المتوكلُ أنَّه يحلُّ ذلك؛ لأنَّ الله قد كنَّى الكافر[٣٤].

٦- سأل أيوب بن نوح الإمام أبا الحسن الثالث عليه السلام فقال له: إن أهل العراق يقولون: إن الجاموس مسخ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز أكله. فردّ عليه الإمام قائلاً: (أ وما سمعتَ قول الله عز وجل: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾؟[٣٥][٣٦].

٧- روى الحسن بن علي بن شعبة بسنده عن أبي الحسن الثالث عليه السلام، قال- في حديث له-: (وأما الرجل الذي اعترف باللواط، فإنه لم يقم عليه البينة، وإنما تطوع بالإقرار على نفسه، وإذا كان للإمام الذي من الله أن يعاقب عن الله كان له أن يمنَّ عن الله، أما سمعت قول الله: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أوامسك بغير حساب﴾؟[٣٧].

دلَّتْ هذه الرواية بوضوح على أن الإمام الشرعي المنصوب من قبل الله تعالى له أن يعفو عمن أقرَّ على نفسه باقتراف جريمة اللواط.

كما أن له أن يعاقب على ذلك، ويختص العفوبهذه الصورة، أمّا مَن قامتْ عليه البينة بذلك فليس للإمام أن يعفوعنه[٣٨].

ثالثاً: ما رواه عن آبائه في تفسير القرآن الكريم.

لقد روى الإمام الهادي عليه السلام الكثير من الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام في مجالات متعددة، بعضها جاء في التفسير، منها:

١- قال الإمام الهادي عليه السلام: (قال الصادق عليه السلام: في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿فصبرٌ جميل﴾[٣٩] أي بلا شكوى)[٤٠]. ولعلّ القرينة الدالة على

ذلك هو وصف الصبر بالجميل.

٢- قال الإمام الهادي عليه السلام: (قال الصادق عليه السلام: في تفسير قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾[٤١]، قال: كانوا لا ينامون حتى يُصلّوا العَتَمَةَ)[٤٢].

٣- قال الإمام الهادي عليه السلام: (قال الصادق عليه السلام: في تفسير قوله تعالى: ﴿فلنحيينَّه حياةً طيبةً﴾[٤٣]، قال: المراد بها القنوع)[٤٤].

٤- روى الإمام الهادي عليه السلام عن جده الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: (إن الله خلق الخلق فعَلِمَ ما هم إليه صائرون، فأمرهم ونهاهم، فما أمرهم به من شيء فقد جعل لهم السبيل إلى الأخذ به، وما نهاهم عنه من شيء فقد جعل لهم السبيل إلى تركه، وما جبر الله أحداً من خلقه على معصيته، بل اختبرهم بالبلوى كما قال الله تعالى: ﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾[٤٥][٤٦].

رابعا: القرآن الكريم في أدعية الإمام الهادي عليه السلام.

إن أدعية أهل البيت عليهم السلام تمثل روعة التراث الإسلامي وأصالته، ومن خصائصها:

أ- أنها وضعت قواعد السلوك، وأصول الأخلاق، وما تزدهر به الشخصية من القوى الروحية الواعية.

ب- أنها تشتمل على وثائق سياسية خطيرة، فهي تمثل مدى الاضطهاد الذي مُنيَ به العالم الإسلامي في تلك العصور من قبل الحكام الأمويين والعباسيين الذين لم يألوا جهدا في ظلم الناس وإرغامهم على ما يكرهون.

ج- أنها تمثل انقطاع الأئمة إلى الله والتجاءهم إليه، وإنهم قد آمنوا به بمشاعرهم وعواطفهم وقلوبهم.

وسوف يعرض الباحث بعض أدعية الإمام الهادي عليه السلام التي احتوت على آيٍ من الذكر الحكيم:

١- دعاؤه عند الشدائد:

من أدعيته هذا الدعاء الشريف، وكان يدعوبه إذا ألمّت به حادثة أوحلّ به خطب، أوأراد قضاء حاجة مهمة له[٤٧] يقول فيه: (... اللهم دللتَ عبادك على نفسك فقلتَ تباركتَ وتعاليتَ:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لَعلهم يرشدون﴾[٤٨]، وقلتَ: ﴿يا عِبَادِيَ الذينَ أَسرَفُوا على أَنفسِهم لا تَقنطوا من رَحمَةِ الله إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذنوبَ جَميعًا إنَّه هوالغَفور الرحيم﴾[٤٩]، وقلتَ: ﴿ولَقَد نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعمَ المُجيبُون﴾[٥٠]، أجل يا ربّ، نعم المدعوأنت، ونعم الربّ، ونعم المجيب. وقلت: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾[٥١][٥٢].

٢- دعاؤه في الاحتجاب:

جاء فيه: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾[٥٣]، و﴿وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم* إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾[٥٤]، عليك يا مولاي توكلي وأنت حسبي وأملي ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٥٥][٥٦].

٣- دعاؤه عليه السلام لدفع النحوس والمخاوف:

جاء فيه: (فصلّ اللهم على محمد وآل محمد، وأعذني اللهم بهم من شر كل ما أتقيه، يا عظيم حجزتَ الأعادي عني ببديع السماوات والأرض، إنا ﴿جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[٥٧][٥٨].

خامسا: الاقتباس القرآني في كلمات الإمام الهادي عليه السلام.

الاقتباس لغة: الشعلة، يُقال: خُذ لي قبساً من نار[٥٩]. وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: (القاف والباء والسين أصل صحيح يدل على صفة من صفات النار، ثم يستعار من ذلك القبس: شعلة النار)[٦٠]، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أوأجد على النار هدى﴾[٦١].

أما الاقتباس اصطلاحاً: هو أن يُضمَّن الكلام (شعراً كان أم نثراً) شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف[٦٢]. وقد عرفه الرازي(ت٦٠٦هـ): (هو أن

يضمن الكلمة من القرآن الكريم أوآية منه في الكلام تزيناً لنظامه وتفخيماً لشأنه)[٦٣]، وقد وسع العلامة الحلي(ت٧٢٥هـ) ذلك ليشمل الحديث الشريف، فيقول: (هو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أوالحديث ولا ينبه عليه للعلم به)[٦٤]، وقد حصر بعض العلماء الاقتباس على القرآن الكريم وحده[٦٥].

وفيما يأتي يذكر الباحث بعضا من المواضع التي اقتبس فيها الإمام من القرآن الكريم:

١- حديثه في الرد على من قال بالتجسيم:

أ- روى حمزة بن محمد، قال: (كتبتُ إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن الجسم والصورة، فكتب عليه السلام: سبحان من ليس كمثله شيء، لا جسم ولا صورة)[٦٦].

ب- روى إبراهيم بن محمد الهمداني، قال: (كتبت إلى الرجل -يعني أبا الحسن عليه السلام- إن من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد، فمنهم من يقول: جسم، ومنهم من يقول: صورة. فكتب عليه السلام بخطه: سبحان من لا يحد ولا يوصف، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم)[٦٧].

إن الله تعالى يستحيل أن ينعت بالحد الذي تتكون منه حقائق الأشياء الممكنة، كما يستحيل أن يوصف بالأوصاف المستلزمة لتعدد الصفة والموصوف، فإن صفاته تعالى عين ذاته حسبما حققه المتكلمون[٦٨]. نجد الإمام عليه السلام اقتبس كلامه من الآية الحادية عشر في سورة الشورى.

٢- حديثه في استحالة وصفه تعالى:

أدلى الإمام أبوالحسن الهادي عليه السلام في حديث له مع الفتح بن يزيد الجرجاني أعرب فيه عن استحالة وصف الخالق الحكيم بصفة تحيط بكنهه وحقيقته، وقد جاء فيه: (إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وأنّى يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة به، جلّ عمّا يصفه الواصفون،

وتعالى عما ينعته الناعتون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهوفي نأيه القريب، وفي قربه بعيد، كيف الكيف فلا يقال كيف، وأين الأين فلا يقال أين، إذ هومنقطع الكيفية والأينية، وهوالواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فجل جلاله). وهنا الإمام عليه السلام اقتبس من قوله تعالى في سورة الإخلاص.

كذلك يشير الإمام عليه السلام إلى استحالة وصف النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام فيقول: (أم كيف يوصف بكنه محمد صلى الله عليه وآله، وقد قرنه الجليل باسمه، وشركه في عطائه، وأوجب لمن أطاعه جزاء طاعته إذ يقول: ﴿وما نَقَمُوا إلا أن أغناهم الله ورسولُه من فضله﴾[٦٩]. وقال يحكي قول من ترك طاعته، وهويعذبه بين أطباق نيرانها وسرابيل قطرانها: ﴿يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾[٧٠]. أم كيف يوصف بكنهه من قرن الجليل طاعتهم- يعني بهم أئمة أهل البيت- بطاعة رسوله حيث قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[٧١]. وقال: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾[٧٢]. وقال: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[٧٣]. وقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون﴾[٧٤]. يا فتحُ، كما لا يوصف الجليل جل جلاله والرسول والخليل وولدا البتول، فكذلك لا يوصف المؤمن المسلّم لأمرنا)[٧٥].

وعرض هذا الحديث إلى الاستحالة في وصف الله بصفة تحكي واقعه وتلم بذاته، فذلك أمر ممتنع، وكذلك بنسبة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأوصيائه الأئمة المعصومين، بل حتى المؤمن المسلّم لأمر أهل البيت، فإن الأوصاف تقصر عن أن تلم بنزعاته الشريفة وصفاته الفاضلة.

٣- الزيارة الجامعة:

أثرت عن الإمام الهادي عليه السلام مجموعة من الزيارات الرائعة زار بها آباءه الأئمة الطاهرين عليهم السلام وهي مليئة بالاحتجاج على أحقية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة الإسلامية، كما احتوت على وثائق مهمة

من مآثرهم وفضائلهم ومناقبهم، ومن هذه الزيارات الزيارة الجامعة، حيث جاء فيها:

(... السلام على الدعاة إلى الله، والأدلاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله، والتامين في محبة الله، والمخلصين في توحيد الله، والمظهرين لأمر الله ونهيه، وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ورحمة الله وبركاته)[٧٦].

لقد اقتبس الإمام عليه السلام قوله من قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[٧٧].

كذلك قوله عليه السلام: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد الله لنفسه وشهدت له ملائكته وأولوا العلم من خلقه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[٧٨]. وهنا اقتبس الإمام عليه السلام قوله من قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولي العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[٧٩].

وقوله: (وأشهد أن محمداً عبده المنتجب، ورسوله المرتضى، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)[٨٠].

وهنا اقتبس الإمام كلامه من قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[٨١].

نتائج البحث:

١- أكد الإمام عليه السلام ضرورة الرجوع إلى القرآن والتمسك به؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢- يبدو مما تقدم استظهار الإمام لكتاب الله تعالى، وجعله نصب عينيه في تفسيره دلاليا بما يقطع التخاصم والنزاع ولا سيما أن إجابات الإمام غير قابلة للرد أو الجدل لأنها طبقت المفصل.

٣- تعددت المجالات التي يتضح فيها البعد القرآني لدى الإمام الهادي عليه السلام، حيث نجده في إجاباته على المسائل، واستنباطه للأحكام، ومسائله الكلامية، وأدعيته، وزياراته.

مصادر البحث:

* القرآن الكريم

١- الأربلي/ علي بن عيسى بن أبي الفتح(٦٩٣هـ)
كشف الغمة في معرفة الأئمة/ مطبعة النجف/ النجف الأشرف/١٣٥٨هـ

٢- باقر شريف القرشي
موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ الإمام علي الهادي عليه السلام/ تحقيق: مهدي باقر القرشي/ مطبعة نكارش/١٤٣٠هـ.

٣- الحر العاملي/ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ)
وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة/ دار إحياء التراث/ بيروت.

٤- ذبيح الله المحلاتي - مآثر الكبراء في تاريخ سامراء/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.

٥- الرازي/ فخر الدين(٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز في دلالة الإعجاز، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر والطباعة/ عمان/ ١٩٨٥م

٦- ابن شعبة/ الحسن بن علي الحراني الحلبي(من علماء القرن الرابع)، تحف العقول عن آل الرسول/تحقيق: محمد صادق بحر العلوم/المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/١٣٨٤هـ.

٧- شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل إلى صناعة الترسل/ تحقيق: أكرم عثمان يوسف/دار الحرية/ بغداد/١٩٨٧م

٨- ابن شهر آشوب/رشيد الدين(٥٨٨هـ) مناقب آل أبي طالب/المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف/١٣٧٥هـ.

٩- الصدوق/ محمد بن علي بن الحسين(٣٨١هـ)، التوحيد/ المطبعة الحيدرية/النجف الأشرف/١٣٨٣هـ.

١٠- الصدوق/ سابق، عيون أخبار الرضا/ دار العلم/قم/١٣٧٧هـ.

١١- الصدوق/سابق، من لا يحضره الفقيه/ تحقيق السيد حسن الموسوي الخرساني/ مطبعة النجف/النجف الأشرف /١٣٧٧هـ.

١٢- الطبرسي/ أحمد بن علي بن أبي طالب(٥٨٨هـ)،الاحتجاج/دار النعمان، النجف الأشرف/١٣٨٦ هـ.

١٣- الطوسي/أبوجعفر محمد بن الحسن(٦٤٠ هـ)، الأمالي/طبعة النجف الأشرف.

١٤- الطوسي/ سابق، تهذيب الأحكام/ تحقيق السيد حسن الموسوي الخرساني/ دار الكتب الإسلامية/ النجف الأشرف/١٣٧٧ هـ.

١٥- الطوسي/ سابق، مصباح المتهجد/ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/١٤١١ هـ.

١٦- علي صدر الدين ابن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع/ ط١ - النعمان/ النجف الأشرف/ ١٩٦٨م/ تحقيق: شاكر هادي شكر.

١٧- العياشي/ أبوالنضر محمد بن مسعود(٣٢٠ هـ)، تفسير العياشي/ تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي/ المكتبة العلمية الإسلامية/قم/١٣٧١ هـ

١٨- ابن فارس/ بن زكريا، معجم مقاييس اللغة/ تحقيق: عبد السلام هارون/ط١/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/١٣٦٦ هـ.

١٩- الفراهيدي/ الخليل بن أحمد العين/ تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي/ ط٢/مؤسسة دار الهجرة/ ١٤١٠ هـ.

٢٠- القزويني/ جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة / شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي/ ط٥- منشورات دار الكتاب اللبناني- بيروت/ ١٩٨٠م.

٢١- الكليني/أبوجعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق(٣٢٩ هـ)، الكافي/ تحقيق: علي أكبر الغفاري/المطبعة الإسلامية/طهران/١٣٨٨ هـ

٢٢- المجلسي/ محمد باقر(١١١١ هـ)، بحار الأنوار/ دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٨٦ هـ.

٢٣- محمد حسن آل ياسين(١٤٢٧ هـ)، الإمام علي بن محمد الهادي/ المطبعة العربية/بيروت/٢٠٠١م.

٢٤- محمد حسين علي الصغير (معاصر)، موسوعة أهل البيت الحضارية/ الإمام علي الهادي عليه السلام/ مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر/١٤٢٩ هـ.

٢٥- محمد عبده، شرح نهج البلاغة/ دار النهضة- بيروت.

٢٦- هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت/ ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣ هـ.

الهوامش:

١- الصدوق/ عيون أخبار الرضا عليه السلام/ ١١٢/٢.

٢- نهج البلاغة/ ١٤٩/٢.

٣- المصدر نفسه/٤٩/٢، هادي النجفي/ موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣٧/١.

٤- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٥٨- ٤٧٥.

٥- محمد حسين علي الصغير/ موسوعة أهل البيت الحضارية- الإمام علي الهادي عليه السلام/ ٢١٧.

٦- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١ ، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

٧- النمل: ٤٠.

٨- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١ ، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

٩- محمد حسين علي الصغير/ موسوعة أهل البيت الحضارية- الإمام علي الهادي عليه السلام/ ٢١٧.

١٠- يوسف: ١٠٠.

١١- يوسف: ١٠١.

١٢- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١ ، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

١٣- يونس: ٩٤.

١٤- آل عمران: ٦١ .

١٥- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

١٦- لقمان: ٢٧.

١٧- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

١٨- ظ: باقر شريف القرشي/ موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣/ ٢٩٨.

١٩- الزخرف: ٧١ .

٢٠- طه: ١١٥.

٢١- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١ ، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣.

٢٢- الشورى: ٥٠.

٢٣- الفرقان: ٦٨- ٦٩ .

٢٤- ابن شعبة/ تحف العقول/ ٤٧٧- ٤٨١ ، ابن شهر آشوب/ المناقب/ ٣/ ٤٤٣

٢٥- البقرة: ٢١٩.

٢٦- العياشي/ تفسير العياشي/ ١٠٦/١.

٢٧- التوبة: ٢٥.

٢٨- الكليني/الكافي/٧/ ٤٦٣ ، ابن شهر آشوب/المناقب/ ٤/ ٤٠٢ .

٢٩- ظ: القرشي/ موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣/ ١٠٦.

٣٠- غافر: ٨٤- ٨٥ .

٣١- الحر العاملي/ وسائل الشيعة/ ١٨/ ٣٣١.

٣٢- الكليني/ الكافي/ ٤/ ٥١٢ .

٣٣- المسد: ١.

٣٤- محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن محمد الهادي/ ٦٥.

٣٥- الأنعام: ١٤٤.

٣٦- العياشي/ تفسير العياشي/ ١/ ٣٨٠، المجلسي/ بحار الأنوار/ ٦٢/ ١٨٠.

٣٧- ص: ٣٩.

٣٨- القرشي/ موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣/ ١٠٦.

٣٩- يوسف: ١٨.

٤٠- محلاتي/ مآثر الكبراء في تاريخ كربلاء.

٤١- السجدة: ١٦.

٤٢- الطوسي/ الأمالي/ ٢٩٤، المجلسي/ بحار الأنوار/٧٣/ ١٨٤.

٤٣- النحل: ٩٧.

٤٤- الطوسي، الأمالي، ٢٧٥، المجلسي/ بحار الأنوار/٦٨/ ٣٤٥.

٤٥- هود: ٧.

٤٦- الطبرسي/ الاحتجاج/٢/ ١٥٨ ، المجلسي/ بحار الأنوار/٥/ ٢٦.

٤٧- القرشي/ موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣/ ١٥٤.

٤٨- البقرة: ١٨٦.

٤٩- الزمر: ٥٣.

٥٠- الصافات: ٧٥.

٥١- الإسراء: ١١٠.

٥٢- الطوسي/ مصباح المتهجد/ ٣٤٣-٣٤٧.

٥٣- الإسراء: ٤٥- ٤٦.

٥٤- النحل: ٩٨-٩٩.

٥٥- الطلاق: ٣.

٥٦- المجلسي/ بحار الأنوار/ ٩١/ ٣٧٧.

٥٧- يس: ٩.

٥٨- الطوسي/ مصباح المتهجد/ ٩٢.

٥٩- ظ: العين: الفراهيدي: ١/ ٣٨٣.

٦٠- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس: ٥/ ٣٩.

٦١- سورة طه، الآية: ١٠.

٦٢- ظ: الإيضاح في علوم البلاغة: القزويني: ١/ ٣٨١.

٦٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الرازي: ١٤٧.

٦٤- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: العلامة الحلي: ٣٢٣.

٦٥- أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني: ٢/ ٢١٢.

٦٦- الصدوق/ التوحيد/ ٩٧.

٦٧- الصدوق/ التوحيد/ ١٠٠

٦٨- القرشي/ موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام/ ٣٣/ ١١٢.

٦٩- التوبة: ٧٤.

٧٠- الأحزاب: ٦٦.

٧١- النساء: ٥٩.

٧٢- النساء: ٨٣.

٧٣- النساء: ٥٨.

٧٤- النحل: ٤٣.

٧٥- الأربلي/ كشف الغمة/ ٢/ ٢٨٦- ٢٨٧.

٧٦- الصدوق/ من لا يحضره الفقيه/ ٢/ ٦٠٩، الطوسي/ تهذيب الأحكام/ ٦/ ٩٥.

٧٧- الأنبياء: ٢٦- ٢٧.

٧٨- الصدوق/ من لا يحضره الفقيه/ ٢/ ٦٠٩، الطوسي/ تهذيب الأحكام/ ٦/ ٩٥.

٧٩- آل عمران: ١٨.

٨٠- الصدوق/ من لا يحضره الفقيه/ ٢/ ٦٠٩، الطوسي/ تهذيب الأحكام/ ٦/ ٩٥.

٨١- التوبة: ٣٣.

أ.م.د. طارق حسن كسار
جامعة ذي قار / كلية العلوم الإسلامية

خلاصة البحث:

لقد تضمنت الآيات الشريفة في القرآن الكريم مضامين عدة، إذ يمكن تقسيمها إلى آيات المعارف والعقائد، وآيات التهذيب والأخلاق، وآيات العلوم والفنون، وآيات التاريخ والقصص، وآيات الإمامة والولاء، وآيات الأحكام.

ومن جملة هذه المضامين آيات الأحكام، إذ يعدّ القرآن الكريم - كما هو معلوم - المصدر الأوّل لأحكام الشريعة المقدّسة، بل وفيه تبيان كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾، وقد اعتمد الفقهاء على القرآن الكريم في استنباط الأحكام الشرعية وتأتي بعده المصادر الأخرى كمفصّلة ومبيّنة وموضّحة لما ورد في القرآن الكريم.

وقد ذكر الفقهاء أنّ من جملة الأمور التي يشترط التوفّر عليها لكلّ مَن أراد استنباط الأحكام الشرعيّة معرفة الآيات الكريمة التي تتعلق بالأحكام الشرعية وفهم تفسيرها.

وقد ألفت العديد من الكتب في آيات الأحكام، وقد عكف الفقهاء على دراسة الآيات المتعلقة بالأحكام الشرعية لغرض استنباط الأحكام الشرعية، وهذا البحث الموسوم بـ(دور آيات الأحكام في فهم الأحكام الشرعية)، والذي صدرته بمقدمة ثم بمبحثين، وقد كانت الخطة الأولية للبحث كما يأتي:

* **المبحث الأول:** أهمية آيات الأحكام والبحث فيها

المطلب الأول: تعريف آيات الأحكام

المطلب الثاني: الاهتمام بدراسة آيات الأحكام.

المطلب الثالث: نشأة البحث في آيات الأحكام وتطوره.

المطلب الرابع: عدد آيات الأحكام

* **المبحث الثاني:** دور آيات الأحكام في الاجتهاد الفقهي.

المطلب الأول: كيفية تشخيص آيات الأحكام ومناهج تفسيرها.

المطلب الثاني: دور آيات الأحكام في الاستنباط الفقهي.

المطلب الثالث: نماذج من آيات الأحكام.

نسأل الله التوفيق في إعداد هذا البحث والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول:

أهمية آيات الأحكام والبحث فيها.

المطلب الأول:

تعريف آيات الأحكام

لم يعثر الباحث على تعريف لآيات الأحكام عند العلماء السابقين؛ ولعلّ السبب في ذلك هو وضوحها وعدم الحاجة لذلك، لكن وجدت بعض التعريفات للمعاصرين، فقد عُرّفت بأنّها الآيات التي تضمّنت تشريعات كلّية، وهي تتناول بيان رؤوس الأحكام الفقهية وأصول التشريع الإسلامي من الوجهة العملية[1]، أو بأنّها الآيات التي تتعلّق بغرض الفقيه لاستنباطه منها حكماً شرعياً[2]، أو بأنّها الآيات التي تتضمّن الأحكام الفقهية التي تتعلّق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم[3].

والظاهر أنّه لا يقصد معنى اصطلاحي خاصّ من هذه التعريفات، وإنّما المقصود الإشارة إلى المعنى اللغوي لآيات الأحكام وهو: الآيات التي يمكن أن يستفاد منها حكم شرعي.

ويمكن القول: إنها الآيات التي تشتمل على الأحكام الفقهية سواء أكانت تكليفية أم وضعية.

المطلب الثاني:

الاهتمام بدراسة آيات الأحكام.

لقد أخذت آيات الأحكام حيزا كبيرا من ضمن الآيات الشريفة، وقد تناول القرآن الكريم أكثر من خمسين موضوعا فقهيا خاصا فضلا عن الموضوعات الفرعية، وتأتي أهمية البحث في هذه الآيات لكون الفقيه يبحث عن ما يهمه في مجال الاستنباط ويتمثل الاهتمام الأول بالكتاب الكريم والسنة الشريفة، فإذا لم يجد ما يدل على الحكم من القرآن الكريم

فإنه يلجأ إلى السنة الشريفة، وأما الإجماع والعقل فإنهما كاشفان عن الحكم.

والفقيه أولى من غيره أن يهتم بآيات الأحكام؛ لأنه يعرف ما يمكن استنباطه منها، يقول محمد باقر الأيرواني: إن تصدي الفقيه لمهمته وهي ضالته المنشودة لا يعادلها تصدي غيره لها ممن ليس من أرباب الفقه، فالمفسر إذا لم يكن فقيها يأخذ الآية ويشبعها بحثا من جوانب بلاغية وعلمية وتاريخية وما شاكل ذلك، ولا يركز البحث في الجانب الفقهي والأحكامي الذي يمكن أن يستفاد منها[٤].

فالفقيه يستفيد من الآية حسب موردها، ففي قوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[٥]، يستفيد الفقيه محبوبية الكون على طهارة وأن بإمكان المكلف الوضوء أو الغسل لهذه الغاية.

ويستفيد مثلا حجية الإقرار من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾[٦].

ونرى الكثير يستدل بشكل موسع من خلال الروايات رغم ما فيها من اختلاف في صحتها ويهمل ما جاء في القرآن الكريم من آيات الأحكام؛ لذلك ينبغي الاهتمام بدراسة آيات الأحكام ومعرفة ما تتضمنه من أحكام من خلالها، أو من خلال ضم بعض الآيات الأخرى؛ لأهميتها في مجال استنباط الأحكام الشرعية ومن مصدر موثوق يطمئن إليه قطعا.

المطلب الثالث:

نشأة البحث في آيات الأحكام وتطورها.

لا شك أن تاريخ موضوع آيات الأحكام يرجع إلى زمن النبي ﷺ، وإلى نزول أول آية فقهية من القرآن؛ لأنه مع نزول الآية الأولى التي تستلزم العمل بمفادها، كان الناس في ذلك الزمان جاهلين بالكم والكيف المطلوب، فقد كان الناس يرجعون إلى النبي، ﴿وأنزلنا

اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[٧].

فيسألونه عن العمل بهذه الآية ويعطي الجواب اللازم حسب المورد وبما يناسب وظيفة الرسول التبيينية في المورد؛ لذا يمكن أن نقول: إن تفسير آيات الأحكام يرجع إلى الحقبة النبوية.

أ- في عصر النبوة:

يقول الذهبي: إن الأصحاب كانوا كلما واجهتهم مشكلة في فهم القرآن يراجعون النبي، ويحصلون على الجواب؛ لأن بيان القرآن كان وظيفته.

ومن ثم يذكر الذهبي نماذج عدة من تفسير النبي صلى الله عليه وآله، ومن جملتها أنه فسر الآية ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..﴾[٨]، حيث قال صلى الله عليه وآله: (ألا وإن القوة الرمي)[٩].

وهنا نلاحظ أن هذا البيان الصادر عن النبي صلى الله عليه وآله قد فسر القوة بالرمي، وهذا تفسير لآية الجهاد، وإبراز لمصداق حكم فقهي.

وهناك بالطبع ما يوافق هذا المضمون في المجامع الروائية والتفسيرية الشيعية، حيث نقل الكليني عن عبدالله بن المغيرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قول الله عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..﴾ قال: الرمي[١٠]، وإن كان العياشي ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: سيف وترس[١١]، ويقول الشيخ معرفة: «كان رسول الله هو المرجع الأول لفهم غوامض الآيات (ومنها آيات الأحكام)، وحل مشاكلها، مدة حياته الكريمة؛ إذ كان عليه البيان كما كان عليه البلاغ... وقد تصدى النبي لتفصيل ما أجمل في القرآن إجمالاً، وبيان ما أبهم منه، إما بياناً في أحاديثه الشريفة وسيرته الكريمة، أو تفصيلاً جاء خلال تشريعاته من فرائض وسنن وأحكام وآداب، كانت سنته قولاً وعملاً وتقريراً كلها بياناً وتفسيراً لمجملات الكتاب العزيز، وحل مبهماته في التشريع والتسنين. فقد كان

قوله: (صلّوا كما رأيتموني أصلي)[١٢]، شرحاً وبياناً لما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿وأن أقيموا الصلاة﴾[١٣]، ولقوله: (إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً[١٤])[١٥].

وهناك احتمال قوي أن أول الأشياء التي احتاجها الناس في عصر النزول في ما يتعلق بتفسير آيات القرآن هو تفسير آيات الأحكام، وإن لم تأخذ هذا العنوان.وإذا ما سلمنا أن الأوامر التي أعطاها القرآن كانت لأجل التطبيق - وهو الصحيح - فمن الطبيعي أن يبين للناس ما هو تكليفهم في المرة الأولى، فسورة المزمل - التي تعد من أوائل السور نزولاً - قد طرح فيها ستة مواضيع فقهية: قراءة القرآن بالمقدار المستطاع، السفر، الجهاد، إقامة الصلاة، أداء الزكاة، والقرض، حيث قال جل وعلا: ﴿فَاقْرَؤوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ عَلِمَ أن سَيَكونُ منكم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فَاقْرَؤوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[١٦].

ب - في عصر الإمامة:

استمرت هذه الحركة العلمية بعد انتهاء عهد النبي، وذلك في عهد الأئمة، وتم تبيين المسائل الفقهية الجزئية والكلية، حتى بلغ الأمر أن بُيّنت أكثر المسائل تفصيلاً، استناداً للقرآن الكريم.

ومن النماذج التي يشار إليها في هذا المجال المسألة المعروفة في الوضوء، ومسح الرأس والقدم خاصة.فعن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك فقال: يا زرارة قاله رسول الله صلى الله عليه وآله، ونزل به الكتاب من الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ فعرفنا أن الوجه كله ينبغي أن يغسل ثم قال: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾، فوصل اليدين إلى

المرفقين بالوجه فعرفنا أنه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾، فعرفنا حين قال: ﴿برؤوسكم﴾ أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾، فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضهما، ثم فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله للناس فضيعوه[١٧].

ومن المؤلفين الأوائل في هذا المجال بعد هاتين المرحلتين هو محمد بن سائب الكلبي، ذكر ابن النديم أن أول من صنف في علم أحكام القرآن هو محمد بن السائب الكلبي (١٤٦هـ)[١٨]، وكان غالب ما وضعه هو من آراء ابن عباس (رض)، بينما أورد السيوطي أن الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) أول من صنف فيه[١٩]، بينما ذكر في طبقات النحاة أن القاسم بن أصبغ القرطبي هو أول من ألف فيه، ويمكن القول إن الكلبي هو صاحب السبق في هذا المضمار؛ لأن ولادة الشافعي بعد وفاة الكلبي بتسع سنين، وأن القاسم بن أصبغ ولد بعد ٤٣ سنة من وفاة الشافعي.

ويمكن ذكر بعض الكتب المؤلفة في آيات الأحكام عند فقهاء الإمامية ومنها:

١- فقه القرآن للفقيه قطب الدين الرواندي (ت ٥٧٣ هـ)، وهو أبرز علماء الشيعة وله مؤلفات فقهية وقرآنية عديدة.

وكان كتابه فقه القرآن حسب الأبواب الفقهية من كتاب الطهارة إلى كتاب الديات.

٢- كتاب (متشابه القرآن ومختلفه) تأليف الشيخ الجليل رشيد الدين محمّد بن عليّ بن شهر أشوب المازندراني (ت/٥٨٨هـ)، وقد خصّص فيه فصلاً تحت عنوان «باب فيما يحكم عليه الفقهاء» وحاول استيعاب آيات الأحكام.

٣- كتاب (النهاية في تفسير خمسمائة

آية) لفخر الدين بن المتوّج(ت/ أواخر القرن الثامن).

٤- وفي القرن التاسع كتاب (منهاج الهداية في تفسير خمسمائة آية) لجمال الدين ابن المتوّج(ت/ ٨٢٠ هـ)، وكتاب(آيات الأحكام) لناصر بن أحمد بن المتوّج، وكتاب (كنز العرفان) للفاضل المقداد السيوري(ت/ ٨٢٦ هـ).

٥- وفي القرن العاشر(زبدة البيان في أحكام القرآن) للمقدّس الأردبيلي) ت/ ٩٩٣ هـ).

٦- وفي القرن الحادي عشر كتاب (مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام) لجواد الكاظمي(١٠٦٥ هـ).

٧- وفي القرن الثاني عشر كتاب (قلائد الدرر) لأحمد الجزائري، وقد انتهى من تصنيفه عام(١١٣٨ هـ).

وأضراب هؤلاء من الفقهاء الذين ألّفوا في هذا المجال.

وقد تناول الفقهاء في دراساتهم المعاصرة ما يخص آيات الأحكام، ويطول البحث بذكرها.

وأما في الفقه السني فقد كانت لهم مؤلفات عدة يمكن ذكر أبرزها:

١- أحكام القرآن للجصاص (ت ٣٧٠ هـ)، وهو من أهم كتب الحنفية، وقد تضمن الإشارة للمذاهب الأربعة، وتناول البحث في كل سورة وما تتضمنه من أحكام.

٢- أحكام القرآن الكيا الهراسي (ت ٥٠٤ هـ)، وهو من كتب التفسير الفقهية لدى الشافعية، وقد ناقش بعض ما ورد في أحكام القرآن للجصاص من نظريات.

٣- أحكام القرآن لمحي الدين بن عربي المالكي (ت ٦٣٨ هـ)، وتناول الأحكام الموجودة في كل سورة ابتداء من سورة الفاتحة فضلا عن أسباب النزول، والمطالب التفسيرية المتعلقة بالآيات.

٤- ومن المؤلفات الأخرى كتاب (آيات الاحكام) للسايس المصري الشافعي وقد درس لطلبة جامعة الأزهر ويتعلق بالمذاهب الاربعة.

٥- ويمكن ذكر كتاب (روائع البيان

في تفسير آيات الاحكام من القرآن) لمحمد علي الصابوني، وقد تناول التحليل اللفظي والمعنى الإجمالي للآية وسبب نزولها وارتباطها بالآيات الأخرى ووجوه الإعراب مع النكات البلاغية فضلا عن الأحكام الشرعية وحكمة التشريع.

وغير ذلك الكثير من المؤلفات في هذا الموضوع المهم من تفسير القرآن.

المطلب الرابع:

عدد آيات الأحكام

إن التأكيد على العدد خمسمائة آية في فقه القرآن يستند إلى المشهور بين الفقهاء، حتى صار هذا العدد عنواناً لبعض التأليفات عند الفريقين، وقد اختار مقاتل بن سليمان عنوان «تفسير الخمسمائة آية في الأحكام» لمؤلّفه في فقه القرآن.

وهناك آراء أخرى في ما يتعلق بعدد آيات الأحكام، ومن جملة هذه الآراء ما يعتقده عبد الله بن مبارك من أن آيات الأحكام تشكل تسعمائة آية من آيات القرآن.وقد قام محمد بن عبد الله بن العربي بتفسير هذا العدد من الآيات، وهو من الكتّاب في مجال آيات الأحكام، مالكيّ المذهب.

ولكن الأرجح أن أعلى رقم وصل إليه عدد الآيات هو الألفان فما زاد، وهو ما ذكره القرطبي[٢٠]، وهناك من قال بأنها أقل من خمسمائة، منهم: الشيخ محمد خضري بك، الذي يعتقد بأن عدد آيات الأحكام لا يتجاوز الثلاثمائة، ثم هناك السيوطي والشيخ الطنطاوي اللذان اقتصرا على اعتبار مائة وخمسين آية فقط ذات صلة بالأحكام[٢١].

لذلك فإن ضبط آيات الأحكام في عدد معين أمر صعب؛ لأن العقول تختلف في فهم الآية ففي قوله تعالى: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾[٢٢]، قد فهم بعضهم أنه المس المادي، بينما بعضهم الآخر فهم منها المس المعنوي، أي أنه لا يعرف دقائق الأمور في القرآن إلا المطهرون من الزلل وهم أهل البيت عليهم السلام.

وأيضا من أسباب الاختلاف في عددها هو عدم أخذ المكرّرات بعين الاعتبار عند إحصاء الآيات الفقهية،

أو أنهم راعوا في ذلك عنوان الحكم، وهو ما سيؤدي بالطبع إلى قلة العدد المطروح، ويحتمل أن السبب وراء الأعداد الكبيرة المذكورة هو اتّباع نوع من الرؤية في تحديد آيات الأحكام، حيث أرادوا أن يحصلوا على بعض الاستفادات الفقهية من خلال آيات لا يظهر كونها من آيات الأحكام، كآيات الأمثال، وآيات القصص، وآيات القسم، وغيرها.

ويمكن تعليل الاختلاف بأنه عدم ملاحظة الآيات لوحدها يقل العدد، أما إذا ضممنا إليها آيات أُخر فيزداد العدد كحرمة القذف فإنها لا تستفاد من قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[٢٣]، لكن عندما نضم إليها قوله تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾[٢٤]، يمكن الاستفادة منها.

وتوجد الكثير من الآيات التي تتضمن الآداب الإسلامية في التعامل مع الآخرين، وإذا دخلت ضمن آيات الأحكام ازداد العدد؛ لذا فمن المناسب أن نقول: إن العدد قد يفوق الخمسمائة آية ولكن ليس بشكل مفرط.

وقد اختلفت الأنظار في تحديد نسبة الآيات المشتملة على الأحكام الفقهيّة في القرآن الكريم، ففي روايات أهل البيت عليهم السلام أنّها ربع القرآن أو ثلثه أو أكثر، فقد روى الكليني في الصحيح عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدوّنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام»[٢٥].

وعن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدوّنا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام»[٢٦].

وفي رواية عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ القرآن نزل أربعة أرباع: ربع حلال، وربع حرام، وربع سنن وأحكام، وربع خبر ما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم وفصل ما بينكم»[٢٧].

ومن الواضح كون الحلال والحرام

من الأحكام الفقهيّة، فطبقاً لهذه الرواية تكون آيات الأحكام نصف القرآن تقريباً.

ونقل عن السيوطي في كتاب الإتقان عن القاضي أبي بكر بن العربي قوله: «وأمّا علوم القرآن فثلاثة: توحيد، وتذكير، وأحكام. فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

والتذكير منه الوعد والوعيد، والجنّة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام منها التكاليف كلّها»[٢٨].

المبحث الثاني:
دور آيات الأحكام في الاجتهاد الفقهي.

المطلب الأول:
كيفية تشخيص آيات الأحكام ومناهج تفسيرها.

إن آيات الأحكام - كما هو معروف- متوزعة في الكتاب الكريم، ولابد للفقيه المفسر أن يمتلك الأدوات التي تعينه على معرفة آيات التفسير وتشخيصها لغرض التوجه لاستنباط الأحكام الشرعية، مع الاعتماد أيضا على ما ورد في السنة الشريفة من روايات صحيحة وبمعونة العقل والإجماع الكاشفين عن الحكم.

ومن جملة هذه الأمور الواجب على الفقيه معرفتها ما يأتي:

أولا: لابد للفقيه من معرفة أسباب النزول، فقد تختص آيات معينة بمورد معين فلا يشمل هذا الحكم للمكلفين كوجوب صلاة الليل على النبي صلى الله عليه وآله فهو أمر خاص له في قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا....﴾[٢٩].

ويمكن معرفة ذلك من خلال الروايات الواردة في شأن نزول الآية، ولكن بعد الفحص والتدقيق في مدى صحة هذه الروايات.

ثانياً: وكذلك على الفقيه المفسر أن يتابع السياق القرآني، فبعض الآيات قد لا يُستفاد منها الحكم الشرعي المعين، ولكن عند ضمها إلى آيات أخرى - كما ذكر سابقا - فيمكن استفادة الحكم الشرعي.ففي سورة المطففين في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣٠]، فإنه لا تعد هذه الآيات من آيات الأحكام إذا أقصرنا النظر إليها، لكن عند ملاحظة الآيات السابقة، ومن خلال السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٣١]، نستفيد منها حرمة التطفيف من خلال التهديد الصريح.

ثالثا: وكذلك لا بد للفقيه من معرفة القواعد الفقهية التي تشتمل عليها الآيات، بل إن القواعد الفقهية هي التي أفدناها من الآيات، مِن مثل قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[٣٣]، فالآيتان تدلان على نفي العسر والحرج.

وكذلك استفادة القواعد الأصولية منها، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٣٤]، إذ يُستدل بها على حجية خبر الواحد.

رابعاً: فضلا عن معرفة الفقيه بالتفاسير القرآنية والإلمام بما جاء في القرآن الكريم بصورة تفصيلية حتى يتسنى له معرفة آيات الأحكام من غيرها، ومما يساعد في معرفة آيات الأحكام وتشخيصها - وبلا شك - هو الإلمام بعلوم اللغة العربية، إذ تختلف الألفاظ في موادها وهيئاتها فقد ورد: ﴿فافعلوا الخير﴾[٣٥]، ﴿فلا جناح عليكم إن تقصروا﴾[٣٦]، ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾[٣٧]، وهناك الجملة

الخبرية المثبتة ﴿الطلاق مرتان فإمساك﴾[٣٨]، بينما توجد الجملة الخبرية المنفية ﴿ليس على الضعفاء﴾[٣٩]، وهكذا.

وأما المناهج في تفسيرها، فقد اعتمد المفسّرون لآيات الأحكام أربعة مناهج في تفاسيرهم، وهي:

١- تفسير آيات الأحكام على وفق الترتيب الوارد في القرآن. وهذا يطرح على ضوء ورود الآيات في المصحف الشريف بترتيب سوره وآياته، بدءاً بالحمد فالبقرة فآل عمران، وهكذا دواليك.

٢- تفسير آيات الأحكام على وفق ترتيب السور حسب نزولها.

٣- تفسير آيات الأحكام طبقاً لأبواب الفقه. وهو السير على ترتيب الكتب الفقهيّة التي تقسّم الفقه عادةً إلى أربعة أقسام: العبادات، والعقود، والإيقاعات، والأحكام.

٤- تفسير آيات الأحكام طبقاً للمسائل الفقهيّة على أساس الأهمّيّة وشدّة الحاجة إليها بحسب متطلّبات الزمان والمكان.

والطابع العامّ الغالب على ما كتبه المؤلّفون من الشيعة هو المنهج الثالث.

والمؤلّفون من العامّة قد استخدموا المنهج الأوّل، وقد ألّف بعضهم على أساس المنهج الرابع في الآونة الأخيرة.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى كتاب (تفسير آيات الأحكام للسيد الطباطبائي) الذي يتميّز بأسلوب خاصّ، حيث يتناول هذا التفسير آيات الأحكام على وفق ورودها في المصحف الشريف بالبحث والتحقيق. فيذكر الآية ثمّ يذكر كونها مكّية أو مدنيّة ثمّ يشرع ببيان معناها والحكم أو الأحكام التي تُستفاد منها.

ويمتاز هذا التفسير عن أمثاله ونظائره بمقارنة ما استفيد من الآية الكريمة بآراء المذاهب الإسلاميّة الأخرى، وبيان آراء فقهائهم ومفسّريهم، وما ورد من الروايات في الموضوع من طرقهم، مشيراً إلى موارد الاتّفاق والاختلاف، فهو في الحقيقة بحث تفسيريّ فقهيّ مقارن.

المطلب الثاني:

دور آيات الأحكام في الاستنباط الفقهي

لا شكّ أن لمعرفة آيات الأحكام فائدة عظيمة للباحث الفقهي، بل نرى أن العلماء يشترطون في المجتهد أن يكون عالما بذلك. والعلم بآيات الأحكام هي الطريق لمعرفة ما شرعه الله، فبها نعرف الحلال والحرام.

فآيات الأحكام هي تلك الآيات الموجودة في القرآن، والتي يُترقّب أن يكون لها دلالة على موقفٍ عمليّ للمكلّفين، وبعبارةٍ أخرى: هي الآيات التي تتحدّث - بشكلٍ أو بآخر - عن قضيّة شرعيّة أو قانونيّة في الإسلام. وكذلك جملة من الآيات تشتمل على قواعد فقهية وأصولية والتي من خلالها تستنبط الأحكام الفقهية مثل:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٤٠]، فقد استفيد منها في بحث البراءة في أصول الفقه، واعتمدت دليلاً على أصالة البراءة الشرعيّة.

٢. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[٤١]، حيث استفيد منها في عدم حجية خبر الواحد وأمثاله.

٣. قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[٤٢]، حيث فهم منها بعضهم قاعدة الجبّ وسقوط الحدود والعقوبات الثابتة قبل الإسلام.

وكذلك توجد جملة من الآيات تدل على الحكم الشرعي مباشرة، فمن جهةٍ يمكن تنويع الآيات إلى ما يفيد الحكم مباشرةً، وما تكون له فائدة غير مباشرة. فمثال قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾[٤٣]، هو مثال للآية التي لها دلالة مباشرة على الحكم.

أمّا مثال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[٤٤]، فهو مثال للآية التي لها دلالة غير مباشرة، وذلك عبر ضمّ آية: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[٤٥]، حيث سيصبح المجموع - من وجهة نظر بعض الفقهاء، وكما تقيده بعض الروايات - دالاً على أقلّ مدّة الحمل.

وقدرة الفقيه القرآني الذي يدّعي اشتمال القرآن على كلّ الأحكام أو

يدّعي اشتماله على أكثر الأحكام، تكمن في استنطاقه النصوص القرآنية للحصول على أكبر عدد ممكن من الأحكام الشرعية مباشرةً، أو بطريق غير مباشر كما تقدّم.

فكلّما نجح الفقيه القرآني - على مستوى التجربة الميدانية الاجتهادية - في توفير عدد أكبر من الأحكام عبر النص القرآني فإنّه يكون قد عزّز - بالتجربة والاستقراء - نظريّته في جامعيّة القرآن بمعناها الأعلى (كلّ)، أو الأدنى (أغلب).

وقد بينت الكثير من الآيات تفصيلات أحكام الإرث والمحارم بسبب الرضاع، أو النسب وغيرها مما ذكر من الموارد الأخرى، وآيات الدين والتي أفاد منها الباحث الفقهي في استنباط الأحكام الشرعية مباشرة.

المطلب الثالث:
نماذج من آيات الأحكام

نقتصر في هذا البحث على بعض النماذج من آيات الأحكام التي يطول البحث كلما أكثرنا منها.ففي قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٤٦]، يقول صاحب تفسير الأمثل: «واختلف المفسرون في وقت نزول الآية، منهم من قال إنها نزلت في(عمرة القضاء) في السنة السابعة للهجرة، وكان من شروط النبي صلى الله عليه وآله مع المشركين في هذه السفرة رفع الصنمين من الصفا والمروة، وقد عملوا بهذا الشرط، لكنهم أعادوهما إلى محلهما.

وهذا أدى إلى كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروة، فنزلت الآية لتنهاهم عن هذه الكراهة»[٤٧].

فهذه الآية توحي بدلالة الآية على جواز السعي بين الصفا والمروة، مع أنّ هذا السعي واجب، لكن عندما نعرف

السبب وهو وجود الأصنام في المسعى وقلق المسلمين من السعي بينهما مع وجود الأصنام، نفهم أنّ نفي الجناح في الآية ليس عن السعي، بل عن حالة وجود الأصنام وأنت تسعى، فيختلف فهمنا للآية الكريمة - نسبياً - إذا صحّ سبب النزول هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾[٤٨]، فالمشهور في سبب نزولها أنها نزلت في بدر بسبب أن الكفار سبقوا المسلمين إلى الماء فاضطر المسلمون ونزلوا إلى تل من رمل سيال لا تثبت فيه أقدامهم، وأكثرهم خائفون لقلتهم وكثرة الكفار، فباتوا تلك الليلة على غير ماء فاحتلم أكثرهم، فتمثل لهم إبليس وقال: تزعمون أنكم على الحق وأنتم تصلون بالجنابة وعلى غير وضوء، وقد اشتد عطشكم، ولو كنتم على الحق ما سبقوكم إلى الماء، وإذا أضعفكم العطش قتلوكم كيف شاءوا، فأنزل الله عليهم المطر وزالت تلك العلل، وقويت قلوبهم، ونزلت الآية[٤٩].

وقد ناقش الشيخ آل راضي سبب النزول وقال عن السند بأنه ضعيف مع معارضتها بروايات أخرى، والمعروف تاريخيا أن المسلمين هم الذين سبقوا المشركين على آبار بدر، ولم يُنقل عن المؤرخين أن المشركين سبقوا إليها، وهذا مما يزيد في شكنا في صحة رواية سبب النزول على الرغم من شهرتها، ولذا لا يمكن الاعتماد عليها[٥٠].

المعنى الإجمالي:

يغشيكم النعاس: أي يجعل النعاس غاشيا عليكم ومحيطا بكم، والنعاس هو أول النوم. أمنة: الأمان، وأما الأمان من الله أو من العدو. الرجز: الرجس وهو الشيء القذر. والمهم في الآية هو بيان آيات الأحكام فيها فقد قال تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾، فهي تدل على طهارة ومطهرية الماء المطلق باعتبار أن الذي يطهر لا بدّ

أن يكون طاهرا في نفسه، ويُستفاد أيضا مطهريته للحدث والخبث ﴿ليطهركم به﴾، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾، والذي قد يكون الجنابة (الحدث الاكبر)، أو الخبث وهو المني الحاصل بسبب النجاسة.

وهناك معنى آخر ذكره بعضهم[٥١] وهو القول المنسوب لابن عباس وهو أن مفاد الآية: إن الله سبحانه نزل الماء من السماء ليزيل وسوسة الشيطان، إذ إن إنزال الماء يلقي الطمأنينة في قلوب المسلمين ويزيدهم يقينا بأن الله معهم ولن يتخلى عنهم في هذه الساعات الحرجة، وأنزل عليهم الماء ليطهر به نفوسهم بسبب ما أصابهم من وساوس الشيطان وأراجيفه.

فحينئذ سيختلف تفسير الآية، فإذا كان الرجز هو الجنابة، فيثبت أن الماء مطهر لحدث الجنابة، وأما ما قيل من أن الرجز هو الخبث وهو المني، فسيكون مفاد الآية مطهرية الماء للخبث وهو المني، أما على قول ابن عباس فتدل على التطهير المعنوي.

وقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[٥٢]، فالخشوع من خشع: خشع يخشع خشوعا واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته. وقوم خشع: متخشعون. وخشع بصره: انكسر[٥٣]، والخشوع جامع لكل ما قيل في تفسيره من الخوف[٥٤]، ويشمل سكون الجوارح وغض البصر وخفض الجناح وتنكيس الرأس وعدم الالتفات يمينا وشمالا. وهذه المعاني مظاهر خارجية ولوازم جانبية للخشوع الذي يستلزمها.

روي أن النبي صلى الله عليه وآله رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته، فقال: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح[٥٥].

وينقل عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء إلا ما حركت الريح منه[٥٦].

والآيات الكريمة في أول سورة

(المؤمنون) هي في مقام بيان بعض صفات المؤمنين؛ إذ تدل الآيات على مطلوبية هذه الصفات، وأن الخشوع ممدوح ومطلوب شرعا وهو أعم من مطلوبيته وجوبا أو استحبابا، إذاً تستبطن الآية مطلوبية الخشوع في الصلاة وهي مستبطنة لكثير من المستحبات والمكروهات، فالمستحبات مثل النظر إلى محل السجود أثناء القيام والطمأنينة وحضور القلب وغير ذلك، وأما المكروهات مثل العبث بالجسد والثياب والتثاؤب والالتفات بالعين يمينا وشمالا وغير ذلك.

وأيضا تدل الآيات على مطلوبية أصل الفعل وهو الصلاة باعتبار أنها مطلوبة بإيقاع كيفية خاصة فلا بد أن تكون هي مطلوبة، وإلا فمطلوبية الخشوع في الصلاة دون أن تكون الصلاة نفسها مطلوبة خلاف الملازمة العرفية، وهذه المطلوبية بنحو الوجوب.

الخاتمة:

بعد انتهاء البحث في هذا الموضوع المتشعب والذي اقتصرنا فيه على بعض ما مكننا الله تعالى فيه تتبين جملة من الأمور:

١. تشكل آيات الأحكام نسبة معتد بها في القرآن الكريم وقد يزداد العدد أو ينقص حسب فهم الآيات أو تكرارها أو ضمها مع غيرها؛ لذلك رأينا اختلاف العلماء في تحديد عدد آيات الأحكام ونسبتها.

٢. إن بعض الآيات صريحة في بيان الحكم الشرعي وواضحة، أما بعضها الآخر فتدل على الحكم بصورة غير مباشرة يمكن للباحث التفسيري الفقهي ملاحظتها.

٣. لا بد أن تتوفر في المفسر الجنبة الفقهية ومعرفته بالقواعد الفقهية والقواعد الأصولية، فضلا عن ما يضطلع به من علوم القرآن وعلوم اللغة العربية وغير ذلك من العلوم المختلفة، حتى يتسنى له تفسير الآيات واستنباط الحكم الشرعي منها بمعونة الروايات الصحيحة السند.

٤. لقد اهتم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته ببيان الأحكام الشرعية من خلال الآيات القرآنية عند تفسيرها أو في مقام الجواب عنها.

ومن ثَمَّ توالت التأليفات في هذا الموضوع المهم الذي يعنى بالقرآن الكريم بعده المصدر الأساس في التشريع الإسلامي.

٥. على الكليات الإسلامية والحوزات العلمية الاهتمام بهذا الجانب، فلا تكون دراسة الفقه والأصول بمعزل عن هذا الجانب الحيوي الضروري الذي يختص بالآيات مباشرة والذي يمكن من خلاله معرفة أحكام فقهية رئيسة وفرعية عند التعمق في هذا العلم.

وهذا مجمل ما يمكن التوصل إليه في نهاية البحث، والحمد لله رب العالمين.

المصادر:

* القرآن الكريم.

١. الأيرواني، باقر، دروس تمهيدية في تفسير آيات الاحكام، مطبعة: برهان، ١٤٢٣هـ.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت) ط٢، مطبعة: مهر قم ١٤١٤هـ.

٣. حنبل، أحمد، مسند أحمد، دار صادر، بيروت.

٤. الرواندي، قطب الدين، فقه القرآن، ط ٢، مطبعة الولاية قم المقدسة، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

٥. الذهبي، محمد حسين التفسير والمفسّرون، الناشر: مكتبة هبة، القاهرة، ١٩٧٦.

٦. آل راضي، محمد هادي، آيات الاحكام، ط١، مطبعة الهادي، ١٤١٩ هـ

٧. زكي، إبراهيم دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، إبراهيم طبعة أفغانستان ١٩٣٦.

٨. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مطبعة الرسالة.

٩. السلقيني، إبراهيم محمد، الميسّر في أصول الفقه، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٦.

١٠. الطنطاوي الجوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١: ٣، الطبعة الرابعة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ.

١١. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، تنوير المقباس من تفسير بن عباس، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٢.

١٢. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

١٣. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ط٣، تحقيق علي أكبر غفاري، طبع ونشر: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ.

١٤. المجلسي - محمد باقر، بحار الأنوار، ط ٢، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣ هـ.

١٥. معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ١: ١٧٤، قم، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، ١٤١٦هـ.

١٦. مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

١٧. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب - ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.

١٨. النديم، محمد بن أبي يعقوب، الفهرست ابن النديم، تحقيق رضا تجدد طبعة مصر.

الهوامش:

١- فقه القرآن، الرواندي ج١، ص ٨. الميسّر في أصول الفقه، إبراهيم السلقيني ص٣٧٧.

٢- إبراهيم زكي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، ج٢، ص ٧٢٢.

٣- الذهبي، التفسير والمفسّرون ج ٢، ص٤٣٢.

٤- الأيرواني، دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام ج١ ص ١٢.

٥- البقرة ٢٢٢.

٦- النساء ١٣٥.

٧- النحل ٤٤.

٨- الأنفال ٦٠.

٩- أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ١٥٧.

١٠- الكليني، محمد بن يعقوب الكليني، ٥: ٤٩.

١١- الحر العاملي، وسائل الشيعة ١١: ٤٢٧.

١٢- بحار الأنوار ٧٩: ٣٧٥

١٣- الأنعام: ٧٢

١٤- النساء: ١٠٣.

١٥- محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ١: ١٧٤،

١٦- المزمل: ٢٠.

١٧- الحر العاملي وسائل الشيعة (آل البيت) - ج ١ ص ٤١٣.

١٨- ابن النديم الفهرست ١: ٥٧

١٩- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ٤: ٣٥.

٢٠- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٢٩.

٢١- الإتقان في علوم القرآن ٢: ١٦٥، الطنطاوي الجوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١: ٣

٢٢- الواقعة ٧٩

٢٣- النور ٢٤

٢٤- النور ٢٣

٢٥ - الكافي، الكليني، ٢: ٦٢٧

٢٦- الكافي، الكليني، ٢: ٦٢٧

٢٧- الكافي، الكليني، ٢: ٦٢٧

٢٨- الإتقان السيوطي ج٢ ص ٤٣٢

٢٩- المزمل ١-٢

٣٠- المطففين ٤-٦

٣١- المطففين ١-٣
٣٢ - المائدة ١٨٥
٣٣- الحج ٧٨
٣٤ - الحجرات ٦
٣٥- الحج ٧٧
٣٦- النساء ١٠١
٣٧- البقرة ١٧٨
٣٨- البقرة ٢٢٩
٣٩- التوبة ٩١
٤٠- الإسراء: ١٥
٤١- يونس: ٣٦
٤٢- الأنفال: ٣٨
٤٣- البقرة: ٢٧٥
٤٤- لقمان: ١٤
٤٥- الأحقاف: ١٥
٤٦ - البقرة: ١٥٨
٤٧ - مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج١ ص ٤٥٥.
٤٨- الأنفال ١١.
٤٩- بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٧٧ ص ٣-٤.
٥٠- آل راضي، محمد هادي، آيات الأحكام، ص ١١٩.
٥١ - (تنوير المقباس من تفسير بن عباس: ١١٤).
٥٢ - المؤمنون ١-٢.
٥٣ - لسان العرب - ابن منظور ج ٨ ص ٧١.
٥٤ - الكافي، الكليني ٣ / ٣١١، ٣٢٠.
٥٥- بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٨١ ص ٢١٢.
٥٦- وسائل الشيعة (الإسلامية) - الحر العاملي ج ٤ ص ٦٨٥.

٨

فَهْمُ القرآن

بَيْنَ التَّأصِيلِ وَالتّجدِيدِ على مُسْتَوَى القِرَاءَة القرْآنيَّة

الأستاذ المساعد الدكتور جبار كاظم شنبارة الملا
كلية العلوم الإسلامية / جامعة بابل

المُسْتَخْلَصُ:

ينطلقُ هذا البحثُ مِنْ فرضيَّةٍ كبرى مفادُها قائمٌ على التَّفريق بين (تفسير القرآن)، و(فَهْم القرآن)، فالتَّفسيرُ واحدٌ، والفَهْمُ متعدّدٌ، ومن ثمَّ فإنَّ كلَّ ما كان متعدّدًا - وعلى وَفْق هذه الفرضيَّة - فهو من فَهْم القرآن، وإنْ عُدَّ تفسيرًا، عند أربابَ الفنَ مِنَ المتقدّمينَ، والمتأخّرينَ على حدٍ سواء.

والَّذي نراهُ أنَّ (القراءَةَ القُرْآنيَّةَ) نافذةٌ مِنْ نوافذ فَهْم القُرْآن، لا مِنْ نوافذ تفسيره، فهي تُحقّقُ (مستوًى) مِنْ مُستويات الفَهْم، وتُسْهمُ في تَعَدُّد (الأفْهَام)، أو (الفُهُوم)، ولمَّا كانَ سبيلُ تحصيل القراءة هو الرِّواية الواردة عَنْ طَريق مَدْرَسَة أَهْل البيت عليهم السلام.

لَذا فإنَّ الوقوف عليها يكشفُ عَنْ جَنْبَةٍ مِنْ جَوانب (التَّلازُم المَعْرفيّ) بين القرآن والعِتْرة في دائرة فَهْم القرآن على مستوى القراءَة القرآنيَّة.

وبهذا نكونُ قد بيَّنَّا أثر القراءة القرآنيَّة في تحقيق الفَهْم القرآنيّ، وسلَّطْنا الضّوء على أثرها في علوم الشَّريعة.

الكلمَاتُ المفْتَاحيَّةُ: (تَأْصيلٌ، تَجْديدٌ، فَهْمٌ، قِرَاءَةٌ، قُرْآنٌ).

مُقَدّمَةٌ:

الحمد لله ربّ العالمينَ، والصَّلاة والسَّلام على النَّبيّ المؤيَّد المنصور المسدَّد أبي القاسم محمَّد صلى الله عليه وآله، وعلى أهل بيته الطَّيّبينَ الطَّاهرينَ عليهم السلام، وعلى صحبه الأخيار المنتجبينَ. لقد عَنَى المفسّرونَ في (فَهْم القرآن) بدءًا مِنْ سورة الفاتحة، وانتهاءً بسورة النَّاس، وشاركَهُمْ في الأمر المتخصّصُونَ بعلوم القرآن، والفقهاءُ، وعلماءُ أُصول الفقْه في آيات (الأحكام)، وعلماء العقيدة والكلام في آيات (العقائد).

والمتقدّمونَ كلّهم لهم إسهامات في فَهْم النَّصّ القرآنيّ، والقراءة القرآنيَّة رافدٌ من روافد ذلك الفَهْم عندهم.

أَهميَّةُ البَحْث:

إنَّ القراءاتِ القرآنيَّة على مَبْنَى المتقدِمينَ متواترةٌ، وعلى وَفْق هذا المَبْنَى، إنْ كانَتْ صادرةً عَن العِتْرة- أَوْ عَن الرَّسول الأعظم محمَّدﷺ، ثمَّ نقلَتْها العِتْرة- فبها يفسَّر النَّصُّ؛ استناداً إلى قاعدة: (تفسير القرآن بالقراءة)، وبهذا تبرز القراءة بوصفها مستوًى من مستويات السُّنَّة البيانيَّة الصَّادرة عَن العِتْرَة، وبهذا يتأكدُّ التَّلازم المعرفيّ بين القرآن والعِتْرَة.

أمَّا على مَبْنَى المعاصرينَ فهي إمَّا اجتهادٌ، وإمَّا أَخْبَار آحاد، فإنْ كَانَتْ اجتهاداً فهي قواعدٌ لفَهْم النَّصَ القرآنيّ، إلاَّ أنَّها تندرجُ تحت (العَقْل)؛ لذا فهي خارج مدار البحث.

وإنْ كانَتْ أَخْبَار آحاد فهي قواعدٌ لفَهْم النَّصَ القرآنيّ، طالما هي صادرة عن العِتْرَة، أو صادرة عن النَّبيّ الرَّسول الأعظم محمَّدﷺ، ثمَّ نقلَتْها العِتْرة- نَعَمْ، هي قواعدٌ لتفسير النَّصّ القرآنيّ إنْ ثبتَتْ متنًا وسندًا، وخلَتْ ممَّا يخدُشُ بهما، أو من المعارض النَّصّي: القرآنيّ، أو الرّوائيّ- وبهذا تتَّضح القراءة بوصفها مستوًى من مستويات السُّنَّة البيانيَّة الصَّادرة عَن العِتْرَة، ويتأكَّدُ التَّلازم المعرفيّ بين القرآن والعِتْرَة.

مُشْكِلَةُ البَحْث:

إنَّي بهذا البحث أسعى جاهدًا؛ لأجيب على إشكاليَّة معرفيَّة مفادها: هَل التَّفسيرُ والفَهْمُ واحدٌ، أمَّ أنَّهما اثنان؟ وعلى الفرض الثَّاني، أي: إنَّهما اثنان، وبعبارة أخرى: إنَّ التَّفسيرَ غيرُ الفَهْم، فما الفرقُ بينهما؟ ولو سلَّمْنَا وقلْنا بالفرق، فأيّهُما يكون واحدًا، وأيُّهما يكون متعدّدًا؟.

وطالما إنَّنا بهذا البحث نتكفَّلُ بالإجابة على تلك التَّساؤلات- المذكورة آنفًا- كلّها، فيقينًا أنَّنا نكون قَدْ ساهَمْنا بحلّ هذه الإشكاليَّة.

فَرَضِيَّةُ البَحْث:

انطلَقُ في هذا البحث من مجموعة فرضيَّات رئيسة يمثّل مجموعها فرضية البحث المركزيَّة، على التفصيل الآتي:

أوَّلًا: إنَّ الفَهْم غيرُ التَّفسير.

ثانيًا: إنَّ التَّفسير واحدٌ، والفَهْم متعدّدٌ.

ثالثًا: إنَّ الفَهْم يمكن أنْ يتحوَّل إلى تفسير، رابعًا: إنَّ الفَهْم إنْ صدر عن المعصومينَ عليهم السلام، يمكن أنْ يتعدَّدَ في باب (الأحكام)، إلَّا أنَّه- هنا- يُرَادُ به العلْم، وإنْ سُمّيَ فَهْمًا، خامسًا: إنَّ المُتَحَصِل من القراءة فَهْمٌ في إطاره العامّ، وَإنْ صار فَهْمًا في إطاره الخاصّ، سادسًا: طالما إنَّ القراءة مستوًى من مستويات الفَهْم، ومردَّها أنَّها روايةٌ- على مبنى التواتر عند المتقدِمينَ، أو على مَبْنَى الآحاد عند المعاصرينَ- لذا تكونُ مستوًى من مستويات التَّلازم المعرفيّ بين القرآن والعِتْرَة، أمَّا على مَبْنَى (الاجتهاد)،

فهي من باب التَّلازم المعرفيّ بين القرآن والعقل، إنْ صحَّت التَّسمية؛ لأنَّ القراءةَ إنْ كانتْ اجتهاداً فهي مستوًى من مستويات فَهْم القرآن بالعقل، لا بالقراءة، وهذا الأمر إنْ ثبتَ فهو خارج مدار البحث.

أَهْدَافُ البَحْث:

إنّي في هذا البحث أَهْدفُ إلَى أُمُورٍ عدَّةٍ، يمكنُ إجمالُها بما يأتي:

١- رفع اللَّبْس الحاصل بين التَّفسير والفَهْم، فَهُمَا أمران متغايران، لا متغيران.

٢- إثبات أَنَّ المُتَحَصّلَ منَ القراءة القرآنيَّة فَهْمٌ في إطاره العامّ.

٣- بيان أنَّ الاستناد إلى القراءة بوصفها مستوًى مِنْ مستويات الفَهْم يوضّحُ بيان التَّلازم المعرفي بين القرآن والعِتْرَة، بناءً على قاعدة: (فَهْم القرآن بالقراءة)، وهي مندرجة تحت سنَّتهم البيانيَّة إنْ ثبت أنَّها عنهم صدرَتْ، أو عن طريقهم صلى الله عليه وآله من النَّبيّ نقلت.

٤- الإعلام أنَّ للفهْم قواعده، مثلما للتَّفسير قواعده.

٥- التَّنبيه إلى أَنَّ الفَهْم يَقْرُب إلى حدّ ما من التَّأويل في تعدُّده.

٦- إثبات أن للفهم أسبابا تؤدي للاختلاف، يمكن أن نسميها (أسباب اختلاف الفهم)، مثلما هناك أسباب اختلاف التفسير، وأسباب اختلاف الفقهاء، ومن أسباب اختلاف الفهم الاستناد إلى قاعدة: (فهم القرآن بالقراءة).

٧- الإرشاد إلى أن الفهم- في الأعم الأغلب- مبنى على ما يعرف عند بعض الفقهاء (لو خلينا نحن والقراءة)، أي غض النظر عن شذوذها، وعدم صحتها، أو وجود ما يعارضها، أو ما يخدش في صحتها، ويجعلها غير معتد بها. نعم في باب الترجيح بين (الفهوم) المتعددة نتخلى عن مقولة (لو خلينا نحن والرواية)، ونستند للنظر، في المتن، والمعارض، وبكل ما يخدش في صميم الدلالة، أو في صميم صدورها عن المعصومين.

٨- بيان أنَّ (فَهْم القرآن بالقراءة) قاعدة من قواعد الفَهْم، لا من قواعد التَّفسير.

الدّراساتُ السَّابقةُ:

لم أجد- في حدود تتبُّعي- دراسة على هذا النَّحو، نَعَمْ هناك مادَّة معرفيَّة أفدْتُ منها، وتلك المادَّة وردَتْ في بحثين، أمَّا الأوَّل فهو«دلالة (إلى) في آية الوُضوء قراءة تحليليَّة في مَبْنَى الشَّيخ القُميّ ونَقْد الشَّيخ ابن العتائقيّ له»[1].

وأمَّا الثَّاني فهو «التَّفسير الفِقْهيّ عند الشَّيخ ابن العتائقيّ قراءة نقديَّة في فِقْه العبادات»[2]، إلاَّ أنَّ ما قيل هناك غير ما قيل هنا؛ لاختلاف الدَّواعي، والهدف، والمنهج، وطرق المعالجة؛ للوصول إلى النتائج.

خُطَّةُ البَحْث:

جعلت البحث قائمًا على مقدّمة، ومبحثين، ثمَّ خاتمة ونتائج، فثبت المصادر والمراجع.

تناول المَبْحَثُ الأوَّلُ: فَهْمُ القُرْآن في ضَوْء قِرَاءَة: ﴿...فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنَ الْمَرَافِقِ...﴾.

وتناول المَبْحَثُ الثَّاني: فَهْمُ القُرْآن فِي ضَوْء قِرَاءَة: ﴿..وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ..﴾.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:

فَهْمُ القُرْآن في ضَوْء قِرَاءَة: (...فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنَ الْمَرَافِقِ...)[٣].

ذَهَبَ القُمِّيّ إلى أنَّ غَسْلَ الْيَدين يَبْدأُ مِنَ المِرْفَقين، وَقَدْ فَهِمَ ذلك مِنَ النَّصّ القُرآنيّ؛ اسْتِنَادًا إلى أنَّ (إلى) بِمَعْنَى (مِنْ)؛ وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذلك قولُهُ: «يَعْني: مِنَ المَرَافِقِ»[٤].

وعلى وَفْق هذه الدَّلالة يكونُ النّصُّ القرآنيُّ قد حدَّد بداية غَسْل الأيدي من المرافق. والقُمِّيّ إنَّما ذهب إلى هذا الرّأي؛ لأنَّه تبنّى قاعدة: (فَهْم القرآن في ضوء القراءة القرآنيَّة)، المنقولة لنا عن طريق (الأخبار)، فهو رائد من روّاد الاتجاه الإخباريّ، وهو المنهج السّائد في القرون الهجريّة الأولى، فقد روى الكُلينيّ: أبو جعفر، ثقة الإسلام محمَّد بن يعقوب (ت/٣٢٩هـ) عن: محمَّد بن الحسن وغيره، عن سهْل بن زياد، عن عمَّار بن الحكم، عن الهَيْثَم بن عُروَة التَّميميّ، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام - يعني الإمام الصَّادق عليه السلام - عن قوله تعالى: ﴿...فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...﴾[٥] فقلت: هكذا؟، ومسحتُ من ظَهر كفّي إلى المرفق فقال: «ليس هكذا تنزيلها، إنَّما هي فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنَ الْمَرَافِقِ»، فقام، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ مِنْ مِرْفَقِه إلى أَصَابِعه»[٦].

وقد أورد الشَّيخ الطّوسي: أبو جعفر، شيخ الإسلام محمّد بن الحسن (ت/٤٦٠هـ) الخبرَ نفسَهُ عن الشّيخ الكُلينيّ بواسطة، إذ قال: عن أبي القاسم، جعفر بن محمّد، عن محمّد بن يعقوب - أي: الشّيخ الكُلينيّ - عن محمّد بن الحسن وغيره، عن سهْل بن زياد، عن عليّ بن الحكم، عن الهَيثم بن عُروَةَ التَّميميّ، ثم أوردَ الخبرَ[٧]، إلّا أنَّ الشّيخَ الطّوسيَّ على وَفْق منهجه في كتابه (التّهذيب) الّذي قدّم فيه خدمةً جليلةً لمذهب أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّ ممّا بُني عليه هذا

الكتاب بيان نوع أسانيد الحديث؛ وممّا يؤيّد ذلك قوله: «...أذكرُ وجهَ الفَساد - أي: في الأحاديث - إمّا من ضعف إسنادها...»[٨] بيّن أنَّه حديثٌ ضعيفٌ سنداً[٩].

وممّا يؤيّد ذلك أنَّه وضع بجنبه من جهة اليمين (ضع)، وهو ممّا يُرمَز به عنده للحديث (ضعيف السّند)[١٠]. ولما كان الحديث ضعيفًا سندًا؛ لذا نجد الشّيخ الطّوسيّ لم يستند إلى هذه القراءة الّتي جاءَتْ في متن الحديث في تأييد ما ذهبتْ إليه الإماميَّة من أنَّ غَسل اليدين - في الوضوء - يبدأ من المرفق إلى أطراف الأصابع؛ وممّا يؤيّد ذلك قوله: «وعلى هذه القراءة - يعني: (مِنَ الْمَرَافِقِ) - يَسْقُطُ السّؤال من أصله»[١١]، وهو سؤالٌ افتراضيّ افترضه الشّيخُ الطّوسيُّ - على طريقة: فإن قيل، قلنا - أي: فإن قيل مِنَ المعترضين على بدء الإماميّة بغَسْل المرفق: كيف يمكنكم القول بأنَّ غَسْل اليدين يبدأ من المرفق إلى أطراف الأصابع؟، وهو قول بخلاف ظاهر القرآن؛ بناءً على أنَّ (إلى) بمعنى الانتهاء والغاية - عندهم - والقول بهذا يتطلّب أن يكون المرفق غايةً في الوضوء، لا أنْ يكونَ المُبْدَأ به؟[١٢].

وواضح من تعاطي الشّيخ الطّوسيّ مع هذه القراءة أنَّه استند إليها بوصفها أصلاً دافعًا (نافيًا) - أيْ: أصل ينفي بمقتضاه أنْ يكونَ المرفق غايةً - لا أصلاً مثبتًا، أي: لم يستند إليه لإثبات أنَّ غَسْل اليَدين يبدأ من المرفق؛ لأنَّ الإماميّة لهم موقفٌ موحَّدٌ من القراءات اتّبعُوا فيه نَهْجَ عليهم السلام، ولا سيّما الإمامان الباقران الصّادقان، فقد روي: عن الحُسين بن محمّد، عن عليّ بن محمّد، عن الوَشّاء، عن جَميل بن دَرّاج، عن محمّد بن مسلم، عن زُرَارة، عن الإمام أبي جعفر الباقر صلى الله عليه وآله، قال: «إنَّ الْقُرْآنَ وَاحِدٌ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّ الاخْتِلَافَ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الرُّوَاةِ»[١٣]، وقد روي: عن عليّ بن

إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَير، عن عُمَر بن أُذَيْنَة عن الْفُضيل بن يَسَار، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ النّاسَ يَقُولُونَ: إنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَة أَحْرُف، فَقَالَ: «كَذبُوا أَعْدَاءَ الله، وَلَكنَّه نَزَلَ عَلَى حَرْف وَاحد مِنْ عنْد الْوَاحد»[١٤].

وقد استند في إثبات ما ذهب إليه إلى اللُّغة، والسُّنَّة النَّبويَّة.

وقد سار الرَّاونديّ: أبو الحسن، قُطْب الدّين سعيد بن هبة الله (ت/٥٧٣هـ) - وهو من فقهاء مَدْرَسة بغداد الفقْهيَّة أيضًا - على مِنْوَال الشَّيخ الطّوسيّ في الاستناد إلى القراءة المذكورة آنفًا في إبطال مُدَّعَى مَنْ ذهب إلى أنَّ (إلى) بمعنى الغاية؛ وممَّا يؤيّد ذلك قوله: «ويؤكّد ذلك قراءَة أهل البيت عليهم السلام: فَاغْسلُوا وُجُوهَكُمْ مِنَ الْمَرَافق»[١٥].

وفي هذا تأكيد لما ذهبْتُ إليه من أنَّ فقهاء الإماميّة - من أصحاب الاتّجاه الاجتهاديّ - يستندُونَ إلى القراءة بوصفها أصلًا نافيًا لما ذهبَ إليه الخَصْمُ، لا أصلًا مثبتًا لما ذهبوا إليه.

ويمكن حمل هذه الرّواية - على مبنى أصحاب الاتجاه الاجتهاديّ - أنّها في معرض بيان الغَسْل، لا في معرض تحديد دَلَالة (إلى) في النّص القُرْآنيّ؛ وممَّا يُؤيّد ذلك - على وَفْق رواية الشّيخ الكُلينيّ، لا على وَفْق رواية الشّيخ الطّوسيّ في التّهذيب؛ لأنَّ ما استشهدَ به لم يذكرْ في رواية الشّيخ الطّوسيّ - أنَّ الهَيْثَم بن عُرْوَةَ التَّميميّ لم يسأل الإمام الصّادق عليه السلام عن النَّصّ القرآنيّ المذكور آنفًا كيف يُقْرَأُ؟، وَإنَّما سأله عن بيان التّطبيق، أي: سألَهُ عن كيفيّة غَسْل اليدين من النَّاحية العمليَّة؛ وممَّا يؤيّد ذلك قوله الذي ورد بصيغة سؤال، إذ قال: (هَكَذَا - أي: أَهَكَذَا الغَسْلُ؟ ثمّ أجْرَى أمامه عمليًّا الغَسْل المُسْتَفْهَم عن بيان صحّته، من عدمها، إذ قال: (ثُمَّ مَسَحْتُ مِنْ ظَهْرِ كَفّي إلَى المِرْفَق)، فجاءَ البيانُ من

الإمام الصّادق عليه السلام مُوَضّحًا له أَنَّ الغَسْل يَبْدَأُ مِنَ المِرْفَق، إذ قال: «ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ مِنْ مِرْفَقِه إِلَى أَصَابِعه» وهو ما يمكن الإفادة منه أَنَّ غَسْل اليدين يبدأ من المِرْفق، أي: إنَّ الإفادة حاصلةٌ من النّصّ الرّوائيّ (البياني)، لا من النّصّ القرآنيّ.

وأما قوله عليه السلام: (ليس هكذا تنزيلها)، فيمكن حمله على أنَّ النّزول يقتضي تطبيق البدء بالمرفق، لا الانتهاء به، أي: من النّاحية الإجرائيّة، لا في أصل القراءة.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الشّيخ الطّوسيّ قدْ ضعَّفَ سند الرّواية في التّهذيب[16].

ثمَّ جاء بما يعارضها في الخلاف؛ إذ ذكر أنَّ (إلى) في الآية الكريمة المباركة بمعنى (مع) عند أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ وممَّا يؤيّد ذلك قوله: «وقد ثبتَ عن الأئمة عليهم السلام أنَّ المراد بها- أي: المراد بـ (إلى)- في الآية: مع»[17].

وفي باب التّرجيح بينَ كون (إلى) بمعنى (مع)، و(إلى) بمعنى (من) نرجّح المعنى الأوّل؛ لأنَّه معنى ثابت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، بحسب دعوى الشّيخ الطوسيّ- وإنّما قلتُ دعوى؛ لأنَّ بعض فقهاء مدرسة الحلَّة الفقْهيَّة لم يتبنَّوا هذه الدَّلالة، فلو كانت ثابتةً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لما جاز لهم ذلك- في حين إنَّ المعنى الثّاني غير ثابت لأمور عدّة.

أمّا الأمر الأوَّل: فهو أنَّه قراءةٌ غيرُ ثابتة وردت في متن حديث مرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام.

وأمّا الأمر الثّاني: فهو أنَّ الحديث الذي تضمّن متنه القراءة حديث ضعيف من جهة السَّند.

وأمّا الأمر الثّالث: فهو أنَّ هذه القراءة - لو غُضَّ النّظر عن سندها- قابلة للتّأويل، وهو الحقُّ؛ وممَّا يؤيّد ذلك قول صاحب الجواهر (ت/١٢٦٦هـ)، إذ قال: «قد يقال: المراد بالتّنزيل التّأويل، كما يقال: يمكن تنزيله على كذا، فيكون مقصوده إرادة عدم الغَسل منكوسًا»[18].

وأمّا الأمر الرّابع: فهو أنَّ هذه القراءة وإنْ صحّت من جهة الدّلالة، فهي مَرْجُوحة، لا رَاجحة من جهة السّند، إنْ وُضِعَتْ قُبَالَة (إلى) بمعنى (مع)، لو سلّمنا بصدورها عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّ ما ثَبَتَ عنهم - في أقلّ تقدير على مَبْنَى الشّيخ الطّوسي - يُقَدَّمُ على ما لم يَثْبُتْ في باب التَّرْجيح.

وبعبارة أخرى: إنَّ (إلى) بمعنى (مع) مُعَارضَةٌ لدلالة (إلى) بمعنى (من)، وراجحة عليها؛ للأسباب المذكورة آنفًا، أما إذا قلنا بالتّأويل، ومقصوده إرادة عدم الغَسل منكوسًا، أو يراد بكون (إلى) بمعنى (مع) دخول المرفق، فلا ينافي جعلها بمعنى (من)[١٩].

وممَّا يجدُرُ ذِكْرُهُ: أن اللّغويّين قد ذكروا أنَّ الحرف (إلى) يأتي لـ (الابتداء)، أي: بمعنى (من) واستشهدوا له بقول الشّاعر ابن الأَحْمَر: عَمْرُو بن أحمد الباهليّ (من البحر الطّويل):

تَقُولُ وَقَدْ عَالَيْتُ بالكُورِ فَوْقَهَا
أَيُسْقَى فَلَا يَرْوَى إِلَيَّ ابْنُ أَحْمَرَا؟[٢٠].

والشّاهد فيه: (إليَّ)، أي: بمعنى (منّي)[٢١].

والمعنى: عندما أضع رَحْلي فوق ناقتي؛ استعدادًا للسَّفر، لسان حالها يقول: ما باله لا يشبع من السَّفر فوقي؟[٢٢].

وبعبارة أخرى: إنَّ الشَّاعر وصَفَ أنَّه يُتْعِبُ ناقته بطول السَّفر، فلو كانتْ ممّا يتكلَّم؛ لقالتْ هذه المَقالة[٢٣]، وعمومًا فمهما يكن من أمر، فعلى فرض إمكان تضمّنه هذا المعنى، فهو غير متحقّق هنا؛ لأنَّه إذا ثبت ورود معنى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فلا يُعدَلُ عنه لمعنى آخر، وإنْ كان مُحْتَمَلًا عندَ أهل اللّغة. وإن لم يَثْبُتْ المعنى (إلى) بمعنى (من) عن أهل البيت عليهم السلام، فقد ثَبَتَ في البيان الصّادر عنهم أنَّ الغسل يبدأ من المرفق. نعم قد يقال: إنَّ (إلى) تأتي بالمعنيين بمعنى (من)، وبمعنى (مع) رفعًا للتَّنافي[٢٤].

خُلَاصَةُ رأي الشّيخ القُمِيّ: إنَّ النّصّ القرآنيّ حدَّد بداية الغَسل مِن المِرْفق؛ بناءً على أنَّ (إلى) بمعنى (مِن)؛ استنادًا لقراءةٍ وردتْ في متنِ حديثٍ عن الإمام الصّادق عليه السلام، واستفيد منه أنَّ المِرفق داخلٌ في الغَسل؛ لأنَّ ابتداء

الغاية داخل في الغاية حتى عند من ينكر دخول الغاية[٢٥]، وهو رأي مَرْجُوحٌ، لا رَاجِحٌ كَمَا ثَبَتَ، عند حمل القراءة على الظَّاهر، أو عدم إرادة كون (إلى) بمعنى (مع) دخول المرفق.

وقد تبنّى القُمِيُّ المعنى الأوَّلَ، وقد أفاد ذلك من البيان الرّوائيّ، ومن المعلوم أنَّ الرّواية جاءت في معرض البيان، لا في معرض تحديد الدّلالة، وإن كان المعنى مما أقرّه اللّغويّون، وعلى وفق هذه الدّلالة يكونُ الابتداءُ بالمِرفق متحصِلاً من النّص القرآنيّ؛ وبناء على هذهِ الدّلالة، فهو داخل في الغسل؛ لأنَّ ابتداء الغاية داخل في الغاية.

المَبْحَثُ الثَّاني:

فَهْمُ القُرْآنِ فِي ضَوْءِ قِرَاءَةِ: ﴿...وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ...﴾[٢٦]

الفَرْعُ الأوَّلُ: الوُسْطَى: العَصْرُ

القراءة: (والصلاة الوسطى: صلاة العصر)، ومائز هذه القراءة أنها وردت من دون (واو)، ويفهم منها أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وهي قراءة ابن مسعود، وإحدى قراءتي حفصة وقراءة منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام، على التفصيل الآتي:

١- قرأ ابن مسعود[٢٧] - أبو عبد الرَّحمن، عبد الله بن مسعود الهُذليّ (ت/٣٢هـ)- ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى: صَلَاةِ العَصْرِ﴾[٢٨]، وبه قال أبو هُرَيْرَة: عبد الرَّحمن بن صَخْر الدّوُسِيّ (ت/٥٩هـ)، وأبو أَيُّوب: خالد بن زيد الأنصاريّ (ت/٥٢هـ)، وأبو سعيد الخُدْرِيّ: سعد بن مالك (ت/٧٤هـ)، وعبيدة السَّلْمانيّ: أبو عمرو، عبيدة بن عمرو الكوفيّ (ت/٧٢هـ)، والحسن البصريّ: أبو سعيد، الحسن بن يسار (ت/١١٠هـ)، والضَّحَّاك:

أبو القاسم، الضَّحَّاك بن مزاحم الهلاليّ (ت/١٠٢هـ)[٢٩]، وابن المُنْذِر: أبو بكر، الحافظ محمَّد بن إبراهيم (ت/٣١٩هـ) الَّذي حكاهُ عن أمير المؤمنينَ عليّ بن أبي طالب (ت/٤٠ هـ)[٣٠]، وبه قالَ أبو حنيفة: النعمان بن ثابت الكوفيّ (ت/١٥٠هـ)[٣١] - وأصحابه[٣٢] - وأحمد بن حنبل: أبو عبد الله، أحمد بن محمَّد الشَّيبانيّ الهذليّ (ت/٢٤١هـ)[٣٣] من المَذاهب الإسلاميَّة، وهو المرويّ عن أمير المؤمنينَ عليّ بن أبي طالب عن طريق مَدْرَسة الصَّحابة[٣٤].

٢- قراءة حفصة/ الزمخشري

٣- ذكرَ القُمِيُّ أَنَّ الصَّلاةَ الوُسْطَى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٣٥] هي صلاةُ العَصْرِ عَنِ الإِمَامِ الصَّادق (ت/١٤٨هـ)[٣٦].

ولعلَّ أوَّل من تبنَّى ذلكَ مِنَ الْإِمَامِيَّة هُوَ الشَّيخُ القُمِيّ- بحسب تتبُّعي- وَمِمَّا يجدُرُ ذكرهُ أَنَّ مُسْتَنَدَ رَأْيِ الشَّيْخِ القُمِيَ قِرَاءَةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَى وَفْقِ مَا رَوَاهُ هُوَ نَفْسُهُ- أَي: القُمِيُّ- عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْد، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الإِمَامِ الصَّادِقِ أَنَّهُ قَرَأَ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى: صَلَاةِ العَصْرِ وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ»[٣٧].

٤- وتبنَّى الشَّريف المرتضى: أبو القاسم، علم الهدى عليّ بن الحسين (ت/٤٣٦هـ) ما تبنَّاه الشَّيخ القُمِيّ، واستدلَّ على مبناه بالإجماع، وقراءة ابن مسعود[٣٨].

الفَرْعُ الثَّاني: الوُسْطَى: الظُّهْرُ

القراءة: (والصلاة الوسطى وصلاة العصر)، ومائز هذه القراءة أنها وردت بـ(واو)، ويفهم منها أن الصلاة الوسطى هي صلاة الظُّهرُ، وهي قراءة عائشة، وإحدى قراءتي حفصة، وقراءة ابن عباس، وقراءة منسوبة إلى الإمام الصادق، على التفصيل الآتي:

١- رَوَى أَبُو دَاوُد: سليمان بن الأشعث الأزديّ السّجستانيّ (ت/٢٧٥هـ)، وَالتِّرْمِذِيُّ: أبو عيسى، محمَّد بن عيسى بن سَوْرة (ت/٢٧٩هـ)، عَنْ عَائِشَة بنت

أبي بكر التَّيميَّة (ت/٥٨هـ) عَنْ رَسُولِ الله (ت/١١هـ) أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى وَصَلَاةِ العَصْرِ وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾[٣٩].

٢- عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس- مولى عائشة زوج النبي ﷺ- قال: «أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فاكتب «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»، ثمَّ قالت عائشة: سمعتها والله من رسول الله ﷺ»[٤٠].

٣- عن زيد بن أسلم، عن عمرو بن نافع، قال: «كنت أكتب مصحف حفصة- زوج النبي ﷺ- فقالت: إذا بلغت هذه الآية فاكتب «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»[٤١].

٤- وَرُوِيَت الرِّوَايَةُ نفسُهَا عَنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاس: أبي العبَّاس، عبد الله بن عبَّاس بن عبد المطَّلب -ابن عمّ النَّبيّ- (ت/٦٩هـ)[٤٢].

٥- روى العيَّاشيّ: (ت/٣٢٠هـ)عن محمَّد بن مسلم عن أبي جعفر الإمام الباقر (ت/١١٤هـ) قال: قلت له الصَّلاة الوسطى، فقال: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى وَصَلَاةِ العَصْرِ وَقُومُوا لله قَانِتِينَ»، والوُسْطَى هِيَ الظُّهْرُ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا رَسُولُ الله[٤٣].

٥- هَذِه القِرَاءَةُ -وإنْ كانتْ شَاذَّةً[٤٤] ولَا يُعْتَدُّ بِهَا- إلَّا أَنَّ ابْنَ طَاوُس الحِلِّيّ: أبا القاسم، رضيُّ الدِّين عليُّ بنُ طاوُس(ت/٦٦٤هـ) استند إليها في إثباتِ كونِ الصَّلاة الوُسْطَى صلاة الظُّهْر؛ استنادًا إلى العَطفِ الوَارد في الرِّوايةِ، الَّذي يقتضي المغايرة، وبعبارة أخرى: لمَّا كانَتْ صلاةُ العَصرِ معطوفةً على الصَّلاةِ الوُسْطَى؛ لذا فهي غيرها[٤٥]، وتابَعَهُ المُحَقِّقُ الحِلِّيُّ: أبو القاسم، جعفر بن الحَسَن (ت/٦٧٦هـ)، في هذا المبنى، وأعادَ صياغتَهُ مِنْ وجهةِ نظرٍ لُغَوِيَّةٍ -نَحْوِيَّةٍ- وَخُلَاصَتُهُ: الوَاو -في (وَصَلَاةِ العَصْرِ) - للعَطْف، والعطفُ يقتضي المغايرَةَ، ورفضَ أَنْ يُقَالَ: إنَّها زائدةٌ؛ لأَنَّ الزِّيادةَ منافيةٌ للأَصْل، فَلَا يُصَارُ إِلَيْهَا إلَّا لموجبٍ[٤٦]، وَهُوَ مُنْتَفٍ،

وتابَعَهُ العَلَّامَةُ الحِلّيُّ: أبو منصور، الحَسَن بن يُوسُف بن المُطَّهَر (ت/٧٢٦هـ) فيمَا قالَ، وانتهى إِلَى أَنَّ الواو للعطفِ عَلَى بَابِهَا[٤٧]، وَثُبُوتُ الوَاوِ للعطفِ لازمُهُ أَنْ تَكُونَ الصَّلاةُ الوسطى صلاةً أخرى غير صلاةِ العَصرِ، فمَنْ تَمَسَّكَ بكونِهَا صلاةَ العصرِ، لا يصحُّ له الاستدلالُ بهذهِ القراءةِ، ويُطالبُ بدليلٍ آخر.

٦- يتضح مما تقدم أنَّ هذه القراءة التي تمسك بها فريق من مدرسة الصحابة، وفي ضوئها تبنوا أنَّ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، بحيث أضحى ذلك الرأي مشهورًا عندهم فهم منها فريق من فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام أنَّها صلاة الظهر، لا صلاة العصر، قال الشيخ الصدوق: «فهذه الأخبار - يعني المروية عن عائشة وحفصة- حجة لنا على المخالفين»[٤٨]؛ لدلالتها على أنَّ الصلاة الوسطى هي صلاة الظهر، ولعل أول من قال بهذا الرأي الشيخ الطوسي، وادعى عليه الإجماع، ثمَّ أصبح مشهورًا، وتؤيده الروايات الصحيحة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فقد روي عن أبي بصير أنَّه قال: سمعت أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام يقول: صلاة الوسطى صلاة الظهر، وهي أول صلاة أنزل الله على نبيه»[٤٩].

الخَاتِمَةُ وَنَتَائِجُ البَحْث:

ما خلصت إليه من بحثي هذا، يمكن أن أوجزه بما يأتي :

١- إن المتحصل من القراءة القرآنية فهم. فإن كانت القراءة اجتهادا، فهي قاعدة من قواعد فهم النص القرآني المندرجة تحت العقل، وإن كانت القراءة أخبار آحاد، فهي قاعدة من قواعد فهم النص القرآني المندرجة تحت السُّنَّة (الظَّنيَّة)، وإنْ كانَتْ (متواترة)- على مبنى من يرى ذلك، وهو مبنًى فيه نَظَر- فالقراءة قاعدة من قواعد فهم النص القرآني المندرجة تحت السُّنَّة (القطعيَّة)، فإن كان طريقها واردا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فهي تقع ضمن دائرة التلازم المعرفي بين القرآن والعترة الطاهرة عليهم السلام.

٢- إنَّ الفهم يتعدد؛ والتعدد راجع لتعدد القراءة تارة، فعلى هذا المستوى القراءة متعددة، وتبعا لهذا التعدد تأتي الأفهام، أو الفهوم متعددة، وتارة تكون الفهوم متعددة داخل القراءة الواحدة، فالتعدد راجع لمستويات الفهم، ولطبيعة القراءة الواحدة تارة أخرى.

وهو أمر ناتج من تحليل القراءة، على وفق توظيف قواعد الفهم التي نتاجها هذا التعدد.

٣- هناك فرق بين التفسير والفهم، فالتفسير هو ما كان واحدًا لا متعددا، أو المفروض أن يكون كذلك، في حين إنَّ الفهم هو ما كان متعددا، فالفهم يماثل التأويل في هذا الأمر، وبعبارة أخرى: إنَّ الفهم متعدد، مثلما أنَّ التأويل متعدد، ومثلما أنَّ التأويل إن صدر عن المعصوم صار تفسيرا، فالفهم كذلك إن صدر عن المعصوم صار تفسيرا أيضا؛ لأنَّ فهم المعصوم علمٌ، نعم سجل القرآن تعدد الفهم الصادر عن المعصومين عليهم السلام، في باب الأحكام، فهناك حكم مشدد، وهناك حكم مخفف، فالأول ناظر إلى الجرم، وناظر إلى تعويض المتضرر، والثاني ضم لهما النظر إلى طبيعة المجرم، أو المسؤول عن الجرم، وهذه صورة من صور الرقي والحضارة. يقدمها القرآن في أنصع تجلياتها، قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٥٠].

المَصَادِر وَالمَرَاجِع:

* القرآنُ الكريمُ

١. أَوَّلًا: المَصَادِرُ القَدِيمَةُ

٢. ابن أَحْمَر: أبو الخطّاب، عمرُو بن أحمد الباهليّ (ت/٧٥هـ)

- شعر عمرو بن أحمر الباهليّ، جمع وتحقيق / د . حُسين عَطْوان / منشورات: مَجْمَع اللّغة العربيّة بدمشق / دمشق، د . ت .

٣. البَيْهَقِيُّ: أبو بكر، أحمدُ بنُ الحسين (ت/٤٥٨هـ)

- السُّنَنُ الكُبْرَى المعروفةُ بـ (سُنَنِ البَيْهَقِيّ)، تح: محمَّد عبد القادر عطا / ط٣، دار الكتب العلميَّة / بيروت، ١٤٢٤هـ

٤. التِّرْمِذِيّ: أبو عيسى، محمَّد بن عيسى بن سَوْرَة الضَّحَّاك السَّلَمِيّ (ت/٢٧٩هـ)

- الجامع الكبير، المعروف بـ (سُنَن التِّرْمِذِيّ)، تح: بشار عواد معروف / دار الغَرب الإسلاميّ، د. ط / بيروت، ١٩٩٦م.

٥. الحِلّيّ (العلَّامة): الحسن بن يوسف بن المُطَهر (ت/٧٢٦هـ).

-تذكرة الفقهاء، تح: مؤسَّسة آل البيت لإحياء التُّراث / ط١، مطبعة مهر، منشورات: مؤسَّسة آل البيت لإحياء التُّراث/ قم المشرَّفة، ١٤١٤هـ

-منتهى المَطْلَب في تحقيق المَذْهب، تح: قسم الفِقْه في مَجْمَع البحوث الإسلاميَّة / ط٥، منشورات: مَجْمَع البحوث الإسلاميَّة / مَشْهد المشرَّفة، ١٤٢٩هـ.

٦. الحِلّيّ (المُحَقّق): أَبُو القاسم، نجم الدّين جعفر بن الحسن (ت/٦٧٦هـ)

-المُعْتَبر في شرح المختصر /ط١، مؤسَّسة التَّاريخ العربيّ/ بيروت، ١٤٣٢هـ

٧. أَبُو داوُد: سليمان بن الأَشعث الأَزْدِيّ السّجِسْتَانِيّ (ت/٢٧٥هـ)

-سُنَنُ أَبِي داوُد، تح: محمَّد مُحْيي الدّين عبد الحَميد/ منشورات: المكتبة العصريَّة/ بيروت، د.ت.

-الرَّاونديّ: أبو الحسن، قطب الدّين سعيد بن هبة اللهـ (ت/٥٧٣هـ)

-فِقْه القُرْآن، تح: أحمد الحسينيّ / ط٢، مطبعة الولاية، منشورات: مكتبة آية الله المرعَشيّ النَّجفيّ العلامّة / قم المشرَّفة، ١٤٠٥هـ

٨. الزَّمخشريّ: أَبو القَاسِم، جَار الله مَحْمُود بْنُ عُمَر (ت/٥٣٨هـ)

-الكشَّاف عن حَقَائِق غَوامِض التَّنْزِيل وَعُيُون الأَقَاوِيل في وجُوه التَّأْوِيل، تح: محمَّد عبد السَّلام شاهين/ ط٤، دار الكتب العلميَّة/ بيروت، ١٤٢٧هـ

-الكشَّاف عن حَقَائِق غَوامِض التَّنْزِيل وَعُيُون الأَقَاوِيل في وجُوه التَّأْوِيل، تح: د. عبد الرَّزَّاق المهدي / ط١، دار إحياء التُّراث العربيّ / بيروت، ١٤٣٧هـ

٩. السَّرخَسِيّ: شَمْسُ الأَئِمَّة محمَّد بن أَبِي سَهل (ت/٤٩٠هـ)

-المَبْسُوط/ دار المعرفة، د. ط / بيروت، ١٤١٤هـ

١٠. الصَّدوق: أبو جعفر، محَّمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القُمِيّ (ت/٣٨١هـ)

-معاني الأَخبار، تح: عليّ أَكبر الغَفَّاريّ/ ط١، منشورات: مؤسَّسة الأَعلميّ للمطبوعات/ بيروت، ١٤١٠هـ

-معاني الأخبار / ط١، دار المرتضى/ بيروت، ١٤٢٩هـ

١١. ابْنُ طَاوُس: أَبُو القَاسِم، رضيُّ الدّين عليُّ بْنُ موسى (ت/٦٦٤هـ)

-فلاحُ السَّائلِ ونجاحُ المَسائلِ في عملِ اليَوْمِ وَاللَّيلةِ، تح: غلام حُسَيْن المَجيديّ/ منشور ضمن موسوعة آل طاوُس (مؤتمر آل طاوُس الحِلّي)/ د.ط / د.ت.

١٢. الطُّوسِيّ: أبو جَعْفَر، شيخُ الطَّائفةِ محمَّد بن الحَسَن (ت/٤٦٠هـ)

-تهذيب الأحكام، تح: عليّ أكبر الغفَّاريّ / ط١، مطبعة مروى، منشورات: دار الكتب الإسلاميّة / طهران، ١٣٨٥هـ

-الخِلَاف، تح: عليّ الخُرَاسانيّ، جَوَاد الشّهرستانيّ، مهدي نَجَف / ط٤، منشورات: مؤسَّسة النَّشر الإسلاميّ / قم المشرَّفة، ١٤٢٩هـ

١٣.العامليّ (الحُرّ): محمَّد بن الحسن بن عليّ (ت/١١٠٤هـ)

-وسائل الشّيعة إلى تحصيل مسائل الشَّريعة / ط، عين الدّولة/ قم المشرَّفة، ١٣٢٤هـ

١٤. العامليّ (الحُرّ): محمَّد بن الحَسَن بن عليّ (ت/١١٠٤هـ)، حُسَيْن النُّوريّ (ت/١٢٢٠هـ)

-وسائل الشّيعة ومستدرَكُها / ط٢، مُؤَسَّسة النَّشر الإسلاميّ / قم المشرَّفة، ١٤٣٤هـ

١٥. ابن العَتائقيّ: كمال الدّين عبد الرَّحمن بن محمَّد بن إبراهيم الحِلّيّ (ت/٧٩٠هـ)

-مختصر تفسير القمي، تح: محمَّد جَوَاد الحُسَيْنيّ الجَلَالِيّ / ط، مطبعة دار الحديث / منشورات: مركز بحوث دار الحديث / قم المشرَّفة، ١٤٣٢هـ

١٦. العَيَّاشِيّ: أَبُو النَّصْر، محمَّد بن مسعود ابن عَيَّاش السَّلَمِيّ السَّمَرْقَنْدِيّ (ت/٣٢٠هـ)

-تفسير العَيَّاشِيّ، تح: هاشم الرَّسُولِيّ المُحَلَّاتِيّ/ ط٢، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات/ بيروت، ١٤٣١هـ

١٧. ابن قُدَامَة المَقْدِسِيّ: أَبُو محمَّد، مُوَفَّق الدِين عبد الله بن أَحْمَد الدمشقيّ الحنبليّ (ت/ ٦٢٠هـ)

-الكافي في فِقْه الإِمَام أَحْمَد/ ط١،

دار الكتب العلميَّة/ بيروت، ١٤١٤هـ

١٨. القُرْطُبِيّ: أَبُو عبد الله، شَمْسُ الدّين، محمَّد بن أَحْمَد (ت/٦٧١هـ)

- الجَامعُ لِأَحْكَام القُرْآن، المعروف بـ (تفسير القُرْطبِيّ)، تح: أَحمد البَرْدُونِيّ، وإبراهيم أطفيش/ ط٢، دار الكتب المصريَّة/ القاهرة، ١٣٨٤هـ

١٩. القُمِيّ: أبو الحسن، عليّ بن إبراهيم بن هاشم (حيّ / ٣٠٧هـ)

- تفسير القُمِيّ، تح: مؤسّسة الإمام المهدي (عجَّل الله فرجه الشَّريف)/ قم المشرَّفة، ١٤٣٨هـ

• الكُلَيْنيّ: أبو جعفر، ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب (ت/٣٢٩هـ)

- الكافي / ط١، منشورات: الفجْر / بيروت، ١٤٢٨هـ.

- الكافي، تح: عليّ أكبر الْغَفّاري / ط٤، المطبعة حيدري، منشورات: دار الكتب الإسلاميّة / طهران، ١٣٦٥ش .

• المجلسي: محمَّد باقر (ت/١١١١هـ)

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تح: لَجنة من العلماء/ منشورات: دار إحياء التراث العربي/ بيروت، د. ت.

• المُرْتَضَى (الشَّريف): أَبُو القَاسم، علم الهدَى عليّ بْنُ الحُسَيْن (ت/٤٣٦ هـ)

- رسائل الشَّريف المُرْتَضَى (المجموعة الأولى)، تح: أحمد الحُسَيْنِيّ/ منشورات: مؤسَّسة النُّور للمطبوعات، د. ط/ بيروت، د. ت.

٢٠. هاشِم البّحرانيّ: أبو المكارم، هاشم بن سليمان الموسويّ الكَتكَاني التوْبلي (ت/١١٠٧هـ)، وقيل: (ت/١٠٩هـ)

- البُرهان في تفسير القرآن، تح: لُجنة من العلماء والمحقّقينَ الاختصاصيّينَ/ ط٢، منشورات: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت، ١٤٢٧هـ

• ابن هشام الأنصاريّ: أبو محمَّد، جمال الدّين عبد اللّه بن يوسف (ت/٧٦١هـ)

- مُغْني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، تح: أبو عبد الله، عليّ عاشور الجَنوبيّ / بيروت، ١٤٢٨هـ

٢١. المَرَاجِعُ الحَدِيثَةُ

٢٢. أَحمد مختار عُمَر (الدَّكتور)،

عبد العال سالم مُكْرَم(الدُّكتور).

-معجم القراءات القرآنيَّة / ط٢، مطبعة الأُسوة، منشورات: دار الأُسوة للطّباعة والنَّشر/ طهران، ١٤٢٦هـ

• محمَّد حسَن النَّجَفِيّ (ت/١٢٦٦ هـ)

-جَواهر الكلام في شرح شَرائع الإسلام، تح: مؤسَّسة النَّشر الإسلاميّ التَّابعة لجماعة المدرّسينَ / قم المشرَّفة، ١٤٣٣هـ

• رابعًا: البُحُوثُ وَالمَجَّلاتُ

• جَبَّار كَاظِم المُلَّا (الدُّكْتُور)

-دَلَالَةُ إِلَى فِي (آيَة) الوُضُوءِ قِرَاءَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ فِي مَبْنَى الشَّيْخ القُمِيّ وَنَقْد الشَّيخ ابْنِ العَتَائِقِيّ لَه (بحث) / منشور في مجلَّة المحقّق التي يُصْدِرُها مركزُ العَلَّامَةُ الحِلّيّ، التَّابعُ للعَتَبَة الحُسَيْنِيَّة المُقَدَّسَة، العدد:٤ / الحِلَّةُ المُشَرَّفَةُ، ١٤٣٩هـ

• سكينة عزيز الفَتْلِيّ (الدُّكْتُورة)

-التَّفسير الفِقْهِيّ عند الشَّيخ ابن العتائقيّ قراءة نقديَّة في فِقْه العبادات (بحث) / منشور في مجلَّة المحقّق التي يُصْدِرُها مركزُ العَلَّامَةُ الحِلّيّ، التَّابعُ للعَتَبَة الحُسَيْنِيَّة المُقَدَّسَة، العدد:٥/ الحِلَّةُ المُشَرَّفَةُ، ١٤٣٩هـ

• خَامِسًا: مُقَدَّمَاتُ الكُتُبِ

• عليّ أكبر الغفّاريّ

-مقدّمة كتاب (تهذيب الأحكام) للشّيخ الطّوسيّ، تح: عليّ أكبر الغفّاريّ/ ط١، مطبعة مروى، منشورات: دار الكتب الإسلاميّة / طهران، ١٣٨٥هـ.

الهوامش:

(١) ظ: د. جبَّار كاظم المُلَّا / دلالة (إلى) في آية الوُضُوءِ (بحث) / ٥٣- ٨٦.

(٢) ظ: د. سكينة عزيز الفَتْلِيّ / التَّفسير الفِقْهيّ عند الشَّيخ ابن العتائقيّ (بحث) / ٢١- ٦١.

(٣) الكليني / الكافي، ٣ / ٢١، الحر العاملي / وسائل الشيعة، ١ / ٢٨٥ .

(٤) ابن العتائقي / مختصر تفسير القمي / ١٣٩ .

(٥) المائدة / ٦.

(٦) الكليني / الكافي، ٣ / ٢١، الحر العاملي / وسائل الشيعة، ١ / ٢٨٥ .

(٧) الطّوسيّ / تهذيب الأحكام، ١ / ٦٠ -٦١ .

(٨) المصدر نفسه ١ / ٢ (مقدّمة المؤلّف) .

(٩) المصدر نفسه ١ / ٦٠ .

(١٠) عليّ أكبر الغفّاريّ / مقدّمة كتاب (تهذيب الأحكام) للشّيخ الطّوسيّ، ١ / ٢١ .

(١١) الطوسي / تهذيب الأحكام، ١ / ٦١ .

(١٢) المصدر نفسه ١ / ٥٩ .

(١٣) الكُلَيني / الكَافِي، ٢ / ٦٣٠ .

(١٤) المصدر نفسه ٢ / ٦٣٠ .

(١٥) الرّاونديّ / فِقْه القُرْآن، ١/ ١٥. هاشِم البَحْرَانيّ / البُرْهان في تَفْسِير القُرْآن، ٢ / ٤٠٨ .

(١٦) ظ: الطّوسيّ / تهذيب الأحكام، ١ / ٦٠ -٦١.

(١٧) الطوسي / الخلاف، ١ / ٧٨ .

(١٨) محمد حسن النجفي / جواهر الكلام، ٢ / ٢٨٨.

(١٩) المصدر نفسه ٢ / ٢٨٨ .

(٢٠) ديوان ابن الأحمر / ٨٤ .

(٢١) ابن هشَام الأنصاري/ مُغْنِي اللَّبيب، ١/ ٦٧.

(٢٢) الأشموني / شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك، ٢ / ٧٤.

(٢٣) ابن الأحمر/ ديوان ابن الأحمر / ٨٤ (الهامش).

(٢٤) محمد حسن النجفي / جواهر الكلام، ٢ / ٢٨٨.

(٢٥) المصدر نفسه ٢ / ٢٨٨.

(٢٦) الحرّ العامليّ/ وسائل الشّيعة، ٣ / ٦.

(٢٧) رسائل الشَّريف المرتضى (المجموعة الأولى)، ١ / ٢٧٥.

(٢٨) الحرّ العامليّ / وسائل الشّيعة، ٣ / ٦.

(٢٩) القرطبيّ / الجامع لأحكام القرآن، ٣ / ٢١٠، العَلَّامَة الحِلّيّ / منتهى المطلب، ٤ / ١٨٣.

(٣٠) العَلَّامَة الحِلّيّ / تذكرة الفقهاء، ٢ / ٣٨٨.

(٣١) السَّرخسيّ / المبسوط، ١/ ١٤١، المحقّق الحِلّيّ / المعتبر، ٢ / ٥٢، العَلَّامَة الحِلّيّ / منتهى المطلب، ٤ / ١٨٣.

(٣٢) القرطبيّ / الجامع لأحكام القرآن، ٣ / ٢١٠، العَلَّامَة الحِلّيّ / منتهى المطلب، ٤ / ١٨٣.

(٣٣) ابن قدامة المقدسيّ / الكافي، ١ / ١٢١، المحقّق الحِلّيّ / المعتبر، ٢ / ٥٢، العَلَّامَة الحِلّيّ / منتهى المطلب، ٤ / ١٨٣.

(٣٤) البيهقي / السُّنن الكبرى، ١ / ٤٦١، العَلَّامَة الحِلّيّ / منتهى المطلب، ٤ / ١٨٣.

(٣٥) البقرة / ٢٣٨ .

(٣٦) القُمِيّ / تفسير القُمِيّ، ١/ ١٢١ (تح: مؤسَّسة الإمام المهدي)، ابن العتائقيّ / مختصر تفسير القُمِيّ، ١/ ٨٧.

(٣٧) القُمِيّ / تفسير القُمِيّ، ١ / ١٢١، الطُّوسيّ / تهذيب الأحكام، ٢ / ٢٤١، الحرّ العاملي / وسائل الشيعة، ٣ / ٥، المجلسيّ / بِحَارُ الأَنْوَارِ، ٧٩ / ٢٨٦.

(٣٨) رسائل الشَّريف المرتضى (المجموعة الأولى)، ١ / ٢٧٥.

(٣٩) أبو داوُد / سنن أبي داوُد، ١ / ١١٢، التِّرْمِذِيّ / سنن التِّرْمِذِيّ، ٥ / ٢١٧.

(٤٠) الصَّدوق / معاني الأخبار / ٣١٣.

(٤١) المصدر نفسه / ٣١٢.

(٤٢) الزَّمخشريّ / الكشَّاف (تح: . عبد الرَّزَّاق المهدي).

(٤٣) العَيَّاشيّ / تفسير العيَّاشِيّ، ١٢٧/١، الحر العاملي / وسائل الشيعة، ٤ /٢٢، المجلسيّ / بِحَارُ الأَنْوَارِ، ٢٨٨/٧٩ .

(٤٤) ظ: المجلسيّ / بِحَارُ الأَنْوَارِ، ٧٩ / ٢٨٥، د. أحمد مختار عمر، د. عبد العال سالم مُكْرَم / معجم القراءات القرآنيَّة، ١ / ١٨٥.

(٤٥) ابْنُ طَاوُس / فلاحُ السَّائل / ١٨٩.

(٤٦) المُحَقّق الحِلّيّ / المعتبر، ٢/

٥٢ – ٥٣.

(٤٧) العَلَّامَةُ الحِلّيُّ/ منتهى المطلب، ٣ / ١٨٥.

(٤٨) الصَّدوق/ معاني الأخبار/ ٣١٣.

(٤٩) المصدر نفسه / ٣١٢.

(٥٠) الأنبياء / ٧٨ – ٧٩.

م. م. صلاح عوده عبد الأمير
م. م. زين العابدين عوده عبد الأمير

خلاصة البحث:

إن القرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأول لدى المسلمين عامة، فلا يخفى على أحدٍ ما لهذا الكتاب المقدس من منزلةٍ عظيمةٍ في نفوس المسلمين كلهم، فكان ومازال موضوعاً لكثير من الدراسات عنه، في مختلف جوانبه التشريعية والفكرية والاجتماعية واللغوية. وإن ما تناولوه من علومه وفنونه إن دلّ على شيء فإنما يدل على إعجازه وصدق معناه وجليل خطابه.

ومن بعض تلك الأسس التي نصوا عليها صراحة، ومن أهم القواعد التي أسست في ضوء مرويات المعصومين عليهم السلام: فضل القرآن، وإكرام القارئ، والتدبر والتلاوة...إلخ.

وتناول البحث القواعد المتعلقة بقارىء النص، وهذه الدراسة لبعض القواعد وليست استقراءً تامّا لجميعها، انطلاقاً من حديث الثقلين أحدهما أكبر من الآخر.

مقدمة:

إن هذه القواعد التي أسسها المعصوم عليه السلام، لبيان قدسية القرآن الكريم وكيفية التعامل معه؛ لأنه المصدر التشريعي الأول لدى المسلمين عامة فضلا عن كونه كلام الله -عزوجل- فلابد من معرفة كيفية التعامل والتعاطي مع هذ الكتاب المقدس.

فرضية البحث وإشكاليته:

لكي نفهم الكلام الإلهي وكيفية التعامل معه لابد من الرجوع إلى مجموعة من القواعد التي توفر إمكانية التعامل مع القرآن الكريم لأي شخص، وما هذا البحث إلا محاولة للكشف عن بعض الأسس والقواعد في ضوء مرويات أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله.

المبحث الأول:

القرآن الكريم والصلاة:

المطلب الأول:

القرآن الكريم والتعوذ:

أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ إذ لا يكاد يخلو الإنسان من وسوسته.

المقصد الأول:

التعوذ في الصلاة: وفيه:

أولاً: التعوذ لغة: قال الخليل الفراهيدي (ت١٧٥هـ) (رحمه الله): (عوذ: أعوذ بالله، أي: ألجأ إلى الله، عوذا وعياذا، ومعاذ الله: معناه: أعوذ بالله، ومنه: العوذة، والتعويذ، والمعاذة التي يعوذ بها الإنسان من فزع أو جنون)[١].

وقد فصل ابن فارس (ت٣٩٥هـ) (رحمه الله) في بيان معناه قائلاً: (عوذ) العين والواو والذال أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الالتجاء إلى الشيء ثم يحمل عليه كل شيء لصق بشيء أو لازمه قال الخليل(رحمه الله): تقول: أعوذ بالله جل ثناؤه أي ألجأ إليه تبارك وتعالى عوذا أو عياذا ذكر أيضا أنهم يقولون: فلان عياذ لك أي ملجأ، وقولهم: معاذ الله معناه أعوذ بالله وكذا أستعيذ بالله... والجمع عوذ)[٢].

وما يفهم من المعنى اللغوي أن الاستعاذة هي الاستجارة والالتجاء إلى الشيء، أي التجئُ إلى الله من شر الشيطان الرجيم، والمراد من الشيطان: (هو كل متمرد من الجن والأنس كما جاء في القرآن الكريم: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[٣] ... والمراد بالرجيم: المطرود من السماء المرمي بالشهاب الثاقب، وقيل المرجوم باللعنة)[٤].

ثانياً: الاستعاذة اصطلاحاً: هي قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن الكريم[٥].

المقصد الثاني: حكم التعوذ في الصلاة: قال المصنف(قدس سره): للقراءة سنتان سابقتان عليها هما[٦]:

إولاً- الاستفتاح، فإذا كبر المصلي

استحب له قبل القراءة أن يدعو بدعاء الاستفتاح، فيقول: (وجهت وجهي إلى آخره؛ لأن علياً عليه السلام قال: كان إذا استفتح النبي صلى الله عليه وآله كبر ثم قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياتي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٧]؛ لأنه عليه السلام أول مسلمي هذه الأمة، أما نحن فنقول: وأنا من المسلمين.

ثانياً- يستحب بعد دعاء الاستفتاح التعوذ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٨] ولأن النبي صلى الله عليه وآله كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٩]، وقول الصادق عليه السلام: ثم تعوذ من الشيطان الرجيم، ثم تقرأ فاتحة الكتاب[١٠]، وصورتها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأنه لفظ القرآن، ويجوز: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)[١١].

وفي منتهى المطلب: قال(قدس سره): (ويستحبّ التعوّذ أمام القراءة بعد التّوجّه وهو مذهب علمائنا أجمع ... لنا: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١٢] ... ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ في الحسن، عن الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام: (ثمَّ تعوّذ من الشيطان، ثمَّ اقرأ فاتحة الكتاب)[١٣]؛ ولأنّ وسوسة الشّيطان إنّما تعرض عند اشتغال العبد بالطّاعات، فيستحبّ التعوّذ منه دفعا لمفسدته)[١٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١٥]، قال الشيخ الطوسي(ت ٤٦٠هـ) (قدس سره) في مجمع البيان: (إذا أردت يا محمد صلى الله عليه وآله قراءة القرآن، فاستعذ بالله من شر الشيطان المرجوم المطرود الملعون، وهذا كما يقال: إذا أكلت فاغسل يديك، وإذا صليت فكبر، ومنه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[١٦]،

والاستعاذة: استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلل، وتأويله: استعذ بالله من وسوسة الشيطان عند قراءتك، لتسلم في التلاوة من الزلل، وفي التأويل من الخطل، والإستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة بلا خلاف، في الصلاة، وخارج الصلاة وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في لفظ الإستعاذة في أول الفاتحة)[١٧].

والظاهر من كلام المصنف(قدس سره) أنه يستحب التعوذ قبل القراءة في أول كل صلاة[١٨]، (في الفرائض والنوافل)[١٩]؛ لقول الإمام الصادق عليه السلام: (ثم تعوذ من الشيطان الرجيم ثم اقرأ فاتحة الكتاب)[٢٠]، والتعوذ مستحب في غير الصلاة وهو ظاهر كلام المصنف(قدس سره)، وهذا موافق لما ذكره الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)(قدس سره) في مجمع البيان وادعى الإجماع عليه في الخلاف قال: (يستحب أن يتعوذ قبل القراءة... دليلنا: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[٢١]، وهذا عام في جميع المواضع، وأيضا إجماع الفرقة)[٢٢].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو كان التعوذ واجب في الصلاة، لاحتمل وجوبه في غير الصلاة.

المطلب الثاني:

صور التعوذ وتكرارها في الصلاة:

المقصد الأول: صور التعوذ:

قال العلامة الحلي(قدس سره) للتعوذ صور[٢٣]:

أولاً- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثانياً- يستحب الإسرار بها ولو في الجهرية.

ثالثاً- يستحب التعوذ في الركعة الأولى خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢٤]، (وليس المراد كل آية بل قراءة واحدة، والصلاة كلها واحدة)[٢٥].

وفي نهاية الإحكام: (وصورتها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأنه لفظ القرآن، ويجوز: أعوذ بالله السميع

العليم من الشيطان الرجيم، ويستحب الإسرار ولو في الجهرية؛ لأنه ذكر مشروع بين التكبير والقراءة فسن فيه الإسرار كدعاء الاستفتاح عندهم، وإنما يستحب في الركعة الأولى خاصة؛ لأن الصلاة فعل واحد، فيكفي فيه الاستعاذة الواحدة كالتوجه؛ ولأنه عليه السلام كذا فعل)[٢٦].

وفي تحرير الأحكام قال(قدس سره): (... وصورته: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويجوز أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، قال الشيخ: ويستحب الإسرار به[٢٧]، التعوّذ مستحبّ في أوّل ركعة من الصلاة خاصّة، ولا يستحبّ في الباقي...)[٢٨].

وفي منتهى المطلب: (التعوّذ أن يقول: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم... لأنّه لفظ القرآن المجيد. ولو قال: أعوذ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، قال الشّيخ: كان جائزا، لقوله تعالى: ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾[٢٩]، الثّاني: قال الشّيخ: يستحبّ الإسرار به ولو جهر لم يكن به بأس[٣٠]، وفي رواية حنّان بن سدير قال: (صلّيت خلف أبي عبد الله عليه السلام فتعوّذ بإجهار، ثمَّ جهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم)[٣١].

الثّالث: يستحبّ التعوّذ في أوّل ركعة من الصّلاة خاصّة ثمَّ لا يستحبّ في باقي الرّكعات. وهو مذهب علمائنا لنا: القصد هو التعوّذ من الوسوسة وهو حاصل في أوّل الرّكعة فيكتفى به في الباقي...)[٣٢].

المقصد الثاني:

تكرار التعوذ وعدم تكرارها في الصلاة:

قال المصنف(قدس سره): (لو نسيه في الأولى لم يأت به في الثانية لفوات محله)[٣٣]، وفي منتهى المطلب: (لو تركها عمدا أو نسيانا حتّى قرأ مضى في قراءته ولا يعيدها ولا في الرّكعة الثّانية، لنا: فعل فات محلّه فيفوت بفواته كالاستفتاح)[٣٤].

ثم بين(قدس سره) قائلاً: (لو تركها عمدا أو نسيانا حتّى قرأ مضى في قراءته ولا يعيدها ولا في الرّكعة الثّانية)[٣٥]، أي البسملة في الصلاة.

وفي تحرير الأحكام: (ولو تركه عمداً أو نسياناً حتّى قرأ مضى في قراءته، ولا يعيدها في الركعة الثانية)[٣٦].

و(المأموم إذا أدرك الإمام بعد فوات الأولى لم يستفتح ولا يتعوّذ)[٣٧]، أي أن المأموم إذا أدرك الإمام بعد فوات الأولى (الركعة الأولى) لم يستفتح (دعاء الاستفتاح وهو: وجهت وجهي إلى آخره)، ولا يتعوذ وصورتها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

المطلب الثالث:

القرآن والبسملة: وفيه:

المقصد الأول:

الجهر بالبسملة في مواضع الجهر:

قال المصنف(قدس سره) في (تحرير الأحكام): (يجب الجهر بالبسملة في مواضع الجهر...)[٣٨].

وفي تذكرة الفقهاء: (يجب الجهر بالبسملة في مواضع الجهر... في أول الحمد وأول السورة عند علمائنا؛ لأنها آية من السورة تتبعها في وجوب الجهر... ومن طريق الخاصة قول صفوان: صليت خلف الصادق عليه السلام أياما وكان يقرأ في فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وأخفى ما سوى ذلك)[٣٩][٤٠].

وفي منتهى المطلب: (لا خلاف بين علمائنا القائلين بوجوب الجهر أنّه يجب الجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم في المواضع التي تجهر فيها بالقراءة؛ لأنّها آية من الحمد والسّورة فيجب الجهر بها... ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ في الصّحيح، عن صفوان قال: (صلّيت خلف أبي عبد الله عليه السلام أيّاما فكان يقرأ في فاتحة الكتاب بسم الله الرّحمن الرّحيم، فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر ببسم الله

الرّحمن الرّحيم وأخفى ما سوى ذلك)[41]، وعن عبد الله بن يحيى الكاهليّ قال: صلّى بنا أبو عبد الله عليه السلام، في مسجد بني كأهل فجهر مرّتين ببسم الله الرّحمن الرّحيم، وقنت في الفجر، وسلّم واحدة ممّا يلي القبلة)[42]، وفي الموثّق، عن مسمع البصريّ قال: صلّيت مع أبي عبد الله عليه السلام فقرأ بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، ثمّ قرأ السّورة...)[43]؛ ولأنّها آية من الحمد وغيرها فكان لها حكم باقي الآيات)[44].

المقصد الثاني:

حكم الجهر بالبسملة في مواضع الإخفات:

قال المصنف(قدس سره): (...ويستحبّ في مواضع الإخفات)[45]، أي البسملة، وفي قواعد الأحكام: (ويستحب الجهر بالبسملة في أول الحمد والسورة في الإخفاتية)[46].

وفي نهاية الإحكام: (والتسمية تابعة للقراءة في وجوب الجهر لا الإخفات، بل يستحب الجهر بها في مواضع الإخفات، في أول الحمد وأول السورة؛ لأنها بعض السورة فيتبعها في وجوب الجهر، (ومن طريق الخاصة)[47]، قال صفوان: (صليت خلف الصادق عليه السلام أياما وكان يقرأ في فاتحة الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وأخفى ما سوى ذلك)[48]،[49].

وقال المصنف(قدس سره) في (منتهى المطلب): (قال أكثر علمائنا يستحبّ الجهر بها في موضع الإخفات[50]، قال علم الهدى(ت٤٣٦هـ) (قدس سره): (ومن أصحابنا من يرى الجهر بها في كلّ صلاة للإمام، أمّا المنفرد فيجهر بها في صلاة الجهر، ويخفت بها في الإخفات)[51]، وقال ابن إدريس (ت٥٩٨هـ)(قدس سره): إنّما يستحبّ الجهر بها في أوّلتي الظّهر والعصر دون أواخرهما، وثالثة المغرب وأخرى العشاء[52]، لنا: (عن صفوان قال: صليت خلف أبي عبد الله عليه السلام

أياما كان يقرأ في فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم فإذا كان صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر ببسم الله الرحمن الرحيم وأخفى ما سوى ذلك)[٥٣].

وما رواه الشّيخ: عن أبي حمزة الثماليّ: (قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام: يا ثماليّ إنّ الصّلاة إذا أقيمت جاء الشّيطان إلى قرين الإمام فيقول: هل ذكر ربّه؟ فإن قال: نعم، ذهب، وإن قال: لا، ركب على كتفيه، فكان إمام القوم حتّى ينصرفوا: قال: فقلت: جعلت فداك أليس يقرؤن القرآن؟ قال: بلى ليس حيث تذهب يا ثماليّ إنّما هو الجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم)[٥٤]، وذلك مطلق فيجري على إطلاقه إلى أن يظهر المقيّد، وتخصيص ابن إدريس(ت٥٩٨هـ)(قدس سره) استحباب الجهر بما يتعيّن فيه القراءة ممّا لا وجه له، وتمسّكه بالاحتياط غير دالّ عليه، واحتجاجه بقول الشّيخ في الجمل: ويستحبّ الجهر بها في الموضعين[٥٥]، فاسد، لاحتمال أن يكون مراده أوّل الحمد وأوّل السّورة لا الظّهر والعصر كما فهمه هو)[٥٦].

وفي تحقيق ذلك قال المصنف (قدس سره) في كتابه (مختلف الشيعة): (اتفق الموجبون للجهر بالقراءة على وجوبه في البسملة فيما يجهر فيه، وإنما الخلاف وقع في مواضع: الأول: أوجب ابن البراج (ت٤٨١هـ)(قدس سره) الجهر بها فيما يخافت فيه وأطلق[٥٧]، وأوجب أبو الصلاح (ت٤٤٧هـ)(قدس سره) الجهر بها في أولتي الظهر والعصر في ابتداء الحمد والسورة التي تليها[٥٨]، والمشهور الاستحباب، لنا: الأصل براءة الذمة من الوجوب؛ ولأنها جزء السورة التي تجب الإخفات فيها فيتعين فيها المساواة؛ لكن صرنا إلى الاستحباب عملا بقول الأصحاب، احتجوا بما رواه صفوان في الصحيح: (قال: صليت خلف أبي عبد الله عليه السلام أياما فكان يقرأ في فاتحة الكتاب (بسم الله الرحمن

الرحيم) فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) وأخفى ما سوى ذلك)[٥٩]، ومداومته على الجهر تدل على الوجوب، والجواب: المنع من الوجوب، فإنه عليه السلام كان يداوم على المستحب كما يداوم على الواجب، الثاني: المشهور استحباب الجهر بالبسملة فيما يخافت فيه للمنفرد والإمام، ونقل ابن إدريس (ت٥٩٨هـ)(قدس سره) عن بعض أصحابنا: أن الجهر بها في كل صلاة إنما هو للإمام، وأما المنفرد فيجهر بها في الجهرية، ويخافت بها فيما عداها[٦٠]، وأظن أن المراد بذلك هو ابن الجنيد (ت ٣٨١هـ) (قدس سره)؛ لأنه هو من أفتى بذلك في كتاب الأحمدي[٦١]، لنا: إنه قول أكثر علمائنا فيكون راجحا على غيره،احتجوابأنالأصل وجوب المخافتة بها فيما يخافت به؛ لأنها بعض الفاتحة خرج عنه ما إذا كان إماما لرواية صفوان[٦٢]، فيبقى المنفرد على الأصل، والجواب: المنع من عموم وجوب المخافتة، الثالث: قال علي بن بابويه (ت ٣٨١هـ)(قدس سره): (واجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في جميع الصلوات)[٦٣]، وفي المبسوط[٦٤]، والخلاف[٦٥]، والنهاية[٦٦]: يستحب الجهر بها فيما لا يجهر فيه من الصلوات، وكذا في الإقتصاد[٦٧]، وقال السيد المرتضى (ت٤٣٦هـ)(قدس سره) في الجمل: ويفتتح القراءة ب بسم الله الرحمن الرحيم، يجهر بها في كل صلاة جهرا كانت أو إخفاتا)[٦٨]، وقال الشيخ (ت ٤٦٠هـ)(قدس سره) في الجمل: (والجهر ب بسم الله الرحمن الرحيم فيما لا يجهر بالقراءة فيه في الموضعين)[٦٩]، قال ابن إدريس (ت٥٩٨هـ)(قدس سره): المستحب إنما هو الجهر في الركعتين الأولتين من الصلاة الإخفاتية دون الأخيرتين، فإنه لا يجوز الجهر فيهما بالبسملة[٧٠]، وكلام المتقدمين يقتضي عموم استحباب الجهر بها في غير الجهرية؛ لأنها مما يستحب الجهر بها في الإخفاتية،

وكذا في الركعات الأواخر. احتج ابن إدريس بأن الصلاة إما جهرية وإما إخفاتية، فالإخفاتية الظهر والعصر، والجهر بالبسملة في الركعتين الأولتين مستحب؛ لأن فيهما تتعين القراءة، فأما الأخيرتان فلا تتعين فيهما القراءة، ولا خلاف في أن الصلاة الإخفاتية لا يجوز الجهر فيها بالقراءة، والبسملة من جملة القراءة، وإنما ورد في الصلاة الإخفاتية التي تتعين فيها القراءة، ولا تتعين إلا في الأولتين فحسب، وأيضا طريقة الاحتياط تقتضي وجوب ترك الجهر بالبسملة في الأخيرتين؛ لأنه لا خلاف في صحة الصلاة مع ترك الجهر، وفي صحة صلاة من جهر فيها خلاف. وأيضا لا خلاف في وجوب الإخفات في الأخيرتين، فمن ادعى استحباب الجهر في بعضها وهو البسملة، فعليه الدليل قال: وقول الشيخ(قدس سره): باستحباب الجهر في الموضعين يريد به الظهر والعصر، ولو أراد الأخيرتين من كل فريضة لما قال في الموضعين، بل في المواضع، وأيضا فلا خلاف في سقوط الذم عمن ترك الجهر ويخشى من الجهر لحوق الذم فيكون تركه أولى، وأيضا قد روى زرارة عن الباقر عليه السلام أن الأخيرتين لا قراءة فيهما[٧١]، والجواب: أنه لا يلزم ومن عدم التعيين عدم استحباب الجهر بالبسملة فيهما والاحتياط معارض بأصالة براءة الذمة عن وجوب الإخفات في البسملة، وباقي أدلته تكرار لهذين، وقوله: إن مراد الشيخ بالموضعين الظهر والعصر ليس بواضح، ويمكن أن يكون مراده قبل الحمد وبعدها)[٧٢].

المقصد الثالث:

حكم الجهر بالبسملة وإخفاتها للنساء:

قال المصنف(قدس سره) في نهاية الإحكام: (وإنما يجب الجهر على الذكر، فلا يجب على الأنثى وإن

خلت بنفسها إجماعا؛ لأن صوتها عورة، ولا تخافت دون إسماع نفسها وما لا يتعين فيه القراءة، لا يسقط استحباب الجهر بالبسملة فيه على الأقوى)[٧٣].

وفي تذكرة الفقهاء: (لا جهر على المرأة بإجماع العلماء؛ لأن صوتها عورة، ولا تخافت دون إسماع نفسها)[٧٤].

وفي منتهى المطلب: (ليس على المرأة جهر في شيء من الصّلوات كافّة وهو قول كلّ من يحفظ عنه العلم؛ لأنّ صوتها عورة فلا يجوز لها إبرازه إلى الرّجال، نعم لا تقصر في الإخفات عن إسماع نفسها لو كانت تسمع)[٧٥].

المقصد الرابع:

حكم الجهر بالبسملة حال التقية:

قال المصنف(قدس سره): (يجوز الإسرار بها حالة التقيّة وإن وجب الجهر بها، للضّرورة ويؤيّده: ما رواه الشّيخ: (عن أبي جرير زكريّا بن إدريس القمّيّ قال: سألت أبا الحسن الأوّل عليه السلام عن الرّجل يصلّي بقوم يكرهون أن يجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم؟ فقال: لا يجهر)[٧٦]،[٧٧]، وفي تحرير الأحكام: (... ويجوز الإسرار بها مع التقيّة، وإن وجب الجهر)[٧٨].

المبحث الثاني:

سورة الحمد والصلاة:

المطلب الأول:

حكم البسملة من اول سورة الحمد

ذكر المصنف(قدس سره) في (الرسالة السعدية): (... أنه يجب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول الحمد وأول كل سورة...)[٧٩].

وفي قواعد الأحكام: (القراءة وليست ركنا بل واجبة تبطل الصلاة بتركها عمدا، ويجب الحمد ثم سورة كاملة في ركعتي الثنائية والأوليين من غيرها، والبسملة آية منها ومن كل سورة)[٨٠].

وفي منتهى المطلب: البسملة آية من

سورة الحمد...[٨١]، وجاء أيضاً في (منتهى المطلب): (بسم الله الرّحمن الرّحيم، آية من أوّل الحمد ومن كلّ سورة إلاّ براءة وهي بعض آية في سورة النّمل تجب قراءتها في الصّلاة مبتدئا بها في أوّل الفاتحة، وهو مذهب فقهاء أهل البيت عليهم السلام... ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ في الصّحيح: (عن صفوان قال: صلّيت خلف أبي عبد الله عليه السلام أيّاما، فكان يقرأ في فاتحة الكتاب بسم الله الرّحمن الرّحيم، فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم وأخفى ما سوى ذلك)[٨٢]، وفي الصحيح: (عن معاوية بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إذا قمت للصّلاة أقرأ بسم الله الرّحمن الرّحيم في فاتحة القرآن؟ قال: نعم: قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ بسم الله الرّحمن الرّحيم مع السّورة؟ قال: نعم)[٨٣]، وفي الصّحيح: (عن يحيى بن عمران الهمدانيّ قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك ما تقول في رجل ابتدأ ببسم الله الرّحمن الرّحيم في صلاته وحده في أمّ الكتاب فلمّا صار إلى غير أمّ الكتاب من السّورة تركها؟ فقال العباسي: ليس بذلك بأس، فكتب عليه السلام بخطّه: يعيدها مرّتين على رغم أنفه: يعني العباسي)[٨٤]، وفي الصّحيح: (عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السّبع المثاني والقرآن العظيم هي الفاتحة؟ قال: نعم قلت: بسم الله الرّحمن الرّحيم من السّبع؟ قال: نعم، هي أفضلهنّ)[٨٥]؛ ولأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾[٨٦]، قال المفسّرون: إنّها الفاتحة تثنّى في كلّ صلاة مرّتين[٨٧]، وإنّما تكون سبعا بالتّسمية؛ ولأنّها ثابتة في المصاحف بخطّ القرآن وقد كانت الصّحابة تتشدّد في التّعشيرات والنّقط وأسماء السّور، فكيف يجوز لهم إثبات ما ليس من القرآن فيه؛ ولأنّ القرّاء يقرؤنها في أوائل السّور كغيرها من الآيات)[٨٨].

وفي نهاية الإحكام: قال(قدس سره): (والبسملة آية من الفاتحة؛ لأنه عليه السلام[٨٩]، قرأ فاتحة الكتاب فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) وعدها آية منها[٩٠]، وقال عليه السلام: إذا قرأتم فاتحة الكتاب فاقرؤوا (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنها أم القرآن والسبع المثاني، وإن (بسم الله الرحمن الرحيم) آية منها[٩١]، وسأل معاوية بن عمار الصادق عليه السلام: (إذا قمت إلى الصلاة أقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) في فاتحة القرآن؟ قال: نعم، قلت: إذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) مع السورة؟ قال: نعم)[٩٢]، [٩٣].

وفي تذكرة الفقهاء: (البسملة آية من الحمد، ومن كل سورة عدا براءة، وفي النمل آية وبعض آية... ومن طريق الخاصة قول الصادق عليه السلام وقد سأله معاوية بن عمار: (إذا قمت إلى الصلاة أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة القرآن؟ قال: نعم: قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مع السورة؟ قال: نعم)[٩٤]،[٩٥].

المطلب الثاني:

قراءة البسملة في الصلاة:

قال المصنف(قدس سره): (بسم الله الرحمن الرحيم، آية من كل سورة، إلاّ براءة، فلو أخلّ بها في الحمد، أو في السورة، بطلت صلاته إن كان عمداً، وإلاّ فلا، ويجب أن يقرأها بنيّة أنّها من سورة معيّنة، فلو قرأها من غير نيّة، تعيّن عليه إعادتها عند قراءة السورة، وكذا يعيدها لو عدل عن سورة إلى أُخرى)[٩٦].

وهل تقرأ البسملة في الركعة الأولى فقط أو في كل ركعة قال المصنف (قدس سره): (والبسملة آية من الفاتحة... وكذا باقي سور القرآن، فإن البسملة آية منها عند علمائنا أجمع إلا براءة وفي سورة النمل آية وبعض آية)[٩٧].

أي أن البسملة من الفاتحة ومن كل سورة من القرآن الكريم فيجب قراءتها في كل ركعة مع الفاتحة ومع أول كل سورة من سور القرآن الكريم.

المطلب الثالث:

الصلاة والفاتحة والسورة بعدها:

وفيه:

المقصد الأول:

هل تجب الفاتحة أم أي قرآن في الصلاة :

هل تجب قراءة القرآن في الصلاة على من صلى إماماً أو منفرداً؟ وهل تجب الفاتحة في غير الصلاة؟ . قال المصنف(قدس سره) في نهاية الإحكام: (القراءة واجبة في كل صلاة صادرة من مكلف مفترض، إمام أو منفرد عارف أو متمكن، وشرط في الصلاة عند علمائنا أجمع؛ لقوله عليه السلام: (لا صلاة إلا بقراءة)[٩٨]، وليست ركنا على الأصح؛ لعموم: رفع القلم عن أمتي الخطأ والنسيان[٩٩]، والجهل ليس عذرا، وإنما تجب في الفرائض حالة القيام في كل ركعة مرة قبل الركوع. ويجب الحمد والسورة الكاملة في كل ثنائية، وفي الأولتين من غيرهما)[١٠٠].

وفي نهج الحق وكشف الصدق: (ذهبت الإمامية إلى وجوب قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة لقوله صلى الله عليه وآله[١٠١]: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)[١٠٢]، وقال: (لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب)[١٠٣][١٠٤].

وورد أيضاً في تذكرة الفقهاء: (القراءة واجبة في الصلاة وشرط فيها عند علمائنا أجمع...﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[١٠٥]، وقوله عليه السلام: (لا صلاة الا بقراءة)[١٠٦]، وليس واجبا في غير الصلاة فيجب فيها إجماعا)[١٠٧].

وفي تحقيق ذلك (لا تجب القراءة في غير الصلاة) قال المصنف(قدس سره) في المختلف: (إن القراءة لا تجب في غير الصلاة وهو إجماع، إذا ثبت هذا فنقول: يجب بمقتضى هذا الأمر وجوب قراءة كل ما تيسر من القرآن في الصلاة خرج عنه ما زاد على الحمد والسورة بالإجماع، فتعين الباقي عملا بالمقتضي السالم عن معارضة الإجماع الدال على خلافه، وما رواه منصور بن حازم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (لا تقرأ في المكتوبة بأقل من سورة ولا بأكثر)[١٠٨]؛ ولأن

وجوب الصلاة في الذمة متيقن فلا يخرج المكلف عن العهدة باليقين إلا بقراءة السورة مع الحمد؛ ولأن وجوب التسمية بعد الحمد قبل السورة يستلزم وجوب السورة والملزوم ثابت فيثبت اللازم، أما الملازمة فظاهرة، إذ لو صلى بالحمد وحدها على تقدير عدم وجوب السورة لم تجب عليه الإعادة وإن ترك التسمية بعد الحمد. وأما ثبوت الملزوم فلما رواه يحيى بن عمران الهمداني قال: (كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام جعلت فداك ما تقول في رجل ابتدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) في صلاته وحده في أم الكتاب، فلما صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها، فقال العباسي: ليس بذلك بأس؟ فكتب بخطه: يعيدها مرتين على رغم أنف العباسي)[١٠٩]، لا يقال: يجوز اختصاص وجوب التسمية في أول السورة لمن قرأ السورة لا مطلقا؛ لأنّا نقول: إذا لم تكن السورة واجبة لم يكن أبعاضها واجبة؛ لأن علمائنا بين قائلين أحدهما أوجب السورة، والآخر لم يوجبها فلم يوجب أبعاضها، فالفرق ثالث، احتج الشيخ بما رواه علي بن رئاب في الصحيح، (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن فاتحة الكتاب يجوز وحدها في الفريضة)[١١٠]، ومثله روى الحلبي في الصحيح، عن الصادق عليه السلام[١١١]، واعلم أن أصح ما وصل إلينا في هذا الباب هذان الحديثان؛ ولأن الأصل براءة الذمة، ولأن أجزاء بعض السورة يستلزم عدم وجوب السورة والملزوم ثابت، لما رواه عمر بن يزيد في الصحيح (قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيقرأ الرجل السورة الواحدة في الركعتين من الفريضة؟ فقال: لا بأس إذا كانت أكثر من ثلاث آيات)[١١٢]، والجواب عن الأول: أنه محمول على الضرورة، لما رواه عبيد الله بن علي الحلبي في الصحيح، (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا بأس أن يقرأ الرجل في الفريضة بفاتحة الكتاب في الركعتين الأولتين إذا ما أعجلت به حاجة أو تخوف شيئا)[١١٣]، وجه الاستدلال به:

أنه عليه السلام علق نفي البأس على العجلة أو الخوف فيثبت مع انتفائهما، وأصالة براءة الذمة غير ثابتة مع العلم بشغلها بالتكليف، فلا يسقط إلا مع العلم بنفيه، وأما الحديث الآخر: فإنه لا يدل على المطلوب لاحتمال إرادة تكرير السورة الواحدة في الركعتين، إذ الأفضل قراءة (إنا أنزلناه) في الركعة الأولى، والتوحيد في الثانية، فقال عليه السلام: لا بأس بالواحدة فيهما[114]، لما رواه علي بن جعفر، عن أخيه موسى عليه السلام قال: (سألته عن الرجل يقرأ سورة واحدة في الركعتين من الفريضة وهو يحسن غيرها، فإن فعل فما عليه؟، قال: إذا أحسن غيرها فلا يفعل، وإن لم يحسن غيرها فلا بأس)[115]،[116].

المقصد الثاني:

قراءة فاتحة الكتاب وما يقوم مقامها في الصلاة:

قال المصنف(قدس سره): (وتتعين الفاتحة في فرائض الصلوات حالة القيام، أو ما يقع بدلا عنه، ولا يقوم مقامها شيء من القرآن؛ لقوله عليه السلام: (لا صلاة لمن لم يقرأ في صلاته بفاتحة الكتاب)[117]، وسأله محمد بن مسلم: (عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب في صلاته، فقال: لا صلاة له إلا أن يقرأها في جهر أو إخفات)[118]؛ ولأن القراءة جزء من الصلاة، فكانت متعينة كالركوع والسجود)[119].

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)(قدس سره) في التهذيب: (فإن المراد به أنه متى لم يقرأها على العمد دون النسيان فإنه لا صلاة له، فأما مع النسيان فإن صلاته جائزة)[120].

وفي منتهى المطلب: (إذا فرغ من التعوذ قرء ولا نعلم فيه خلافا في وجوب القراءة وكونها شرطا في الصلاة بين العلماء... لنا: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[121]، وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[122]،... ومن طريق الخاصة ما رواه الشيخ في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام: (... فيمن ترك القراءة متعمدا أعاد الصلاة...)[123]، وفي الصحيح عن محمد

بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: (قال: سألته عن الذي لا يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته، قال: لا صلاة له إلا أن يقرأ بها في جهر أو إخفات)[١٢٤].

المقصد الثالث:

قراءة سورة الفاتحة في الركعة الأولى والركعة الثانية:

قال المصنف(قدس سره) في إرشاد الأذهان: (القراءة، وتجب في الثنائية وفي الأولتين من غيرها الحمد وسورة كاملة...)[١٢٥].

وفي تبصرة المتعلمين: (القراءة، ويجب الحمد والسورة في الثنائية، والأوليين من غيرها...)[١٢٦].

وفي نهاية الإحكام: (ويجب الحمد والسورة الكاملة في كل ثنائية، وفي الأولتين من غيرهما)[١٢٧].

وفي قواعد الأحكام: (... ويجب الحمد ثم سورة كاملة في ركعتي الثنائية والأوليين من غيرها، والبسملة آية منها ومن كل سورة)[١٢٨].

وفي الرسالة السعدية: (أنه يجب في الركعتين الأوليين، قراءة الحمد وسورة كاملة في كل ركعة لقوله صلى الله عليه وآله: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)[١٢٩]، وصلى بالحمد وسورة كاملة، وقال: صلى الله عليه وآله: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[١٣٠]، وكان عليه السلام يصلي بالحمد وسورة كاملة في كل ركعة، والاحتياط يقتضي ذلك أيضا، فإنه إذا قرأ في كل ركعة الحمد وسورة كاملة، صحت صلاته إجماعا...)[١٣١].

وفي تذكرة الفقهاء: (وتتعين الفاتحة في كل فريضة ثنائية، وفي الأوليين من غيرها عند علمائنا أجمع... ومن طريق الخاصة قول محمد بن مسلم: (سألته عن الذي لا يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته، قال: لا صلاة له إلا أن يقرأها في جهر أو إخفات)[١٣٢]؛ لأن القراءة جزء من الصلاة فكانت متعينة كالركوع والسجود)[١٣٣].

وفي منتهى المطلب: (ويتعيّن الحمد في كلّ ثنائيّة وفي الأُوليين من الثّلاثيّة والرّباعيّة ذهب إليه علماؤنا أجمع ... لنا: قوله عليه السلام: (لا صلاة لمن لم يقرأ

فاتحة الكتاب)[١٣٤]، رواه عبادة؛ ولأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله داوم عليها، ومواظبته تدلّ على تعيّنها، ولقوله عليه السلام: (صلّوا كما رأيتموني أُصلّي)[١٣٥]، ومن طريق الخاصّة: رواية محمّد بن مسلم، عن الباقر عليه السلام)[١٣٦].

المطلب الرابع:

قراءة القرآن بعد الفاتحة في الصلاة:

وفيه:

المقصد الأول:

قراءة القرآن بعد الفاتحة في الركعتين الأولى والثانية من الثلاثية، ومن الركعتين الاوليتين من الرباعية:

قال المصنف في إرشاد الأذهان: (القراءة، وتجب في الثنائية وفي الأولتين من غيرها الحمد وسورة كاملة)[١٣٧].

وفي تحرير الأحكام: (ويتعيّن الحمد وسورة كاملة في كل ركعة مرة في الثنائية، وفي أُوليي الثلاثية والرباعية)[١٣٨].

وفي نهاية الإحكام: (وتجب سورة أخرى بعد الفاتحة في الأوليين من كل فريضة؛ لأنه عليه السلام كان يقرأ في الظهر في الأولتين بأم الكتاب وسورتين، وفي الأخيرتين بأم الكتاب)[١٣٩]، وقال عليه السلام: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ومعها غيرها[١٤٠]، وأوجب الباقر عليه السلام الإعادة لو ترك السورة بعد الحمد[١٤١]، وقيل: لا تجب السورة بعد الحمد للخبر[١٤٢]، وهو محمول على حال الضرورة والاستعجال؛ لقول الصادق عليه السلام: يجوز للمريض أن يقرأ في الفريضة فاتحة الكتاب وحدها[١٤٣]، وسئل الصادق عليه السلام: أيجزي عني أن أقرأ في الفريضة فاتحة الكتاب وحدها إذا كنت مستعجلا أو أعجلني شيء؟، فقال: لا بأس[١٤٤]، وكذا يجوز الاقتصار على بعض سورة بعد الحمد عند الضرورة أو الاستعجال؛ لأنه أولى من ترك الجميع)[١٤٥].

وفي تذكرة الفقهاء: (وفي وجوب سورة بعد الحمد في الثنائية وأوليي غيرها قولان: الأشهر: الوجوب... من طريق الخاصة قول الباقر عليه السلام وقد سئل ما تقول فيمن قرأ أم الكتاب فلما صار إلى غير أم الكتاب من السورة

تركها؟ فقال العباسي[١٤٦]، ليس بذلك بأس، فكتب بخطه: يعيدها مرتين على رغم أنفه)[١٤٧][١٤٨].

وفي المختلف: (المشهور أنه يجب على المختار قراءة سورة بعد الحمد في الثنائية والأولتين من الرباعية والثلاثية...)[١٤٩].

وفي منتهى المطلب: (فإذا فرغ من الحمد في كلّ ثنائيّة، وفي أوّلتي كلّ ثلاثيّة ورباعيّة من الفرائض قرأ سورة أُخرى تامّة وجوبا حال الاختيار، ذهب إليه أكثر علمائنا[١٥٠]، وقال في النّهاية: لا تجب السّورة الأُخرى[١٥١]... قال الشّيخ في الخلاف والمبسوط: (الظّاهر من روايات أصحابنا ومذهبهم أنّ قراءة سورة أُخرى مع الحمد واجب في الفرائض، ولا يجزئ الاقتصار على أقلّ منها)[١٥٢]، ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ في الصّحيح، عن يحيى بن عمران الهمدانيّ قال كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك ما تقول في رجل ابتدأ ببسم الله الرّحمن الرّحيم في صلاته وحده في أُمّ الكتاب فلمّا صار إلى غير أُمّ الكتاب من السّورة تركها؟ فقال العبّاسيّ: ليس بذلك بأس فكتب عليه السلام بخطّه: يعيدها مرّتين على رغم أنفه، يعني العبّاسيّ)[١٥٣]، وترك الجميع يستلزم ترك البسملة فكان أولى بوجوب الإعادة، وعن منصور بن حازم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (لا تقرأ في المكتوبة بأقلّ من سورة ولا بأكثر)[١٥٤]، وفي رواية حمّاد، عن أبي عبد الله عليه السلام في تعليم صفة الصّلاة، ثمّ قرأ الحمد وسورة[١٥٥]، وكان ذلك في معرض البيان، وفي الصّحيح، (عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام، قال: سألته عن الرّجل يقرأ السّورتين في الرّكعة؟ فقال: لا، لكلّ سورة ركعة)[١٥٦]؛ ولأنّ الاحتياط يقتضي ذلك، إذ البراءة تحصل باليقين مع قراءتها لا مع تركها احتجّ الشّيخ بما رواه، عن الحلبيّ في الصّحيح، عن أبي عبد الله عليه السلام: (إنّ فاتحة الكتاب وحدها تجزئ في الفريضة)[١٥٧]... والجواب عن الأوّل: أنّه محمول على الضّرورة أو حالة الاستعجال، ويؤيّده:

ما رواه الشّيخ في الموثّق (عن الحسن الصّيقل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيجزئ عنّي أن أقول في الفريضة فاتحة الكتاب وحدها إذا كنت مستعجلا أو أعجلني شيء؟ فقال: لا بأس)[١٥٨]، وفي الصّحيح، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (يجوز للمريض أن يقرأ في الفريضة فاتحة الكتاب وحدها، ويجوز للصّحيح في قضاء الصّلاة التّطوّع باللّيل والنّهار)[١٥٩]، وفي الصّحيح، عن عبيد الله بن عليّ الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (لا بأس بأن يقرأ الرّجل في الفريضة بفاتحة الكتاب في الرّكعتين الأوّلتين إذا ما أعجلت به حاجة أو تخوّف شيئا)[١٦٠]، وهذا نصّ في جواز الاقتصار على الحمد مع العذر فيحمل الإطلاق عليه جمعا بين الأدلّة)[١٦١].

المقصد الثاني:

قراءة القرآن بعد الفاتحة في الركعة الثالثة من الصلاة الثلاثية، والأخيرتين من الرباعية:

قال المصنف(قدس سره) في إرشاد الأذهان: (ويتخير في الزائد بين الحمد وحدها وأربع تسبيحات، صورتها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[١٦٢].

وفي تبصرة المتعلمين في أحكام الدين: (ويتخير في الثالثة والرابعة بينها وبين التسبيح أربعا، وصورته: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[١٦٣].

وفي تذكرة الفقهاء: (ولا يقرأ في الثالثة والرابعة في الثلاثية والرباعية بعد الحمد شيئا عند علمائنا..؛ ولأن عليا عليه السلام كتب إلى شريح أن: اقرأ في الركعتين الأوليين أم القرآن وسورة، وفي الأخريين بأم القرآن)[١٦٤]،[١٦٥].

وفي قواعد الأحكام: (ولا تجوز الزيادة على الحمد في الثالثة والرابعة، ويتخير فيهما بينها وبين سبحان الله،

والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر مرة، ويستحب ثلاثاً...)[١٦٦].

وفي تحرير الأحكام: (... ويتخيّر في الثالثة والرابعة بين الحمد وحدها وأربع تسبيحات، صورتها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر. وإن قال ذلك ثلاث مرات كان أفضل، وقيل: يجب، وليس بمعتمد)[١٦٧].

وفي منتهى المطلب: (ولا يقرأ في الثّالثة من كلّ فريضة والرابعة سورة أُخرى بعد الحمد ذهب إليه علماؤنا أجمع... ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ، عن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام: ويقرأ الرّجل في الأخيرتين إذا صلّى وحده بفاتحة الكتاب[١٦٨]، وروى في الصّحيح: (عن عبيد بن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرّكعتين الأخيرتين من الظّهر، قال: تسبّح وتحمد الله وتستغفر لذنبك، وإن شئت فاتحة الكتاب فإنّها تحميد ودعاء)[١٦٩]،[١٧٠].

وفي منتهى المطلب أيضاً: (ولا يتعيّن الحمد في الثّالثة والرّابعة من الفرائض بل يتخيّر المصلّي فيها وفي التّسبيح أيّهما فعل أجزأه، ذهب إليه علماؤنا... ومن طريق الخاصّة: ما رواه الشّيخ في الصّحيح، (عن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا صلّى يقرأ في الأوّلتين من صلاته الظّهر سرّا، ويسبّح في الأخيرتين من صلاته الظّهر على نحو من صلاته العشاء، وكان يقرأ في الأوّلتين من صلاة العصر سرّا، ويسبّح في الأخيرتين على نحو من صلاته العشاء، وكان يقول: أوّل صلاة أحدكم الرّكوع)[١٧١]، وما تقدّم في حديث عبيد بن زرارة[١٧٢]؛ ولأنّ القراءة لو تعيّنت في الأخيرتين ليس فيها الجهر كالأوّلتين...)[١٧٣].

وفي تذكرة الفقهاء: (ولا يقرأ في الثالثة والرابعة في الثلاثية والرباعية بعد الحمد شيئا عند علمائنا... ولأن عليا عليه السلام كتب إلى شريح أن: اقرأ في الركعتين الأوليين أم القرآن وسورة، وفي الأخريين بأم القرآن)[١٧٤].

وفي الرسالة السعدية: (أنه يجب

في الركعتين الأخريين من الرباعية، وفي الثالثة من الثلاثية قراءة الفاتحة خاصة، أو التسبيح وصورته: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[١٧٥].

وفي تحقيق ذلك قال المصنف في في نهاية الإحكام: (ولا يقرأ في الثالثة والرابعة من الثلاثية والرباعية زيادة على الحمد، لأن علياعليه السلام كتب إلى شريح أن اقرأ في الركعتين الأولتين بأم القرآن وسورة، وفي الأخيرتين بأم القرآن[١٧٦]، ويجب عين الفاتحة في الأولتين، فلا يجزي غيرها من قراءة أو تسبيح.

ولا يجب في الأخيرتين من الرباعية والثالثة من الثلاثية عينا، بل مخير فيهما بينها وبين التسبيح، لا بينها وبين غيرها من القرآن عند علمائنا ؛ لأن علياعليه السلام قال: (اقرأ في الأولتين، وسبح في الأخيرتين)[١٧٧]؛ ولأنها لو وجبت في باقي الركعات لسن الجهر بها في بعض الصلوات كالأوليين وروي أن التسبيح في الأخيرتين أفضل من القراءة[١٧٨]، وروي العكس[١٧٩]، وروي التساوي[١٨٠]، وروي أفضلية التسبيح للمأموم والقراءة للإمام[١٨١]، وهل يسقط التخيير لو نسي القراءة في الأولتين؟ قيل: نعم، لئلا تخلو الصلاة عن الفاتحة.

وقيل: لا للعموم. ولا تتبع القراءة في الجهر والإخفات واختلف في كيفيته، والأقوى إجزاء مرة واحدة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ ولأن زرارة سأل الباقرعليه السلام (ما يجزي من القول في الركعتين الأخيرتين؟ قال: أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويكبر ويركع)[١٨٢].

وقيل: يجب تكرار هذا ثلاث مرات وقيل: تجب الثلاث ويسقط التكبير إلا في الثالثة.

وقيل: وفي الثالثة أيضا، والأقرب وجوب هذا الترتيب)[١٨٣].

الخاتمة:

١- لقد أسس المعصومون عليهم السلام مجموعة من الأسس والقواعد التي تحفظ قدسية النص الديني.

٢ - إن أهل البيت عليهم السلام هم القيّمون على النص الديني والمبيّنون له، وهذا يقع ضمن مرجعيتهم.

٣- لابد من مراعاة تلك الأسس في التعامل مع النص الديني باعتباره نصاً مقدساً.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

* الحديث الشريف.

١. إرشاد الأذهان: الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط١ - ١٤١٠هـ.

٢. الاستبصار: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)(قدس سره)، تح: السيد حسن الموسوي الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط٤ - ١٣٦٣ ش.

٣. الاقتصاد: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)(قدس سره)، منشورات مكتبة جامع جهلستون، طهران، إيران، (ب - ط)، ١٤٠٠هـ

٤. تبصرة المتعلمين في أحكام الدين: العلامة الحلي(قدس سره)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط٢ - ١٤١١هـ.

٥. التبيان في تفسير القرآن: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)

(قدس سره)، تح: أحمد قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ط١ - ١٤٠٩هـ

٦. تحرير الأحكام: الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، تح: ابراهيم البهادلي، نشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ط١ - ١٣٢٠هـ

٧. تذكرة الفقهاء: الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، نشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إيران، ط١ - ١٤١٤هـ.

٨. ترتيب إصلاح المنطق: ابن السكيت الأهوازي (ت٢٤٤هـ) (رحمه الله)، تح: الشيخ محمد حسن بكائي، نشر: مجمع البحوث الإسلامية، إيران، مشهد، ط١، ١٤١٢هـ

٩. تفسير مجمع البيان: الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) (قدس سره)، تح: لجنة من العلماء والمحققين والأخصائيين، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠.تهذيب الأحكام: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)(قدس سره)، تح: السيد حسن الموسوي الخرسان، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط٣ - ١٣٦٤ ش.

١١.جامع الرواة: محمد علي الأردبيلي (ت١١٠١هـ)(قدس سره)، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، إيران (ب- ط)،

١٢.جمل العلم والعمل: الشريف المرتضى(قدس سره)، تح: السيد أحمد الحسيني، ط١، ١٣٧٨هـ مطبعة: الآداب في النجف الأشرف، العراق.

١٣.الجمل والعقود في العبادات: الشيخ الطوسي(قدس سره)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط١ - ١٤١٠هـ.

١٤.الخصال: الشيخ محمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي الصدوق (ت٣٢٩هـ)(قدس سره)، تح: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، (ب - ط)، ١٤٠٣هـ - ١٣٦٢ش.

١٥.خلاصة الأقوال: العلامة الحلي (قدس سره)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، (ب - ط).

١٦.الخلاف: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) (قدس سره)، تح: جماعة من المحققين، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ١٤٠٧هـ

١٧.الرساله السعدية: العلامة الحلي (قدس سره)، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ١٤٠٨هـ

١٨.السرائر: الشيخ محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس الحلي (ت٥٩٨هـ) (قدس سره)، تح: لجنة التحقيق، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط٢ - ١٤١٠هـ

١٩.سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع، (ب - ط - وت).

٢٠.سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) (رحمه الله)، تح: سعيد محمد اللحام، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢١.سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩ هـ) (رحمه الله)، تح: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢،: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٢.سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥هـ) (رحمه الله)، تح: مجدي بن منصور سيد الشوري، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٣.سنن الدارمي: أبو محمد عبد الله بن الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت ٢٥٥هـ) (رحمه الله)، (ب - ط)، سنة الطبع: ١٣٤٩هـ مطبعة: مطبعة الاعتدال، دمشق، سوريا.

٢٤.السنن الكبرى: أحمد بن الحسين

البيهقي (ت٤٥٨هـ) (رحمه الله)، نشر: دار الفكر، (ب - ط وت).

٢٥.الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٧م.

٢٦.صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ) (رحمه الله)، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (ب - ط).

٢٧.صحيح مسلم: مسلم النيسابوري (رحمه الله)، تح: مسلم نوري، نشر: دار فاكر، (ب - ط وت).

٢٨.عوالي اللئالي: الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي، (المعروف بالمحقق ابن أبي جمهور الأحسائي) (ت٨٨٠هـ) (قدس سره)، تح: آقا مجتبى العراقي، ط١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٩.العين: أحمد بن خليل الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢ - ١٤٠٩هـ.

٣٠.عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق(قدس سره)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، (ب - ط - و ت).

٣١.قواعد الأحكام: الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، تح: قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، نشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، ط١ - ١٤٢٤هـ - ق.

٣٢.الكافي في الفقه: الشيخ تقي الدين بن الحلبي (المعروف بأبي الصلاح الحلبي) (ت٤٤٧هـ)(قدس سره)، النشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، تح: رضا أستادي، (ب - ط).

٣٣.الكافي: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)(قدس سره)، تح: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط٣ - ١٣٦٧ش.

٣٤.المبسوط: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)(قدس سره)، تح: السيد محمد تقي الكشفي، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، قم،

إيران، (ب - ط)، ١٣٨٧هـ

٣٥.مختلف الشيعة: الشيخ جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، تح: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط٢ - ١٤١٣هـ

٣٦.المعتبر: الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن المحقق الحلي (ت٦٧٦هـ)(قدس سره)، تح: عدة من الأفاضل، نشر: مؤسسة سيد الشهداء، قم، إيران، (ب - ط)، ١٣٦٤هـ

٣٧.معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، إيران، (ب، ط)، ١٤٠٤هـ

٣٨.المقنعة: الشّيخ المفيد(قدس سره)، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط٢ - ١٤١٥هـ

٣٩.من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق(قدس سره)، الشيخ محمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي الصدوق (ت٣٢٩هـ)(قدس سره)، تح: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ط٢ - ١٤٠٤هـ

٤٠.منتهى المطلب: الشيخ جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)(قدس سره)، تح: قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، نشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، ط١ - ١٤٢٤هـ -ق.

٤١.المهذب: الشيخ عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (المعروف بالقاضي ابن البراج) (ت٤٨١هـ)(قدس سره)، تح: مؤسسة سيد الشهداء العلمية، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، (ب - ط)، ١٤٠٦هـ

٤٢.نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، تح:، تح: انتشارات بهمن، قم، إيران، (ب - ط - و ت).

٤٣.النهاية في مجرد الفقه والفتاوى: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) (قدس سره)، نشر: انتشارات

قدس محمدي، قم، إيران، (ب – ط – ونشر).

٤٤.نهج الحق وكشف الصدق: العلامة الحلي(قدس سره)، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، (ب – ط).

٤٥.الهادي فيما يحتاجه التفسير من المبادئ: الشيخ هادي كاشف الغطاء (ت١٤١٤هـ)(قدس سره)، نشر: مكتبة كاشف الغطاء، ١٤٢٣هـ العراق، النجف الأشرف، ٢٠٠٢م.

٤٦.وسائل الشيعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ) (قدس سره)، تح: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٥، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م.

الهوامش:

(١) العين: الخليل الفراهيدي (رحمه الله)، ٢ / ٢٢٩، ينظر: ترتيب إصلاح المنطق: ابن السكيت الأهوازي، ٢٧٢، ينظر: الصحاح: الجوهري (رحمه الله)، ٢ / ٥٦٦ – ٥٦٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا (رحمه الله)، ٤ / ١٨٤.

(٣) سورة الأنعام: آية: ١١٢.

(٤) الهادي فيما يحتاجه التفسير من المبادئ: الشيخ هادي كاشف الغطاء (ت١٤١٤هـ)(قدس سره)، ١٧.

(٥) ينظر: المصدر نفسه.

(٦) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٥٩.

(٧) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت٢٧٥هـ) (رحمه الله)، ١ / ١٧٦.

(٨) سورة النحل: آية: ٩٨.

(٩) ينظر: وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره)، ٤ / ٨٠١.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه: ٤ / ٨٠٠.

(١١) نهاية الإحكام: العلامة الحلي

(قدس سره)، ١ / ٤٦٠.

(١٢) سورة النحل: آية: ٩٨.

(١٣) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٠ - ٣١١، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٧.

(١٤) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٤٠ - ٤١.

(١٥) سورة النحل: آية: ٩٨.

(١٦) سورة المائدة: آية: ٧.

(١٧) تفسير مجمع البيان: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٦ / ١٩٨.

(١٨) ينظر: تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي(قدس سره)، ٣ / ١٢٥ - ١٢٦.

(١٩) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤١.

(٢٠) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٠، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٧.

(٢١) سورة النحل: آية: ٩٨.

(٢٢) الخلاف: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣٢٤ - ٣٢٥، مسألة: ٧٦.

(٢٣) ينظر: تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي(قدس سره)، ٣ / ١٢٦ - ١٢٨.

(٢٤) سورة النحل: آية: ٩٨.

(٢٥) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٢٨.

(٢٦) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٣٦٠.

(٢٧) المبسوط: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ١٠٥.

(٢٨) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤١.

(٢٩) سورة فصلت: آية: ٣٦.

(٣٠) المبسوط: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ١٠٥.

(٣١) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٢٨٩.

(٣٢) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٤١ - ٤٢.

(٣٣) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٢٨، نهاية الإحكام: العلامة الحلي(قدس سره)، ١ / ٤٦٠.

(٣٤) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٤٢.

(٣٥) منتهى المطلب: العلامة الحلي

(قدس سره)، ٥ / ٤٢.

(٣٦) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤١.

(٣٧) المصدر نفسه: ٥ / ٤٢.

(٣٨) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤٧، ينظر: تبصرة المتعلمين في أحكام الدين: العلامة الحلي(قدس سره)، ٤٦.

(٣٩) ينظر: تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠ – ٣١١.

(٤٠) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٥٢، قواعد الأحكام: العلامة الحلي(قدس سره)، ١ / ٢٧٤.

(٤١) الاستبصار: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣١٠ – ٣١١.

(٤٢) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٢٨٨.

(٤٣) الاستبصار: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣١١.

(٤٤) منتهى المطلب: علامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٩١ – ٩٣.

(٤٥) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ٢ / ٢٤٧، مسألة: ٨٥٥.

(٤٦) قواعد الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤٧.

(٤٧) إن ما بين القوسين زيادة من الباحث.

(٤٨) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠ – ٣١١.

(٤٩) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٧٢.

(٥٠) ينظر: الكافي في الفقه: أبو الصلاح الحلبي(قدس سره)، ١١٧، ينظر: المهذب: القاضي ابن البراج (قدس سره)، ١ / ٩٢.

(٥١) نقل هذا القول المحقق الحلي (قدس سره)، في المعتبر: ٢ / ١٨٠.

(٥٢) ينظر: السرائر: ابن إدريس الحلي(قدس سره)، ١ / ٢١٨.

(٥٣) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠ – ٣١١.

(٥٤) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي

(قدس سره)، ٢ / ٢٩٠.

(٥٥) الجمل والعقود في العبادات: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٧١.

(٥٦) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٩٣ - ٩٤.

(٥٧) ينظر: المهذب: القاضي ابن البراج(قدس سره)، ١ / ٩٢.

(٥٨) ينظر: الكافي في الفقه: أبو الصلاح الحلبي(قدس سره)، ١١٧.

(٥٩) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠ - ٣١١.

(٦٠) ينظر: السرائر: ابن إدريس الحلي(قدس سره)، ١ / ٢١٨.

(٦١) لم نعثر على (كتاب الأحمدي)، لابن الجنيد(قدس سره)، ونقل العلامة الحلي(قدس سره) رأياً لابن الجنيد (قدس سره) في كتابه (مختلف الشيعة).

(٦٢) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠ - ٣١١.

(٦٣) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق(قدس سره)، ١ / ٣٠٨.

(٦٤) ينظر: المبسوط: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ١٠٥.

(٦٥) الخلاف: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣٣١، مسألة: ٨٣.

(٦٦) النهاية في مجرد الفقه والفتاوى: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٧٦.

(٦٧) الاقتصاد: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢٦١.

(٦٨) جمل العلم والعمل: الشريف المرتضى(قدس سره)، ٥٩.

(٦٩) الجمل والعقود في العبادات: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٧١ - ٧٢.

(٧٠) ينظر: السرائر: ابن إدريس الحلي (قدس سره)، ١ / ٢١٨.

(٧١) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق (قدس سره)، ١ / ٣٩٢، وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره) ٤ / ٧٩٤.

(٧٢) مختلف الشيعة: العلامة الحلي (قدس سره)، ٢ / ١٥٤ - ١٥٧.

(٧٣) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٧١.

(٧٤) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٥٤.

(٧٥) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٨٩.

(٧٦) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٨، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٢.

(٧٧) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٩٤.

(٧٨) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ٢ / ٢٤٧، مسألة: ٨٥٥.

(٧٩) الرسالة السعدية: العلامة الحلي (قدس سره)، ١٠٣.

(٨٠) قواعد الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٧٢.

(٨١) ينظر: منتهى المطلب: العلامة الحلي(قدس سره)، ٥ / ٥٧.

(٨٢) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٦٨.

(٨٣) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ - ٣١٢ - ٣١٣، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١١.

(٨٤) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٣، الاستبصار: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣١١.

(٨٥) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٢٨٩.

(٨٦) سورة الحجر: آية: ٧٨.

(٨٧) التبيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٣ / ٣٥٣.

(٨٨) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٤٨ - ٥١.

(٨٩) في بعض الموارد تأتي عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله، وهنا أتت عن أمير المؤمنين عليه السلام، وفي بيان ذلك أكثر قال الشيخ الصدوق(قدس سره) في كتابه (عيون أخبار الرضا) عليه السلام: (وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن (بسم الله الرحمن الرحيم) أهي من فاتحة الكتاب ؟ فقال: نعم: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها ويعدها آية منها ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني)، عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق(قدس سره)، ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٩٠) المصدر نفسه: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٩١) المصدر نفسه: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٩٢) الكافي: الشيخ الكليني(قدس

سره)، ٣ / ٣١٢ - ٣١٣، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١١.

(٩٣) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦٢.

(٩٤) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٢ - ٣١٣، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٩.

(٩٥) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٣٢ - ١٣٣.

(٩٦) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤٣.

(٩٧) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦٢.

(٩٨) صحيح مسلم: مسلم النيسابوري (رحمه الله)، ٢ / ١٠.

(٩٩) ينظر: الخصال: الشيخ الصدوق (قدس سره)، ٤١٧.

(١٠٠) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦٨ - ٤٦٩، تحرير الأحكام: العلامة الحلي(قدس سره)، ١/ ٢٤٢.

(١٠١) إن ما بين القوسين من الباحث.

(١٠٢) عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الأحسائي(قدس سره)، ١ / ١٦٩، سنن الدارمي: أبو محمد عبد الله بن الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت٢٥٥هـ) (رحمه الله)، ١ / ٢٨٣، سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) (رحمه الله)، ١ / ١٥٦.

(١٠٣) ينظر: سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (رحمه الله)، ١/ ٢٧٣، صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (رحمه الله)، (ت٢٥٦ه)، ١ / ١٨٤.

(١٠٤) نهج الحق وكشف الصدق: العلامة الحلي(قدس سره)، ٤٢٤.

(١٠٥) سورة المزمل: آية: ٢٠.

(١٠٦) صحيح مسلم: مسلم النيسابوري (رحمه الله)، ٢ / ١٠.

(١٠٧) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي(قدس سره)، ٣ / ١٢٨.

(١٠٨) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٦٩ - ٧٠، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٤.

(١٠٩) الكافي: الشيخ الكليني(قدس

سره)، ٣ / ٣١٣، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٩، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١١.

(١١٠) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٧١، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٤.

(١١١) المصدر نفسه: ٢ / ٧١، وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره)، ٤/ ٧٣٤.

(١١٢) المصدر نفسه: ٢/ ٧١، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٥.

(١١٣) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٧١..

(١١٤) ينظر: تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٢٩٠.

(١١٥) المصدر نفسه: ٢/ ٧١، حديث رقم: ٣١.

(١١٦) مختلف الشيعة: العلامة الحلي(قدس سره)، ٢/ ١٤٣ - ١٤٥.

(١١٧) سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (رحمه الله)، ١/ ٢٧٣.

(١١٨) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٧، تهذيب الأحكام: الشيخ الطووسي(قدس سره)، ٢ / ١٤٦ .

(١١٩) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦١.

(١٢٠) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ١٤٧.

(١٢١) سورة المزمل: آية: ٢٠.

(١٢٢) السورة نفسها والآية نفسها.

(١٢٣) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢/ ١٤٦، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣٥٣.

(١٢٤) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٧٠.

(١٢٥) إرشاد الأذهان: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٥٣.

(١٢٦) تبصرة المتعلمين: العلامة الحلي (قدس سره)، ٤٦.

(١٢٧) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦٩.

(١٢٨) قواعد الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٧٢.

(١٢٩) عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور

الأحسائي (قدس سره)، ١ / ١٩٦.

(١٣٠) المصدر نفسه: ١/ ١٩٦، السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) (رحمه الله)، ٢ / ٣٤٥.

(١٣١) الرساله السعدية: العلامة الحلي(قدس سره)، ١٠١ - ١٠٢، تحرير الأحكام: العلامة الحلي(قدس سره)، ١ / ٢٤٢.

(١٣٢) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٧، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ١٤٦، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣٥٤.

(١٣٣) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٢٨ - ١٢٩.

(١٣٤) صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (رحمه الله) (ت٢٥٦هـ)، ١ / ١٨٤.

(١٣٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥هـ) (رحمه الله)، ١ / ٢٨٠.

(١٣٦) والرواية: (عن محمد بن مسلم قال: سألته عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب في صلاته، قال: لا صلاة له إلا أن يبدأ بها في جهر أو إخفات قلت: أيهما أحب إليك إذا كان خائفا أو مستعجلا يقرأ بسورة أو بفاتحة الكتاب ؟ قال: بفاتحة الكتاب). تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ١٤٧، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٠، منهى المطلب، الحلي :٤٦/٥.

(١٣٧) إرشاد الأذهان: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٥٣.

(١٣٨) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤٢.

(١٣٩) ينظر: صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (رحمه الله)، ١/ ١٨٩، باب يقرأ في الأخريين بفاتحة الكتاب.

(١٤٠) ينظر: سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، (رحمه الله)، ١ / ١٥١.

(١٤١) ينظر: الكافي: الشيخ الكليني (قدس سره)، ٣ / ٣١٣، ينظر: تهذيب الأحكام الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٩، ينظر: الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١١.

(١٤٢) ينظر: وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره)، ٤ / ٧٣٥.

(١٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤/ ٧٣٤، حديث رقم: ٥.

(١٤٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤/ ٧٣٤، حديث رقم: ٤.

(١٤٥) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦١.

(١٤٦) وهو هشام بن إبراهيم العباسي نسبة إلى كتابه الذي ألفه وأنفذه إلى هارون الرشيد في إمامة العباس عم النبي صلى الله عليه وآله، وهذا الرجل من أعداء الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام وقد وردت في ذمه روايات جمة، ينظر: رجال ابن الغضائري: أحمد بن الحسين الغضائري الواسطي البغدادي (ق٥) (قدس سره)، تح: السيد محمد رضا الجلالي، نشر: دار الحديث، قم، إيران، ط ١٤٢٢هـ - ١٣٨٠ش، ١١٦، ينظر: خلاصة الأقوال: العلامة الحلي (قدس سره)، ٤١٥، ينظر: جامع الرواة: محمد علي الأردبيلي (ت١١٠١هـ) (قدس سره)، ٢ / ٣١٢.

(١٤٧) ينظر: الكافي: الشيخ الكليني (قدس سره)، ٣/ ٣١٣، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢/ ٦٩، ينظر: الاستبصار: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣١١.

(١٤٨) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي(قدس سره)، ٣ / ١٣٠ - ١٣١.

(١٤٩) مختلف الشيعة: العلامة الحلي (قدس سره)، ٢/ ١٤٢، ينظر: قواعد الأحكام: العلامة الحلي(قدس سره)، ١ / ٢٧٢.

(١٥٠) ينظر: المقنعة: الشّيخ المفيد(قدس سره)، ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧، ينظر: الخلاف: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١/ ٣٣٥ مسألة: ٨٦، السرائر: ابن إدريس(قدس سره)، ٢١٧.

(١٥١) النهاية: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٧٥.

(١٥٢) الخلاف: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٣٣٥، مسألة: ٨٦، المبسوط: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ١٠٦ - ١٠٧.

(١٥٣) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣/ ٣١٣، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٦٩، ينظر: الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١١.

(١٥٤) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ١ / ٦٩ - ٧٠، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٤.

(١٥٥) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق(قدس سره)، ١ / ٣٠٠ - ٣٠٢، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٨١ - ٨٢.

(١٥٦) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٧٠، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٤.

(١٥٧) المصدر نفسه: ٢ / ٧١، حديث رقم: ٢٨.

(١٥٨) الكافي: الشيخ الكليني(قدس سره)، ٣ / ٣١٣، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٧٠، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره) ،١ / ٣١٥.

(١٥٩) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٧٠، الاستبصار: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ١ / ٣١٥.

(١٦٠) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٧٢.

(١٦١) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٥٤ - ٥٧.

(١٦٢) إرشاد الأذهان: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٥٣.

(١٦٣) تبصرة المتعلمين في أحكام الدين: العلامة الحلي(قدس سره)، ٤٦.

(١٦٤) وسائل الشيعة: الحر العاملي (قدس سره)، ٤ / ٧٩٤.

(١٦٥) تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي (قدس سره)، ٣ / ١٣٢.

(١٦٦) قواعد الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٧٣.

(١٦٧) تحرير الأحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٢٤٢.

(١٦٨) ينظر: تهذيب الأحكام: الشيخ

الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٢٩٥.

(١٦٩) المصدر نفسه: ٢ / ٩٨ .

(١٧٠) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٧١ – ٧٢.

(١٧١) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي(قدس سره)، ٢ / ٩٧.

(١٧٢) والحديث: (عن عبيد بن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرّكعتين الأخيرتين من الظّهر، قال: تسبّح وتحمد الله وتستغفر لذنبك، وإن شئت فاتحة الكتاب فإنّها تحميد ودعاء)، تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢ / ٩٨.

(١٧٣) منتهى المطلب: العلامة الحلي (قدس سره)، ٥ / ٧٢ – ٧٣.

(١٧٤) في الوسائل ما يدل على ذلك: وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره)، ٤ / ٧٩٤، و:تذكرة الفقهاء، الحلي: ١٢٣/٣.

(١٧٥) الرسالة السعدية: العلامة الحلي(قدس سره)، ١٠٦.

(١٧٦) في الوسائل ما يدل على ذلك: ينظر: وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره)، ٤ / ٧٩٤.

(١٧٧) وسائل الشيعة: الحر العاملي (قدس سره)، ٤ / ٧٩٢.

(١٧٨) المصدر نفسه: ٤/ ٧٩٢، حديث رقم: ٣.

(١٧٩) والحديث: (عن محمد بن الحسن بن علان عن محمد بن حكيم قال سألت أبا الحسن عليه السلام أيما أفضل القراءة في الركعتين الأخيرتين أو التسبيح؟، فقال القراءة أفضل)، المصدر نفسه: ٤ / ٧٩٤، حديث رقم: ١٠، قال الحر العاملي (قدس سره) بهذا الحديث: (هذا محمول على التقية على السائل لاختلاطه بالعامة وإنكارهم التسبيح والله أعلم)، المصدر نفسه: ٤ / ٧٩٤.

(١٨٠) والحديث: (عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كنت إماما فاقرأ في الركعتين الأخيرتين بفاتحة الكتاب وإن كنت وحدك فيسعك فعلت أو لم تفعل)، المصدر نفسه: ٤ / ٧٩٤.

(١٨١) والحديث: (عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن كنت خلف الإمام في صلاة لا يجهر فيها

بالقراءة حتى يفرغ، وكان الرجل مأمونا على القرآن فلا تقرأ خلفه في الأولتين وقال: يجزيك التسبيح في الأخيرتين قلت: أي شيء

(١٨٢) تقول أنت ؟، قال: أقرأ فاتحة الكتاب)، المصدر نفسه: ٤ / ٧٩٤، حديث رقم: ١٢، قال الحر العاملي (قدس سره)، بهذا الحديث: (الظاهر أنه مخصوص بالمأموم ويحتمل التقية)، المصدر نفسه: ٤ / ٧٩٤.

(١٨٣) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (قدس سره)، ٢/ ٩٨، وسائل الشيعة: الحر العاملي(قدس سره) ٤ / ٧٨٢ .

(١٨٤) نهاية الإحكام: العلامة الحلي (قدس سره)، ١ / ٤٦٩، ٤٧٠.

١٠
مرجعية أهل البيت
في تأسيس قواعد
فهم النص القرآني
م. م. ساجد صباح ميس العسكري

خلاصة البحث:

أسس المعصومون مجموعة من القواعد التفسيرية، بعض تلك القواعد عائد لقارئ النص، ومنها ما هو عائد للنص نفسه، ومنها ما هو عائد لمنشئ النص، ومعرفة تلك القواعد تساعد القارىء في فهم مراد المولى.

وبعض تلك القواعد نصوا عليها صراحة، وبعضها فهمت من تفسيرهم لنصوص القرآن الكريم.

ومن أهم القواعد التي أسست في ضوء مرويات المعصومين عليهم السلام: قاعدة الجري والانطباق، وقاعدة تفسير القرآن بالقرآن، وقاعدة البطون القرآنية، وقاعدة تعدد الوجوه القرآنية، وقاعدة تفاوت مستويات الفهم، وقاعدة منع التفسير بالرأي...الخ.

وتناول البحث القواعد المتعلقة بقارئ النص التي لم تحضَ بنصيب وافر من البحث في كتب الأعلام، وهذه الدراسة لبعض القواعد وليست استقراءً تامًا لجميعها.

الكلمات الرئيسة:

المعصوم، قواعد التفسير، النص.

مقدمة:

بعض القواعد التفسيرية مصدرها اجتهادي ناتجة عن تصورات أو استقراءات أو فهم جزئي أو ناقص من قبل المفسر للنص، أو من تصورات خارجة عن النص متحصلة من الذوق والعرف اللغوي وغيرها من الاتجاهات[1].

فربما يأتي مختص في مجال معرفي معين ويحاول فهم النص القرآن على وفق الأسس التي عنده، أو يأتي المهندس ويقرأ القرآن على وفق الأسس التي عنده، وكلٌ ينطلق بحسبه.

فرضية البحث واشكاليته:

لكي نفهم الكلام الإلهي بصورة صحيحة لابد من الرجوع إلى مجموعة من الأسس والمنطلقات التي توفر إمكانية هذا الفهم، إذ يمكن لأي شخص أن يفسر القرآن الكريم من دونَ وجود آليات وقواعد وأسس ومقدمات منهجية.

وما هذا البحث إلا محاولة للكشف عن بعض الأسس التي تولدت في ضوء مرويات أهل البيت عليهم السلام عن

الأسس التي يفهم بها القرآن بصورة صحيحة، وهذه الأسس والقواعد تؤخذ من المعصومين عليهم السلام؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله (عز وجل).

أهم المباحث الرئيسة:

قاعدة مرجعية الإنسان في فهم النص القرآني، وهذه القاعدة تبين تأكيد المعصومين عليهم السلام دور الإنسان في الكشف عن مضامين القرآن، وهذا لا يعني أن يكون الإنسان منتجاً لها بل دوره الكشف والتبيين.

قاعدة تفاوت مستويات الفهم وضرورة اتّباع الأفضل، ففي ضوء مرويات أهل البيت عليهم السلام يتضح أن فهم النص القرآني ليس بمستوى واحد، بل هناك مستويات متفاوته بحسب الاستعدادات والقابليات، وعليه لابد من الرجوع إلى أفضل تلك المستويات في مقام الترجيح.

قاعدة مَن المخاطب؟، وهذه القاعدة تأسست لدفع التوهم الذي قد يحصل عند بعضهم في خصوص آيات عتاب الأنبياء ونسبة الذنب لهم ظاهراً، فالخطاب وإن كان موجهاً للنبي بوصفه المتلقي الأول للنص، ولكن قد يكون المقصود به غيره؛ لأن فهم بعضهم لا يستقيم مع مبدأ العصمة، وعليه لابد من البحث عن المقصود بالخطاب فعلا.

قاعدة البحث عن قصدية المولى سبحانه، فقد أكد الأئمة عليهم السلام ضرورة البحث عن قصدية المولى، فالنص القرآني ليس كالنصوص الأدبية التي لا يراعى فيها قصد المتكلم، فلا يصح التفسير من دون مراعاة قصد المولى تعالى.

وقاعدة منع التفسير بالرأي، فعند مراجعة نصوص الأئمة عليهم السلام في ما يخص التفسير بالرأي نجدها تنهى نهياً شديداً عن ذلك؛ لأن ذلك يعني الابتعاد عن قصدية المولى وتفسير القرآن بالذوق الشخصي، وهذا لا يعني منع التفسير الاجتهادي بإعمال العقل والتدبر في آيات الله سبحانه، بل المقصود النهي عن فرض الرأي الشخصي على النص القرآني.

أهم المصادر:

كتب الحديث ككتاب الكافي للكليني،وبحارالأنوارللمجلسي،وبعض كتب علوم القرآن والتفسير.

توطئة:

هناك آليات وقواعد كثيرة ذكرها أئمة أهل البيت عليهم السلام منها ما هو عائد إللى قارئ النص أو المفسر كقاعدة (مراعات تعدد مستويات الفهم)، وقاعدة (من المخاطب)...إلخ، ومنها ما هو عائد إلى طبيعة النص نفسه، كقاعدة (تعدد السياق)، وقاعدة (الجري والانطباق) ...إلخ.

فيجب على قارئ النص أن يراعي ما هو خاص به، وما هو خاص بالنص، فإنّ قراءة النص في ضوء تلك القواعد قد تمكننا من مقاربة مراد المولى، وعلى أقل تقدير يدخلنا ضمن دائرته الأوسع، ويكون هذا التفسير مقبولاً عند الشارع المقدس، وقبل الخوض في تفاصيل بعض القواعد التي تأسست في ضوء مرويات المعصومين عليهم السلام لابد من التنبيه على جملة من الملاحظات التأسيسية التي تحقق شرعية أحقية المعصوم في تأسيس قواعد الفهم وهي:

الملاحظة الأولى: إن التعاطي مع النص القرآني على مستوى العبارة وما يفرزه من تفاوت في الفهم إما أن يكون نابعاً من اختلاف في مستوى الإدراك بحسب المقدمات المعرفية للمفسر والمؤهلات الشخصية له، أو بحسب عمق المضمون القرآني، وهذا التفاوت وإن كان يعطي من الناحية العملية والشرعية أيضاً أولوية لتقديم من كان أجود فهماً مما هو أقل، إلا أنه لا يعطي أحقية شرعية لذلك المفسر لتأسيس قواعد الفهم ؛ لأنّ القواعد أمورٌ تأسيسية لابد أن تنبع من المصدر نفسه الذي أنزل القرآن إنشاءً وإقراراً، حتى يتميز الكتاب العزيز عن غيره من الكلام البشري[٢].

الملاحظة الثانية: إن علاقة المعصوم بالنص علاقة وجودية، بمعنى أن

الارتباط بالنص لا يأتي من مقام العبارة، بل يأتي من العلقة الوجودية مع المتمثل للحقيقة القرآنية، وعلى هذا فإن من كان علة للقرآن أو إن ارتباطه بالقرآن علياً ليس كمن كان ارتباطه بالقرآن معرفياً، فالنبي في عقائدنا هو الصادر الأول[٣]، ومن ثَمَّ فإن له الأولوية الوجودية عن مضمون القرآن وبيان حقيقته، وبيان القواعد التي توفر إمكانية فهمه أو الوصول إلى مبتغاه، خلافاً للقاري الصاعد في القرآن فإنه - وإن كان قد يتحقق في بعض الأحيان بالقرآن- إلا أن تحققه متوقف على فهمه؛ إذ العلاقة صعودية، خلافاً لعلاقة النبي بالقرآن فإن علاقته نزولية[٤]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

الملاحظة الثالثة: مما تقدم يتبين أن تفاوت إدراك القرآن لا ينشأ من أساس واحد، فقد تنشأ من البعد الوجودي، وقد تنشأ من البعد المعرفي، ولكل واحد ما يقتضيه، فاقتضاءات البعد الوجودي هو بيان حقيقة القرآن في بعده الظاهر والباطن، وبيان مصاديق القرآن وبيان تأويل القرآن وبيان الأسس التي ينبغي للمفسر أو المريد للقرآن أن يسلكها ليكون على الجادة الصحيحة.

الملاحظة الرابعة: إن تأسيس البحث يعتمد على مرويات أهل البيت عليهم السلام بقطع النظر عن صحة السند وعدمه؛ إذ هي قواعد للفهم، ولها ما يصدقها في سلوك العقلاء.

الملاحظة الخامسة: هذه الدراسة هي لبعض القواعد وليست استقراءً تامّاً لجميعها، وسيقتصر الحديث في هذا البحث على أهم القواعد المتعلقة بالمتلقي التي أسست في ضوء مرويات أهل البيت عليهم السلام، ومن تلك القواعد:

أولاً: مرجعية الإنسان في فهم القرآن الكريم:

وهذه القاعدة من ضمن القواعد المتعلقة بقارئ النص، فمما أكده أهل

البيت عليهم السلام هو دور القارئ والمتلقي في استنباط المعنى واستظهار الدلالة القرآنية .

ففي نهج البلاغة يؤكد الإمام علي عليه السلام هذه الحقيقة بقوله: «... وهذا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بلسَان، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَان، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ»[٦].

فلا تتحقق الغاية التي نزل من أجلها القرآن إلا أن ينطق به الرجال وهذا النطق معناه التفسير والفهم. فلابد من ناطق عن القرآن ومثير لمعاني القرآن الكريم وهذه الرواية تبين لنا أهمية هذه القاعدة، وتأكيد أهل البيت عليها؛ لأن مرجعية الإنسان عنصر مهم في الكشف عن مضامين القرآن الكريم، ويتحدد دور الإنسان بوصفه مبرزاً وكاشفاً ومبيناً للمضامين القرآنية، لا بوصفه منتجاً لها كما أسس له في نظريات التلقي والتأويلية الحديثة[٧].

وبناءً على ما تقدم فالقرآن الكريم ليس مستغلقاً ولا مبهماً على الإنسان، وقد صرح القرآن الكريم في آيات عديدة بأنه واضح ولا غموض فيه، وبأنه نور وتبيان للناس ويدعو إلى التدبر في آياته، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾[١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١١]، وكونه تبيان لا يلغي احتياجه إلى مبين، فسبب اختلاف مستويات الفهم عند الناس وقصورهم أو تقصيرهم في تفصيل الأدوات التي تعين على فهم المراد الإلهي كاللغة والأحاديث وأسباب النزول ... تفاوتت استظهارهم من النص القرآني.

فكثيراً ما نجد أن الأئمة عليهم السلام يؤكدون هذه المرجعية في روايات كثيرة وبألسن مختلفة ويكررون السؤال في مقام الاحتجاج: أما قرأت القرآن؟ أما قرأت كتاب الله؟ أما تدبرت كتاب الله؟.

ففي الرواية عن ديلمٍ بن عمر قال: «كنت بالشام حتى أتي بسبايا آل محمد فأقيموا على باب المسجد حيث تقام السبايا، وفيهم علي بن الحسين عليه السلام فأتاهم شيخ من أشياخ أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم، وأهلككم، وقطع قرن الفتنة - ولم يأل عن شتمهم - فلما انقضى كلامه قال له علي بن الحسين: إني قد أنصتُّ لك حتى فرغتَ من منطقك، وأظهرتَ ما في نفسك من العداوة والبغضاء فأنصتْ لي كما أنصتُّ لك، فقال له: هات، قال علي عليه السلام: أما قرأت كتاب الله عز وجل؟، فقال: نعم، قال: أما قرأت هذه الآية ﴿قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾؟، قال: بلى، فقال له علي عليه السلام: فنحن أولئك، فهل تجد لنا في سورة بني إسرائيل حقا خاصة دون المسلمين؟ فقال: لا، قال علي بن الحسين: أما قرأت هذه الآية ﴿وآت ذا القربى حقه﴾؟، قال: نعم، قال علي عليه السلام: فنحن أولئك الذين أمر الله (عز وجل) نبيه صلى الله عليه وآله أن يؤتيهم حقهم فقال الشامي: إنكم لأنتم هم؟، فقال علي عليه السلام: نعم، فهل قرأت هذه الآية ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾؟، فقال له الشامي: بلى، فقال علي: فنحن ذوو القربى، فهل تجد لنا في سورة الأحزاب حقاً خاصة دون المسلمين؟ فقال: لا، قال علي: أما قرأت هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا﴾؟، قال: فرفع الشامي يده إلى السماء ثم قال: اللهم إني أتوب إليك ثلاث مرات، اللهم إني أتوب إليك من عداوة آل محمد، ومن قتل أهل بيت محمد، ولقد قرأت القرآن منذ دهر فما شعرت بها قبل اليوم»[١٢].

وعن الكليني بسنده عن أبي هشام الجعفري عن الإمام الرضا عليه السلام: (قال: سألته عن الله هل يوصف؟ فقال: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: أما تقرأ

قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾؟ قلت: بلى قال: فتعرفون الأبصار؟ قلت: بلى قال: ما هي؟ قلت: أبصار العيون فقال: إن أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون فهو لا تدركه الأوهام)[١٣].

وهذا يعني توجيه الإنسان بإمكانية تواصله مع القرآن تواصلاً مباشراً إذا كانت لديه إمكانيات هذا التواصل؛ لأن الإمام ليس في مقام الإشارة إلى القراءة اللفظية، وإنما يقصد التدبر وفهم مضامين القرآن الكريم.

وتتضح قيمة هذه القاعدة من الناحية المعرفية إذا نظرنا إلى الواقع فإننا نجد أن هناك اتجاهات معرفية تمنع تواصل الإنسان تواصلاً مباشراً مع القرآن، وتعتبر أن القرآن الكريم عبارة عن الغاز أو شفرات خاصة لا سبيل لمعرفتها، إذ ترى أن في القرآن آيات متشابهة لا سبيل لمعرفة المقصود منها، ويجب إيكال علمها إلى الله سبحانه، فهم يرون أنها من الأمور التي أختص بها الله سبحانه[١٤].

ثانيا: تفاوت مستويات الفهم وضرورة اتّباع الأفضل:

التفاوت في مستويات الفهم سببه اختلاف القابليات والاستعدادات عند المتلقي، فقد يفهم المعصوم معنى غير المعنى الذي يفهمه غيره مع عدم وجود تعارض بين المعنيين؛ لأن كل منهما فهم في مرتبة معينة من الفهم، ولا تعارض بينهما؛ لأن العلاقة بين المعاني علاقة طولية وكأنها طبقات، الواحدة فوق الأخرى.

وإذا كانت المعاني متعارضة فلابد من الترجيح فيما بينها والأخذ بالصحيح منها.

وهذه القاعدة تقنن القاعدة الأولى فبعدما ثبت أن للإنسان مرجعية في فهم النص القرآني، فوضع المعصوم هذه القاعدة، لكي لا تترك على عواهلها بل هناك مستويات من الفهم ومراتب متعددة ولابد من ترجيح الأفضل منها.

فالإنسان غير المعصوم قد يفهم بحدود فهمه، ولكن هذا الفهم قد لا يكون حجة على غيره[١٥].

وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون، ومن تلك الروايات ما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولكن لا ينطق ولكن أخبركم عنه»[١٦].

وفي رواية طويلة الذيل عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «...إن الله قسم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل، وقسما لا يعرفه إلا من صفا ذهنه، ولطف حسه، وصح تمييزه، ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسما لا يعلمه إلا الله وملائكته والراسخون في العلم.

وإنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله من علم الكتاب، ما لم يجعله الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمام بمن ولي أمرهم، فاستكبروا عن طاعته»[١٧].

فالرواية المتقدمة تشير إلى أنّ هناك مستويات متعددة للفهم وأعلى تلك المستويات ما يكون عند المعصوم عليه السلام.

وفي حديث طويل للإمام الصادق عليه السلام مع قتادة قال له: «إنما يعرف القرآن من خوطب به»[١٨].

وحينما يختلف المسلمون ويتنازعون في فهم النص القرآني فلابد من الرجوع إلى المعصوم بوصفه يمتلك أعلى مراتب الفهم، وهذا ما أكدته كثير من الروايات، ومن تلك الروايات ما رواه الكليني بسنده عن أبي عبدالله المؤمن عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي فيه خبر السماء وخبر الارض، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال الله عزوجل: ﴿فيه تبيان كل شيء﴾»[١٩].

وعن المعلى بن خنيس عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من أمر يختلف فيه إلا وله أصل في كتاب الله ولكنه لا تبلغه عقول الرجال»[٢٠].

وسبب الرجوع إلى المعصومين عليهم السلام كونهم بلغوا القمة في معرفة القرآن

الكريم وتحدثوا عنه بحديث العارف بكل حدوده كما تقدم في رواية المعلى عن الإمام الصادق، فهناك مراتب في القرآن الكريم لا تدركها عقول الناس العاديين، وإنما هو خاص بمن اصطفاه الله، وهذا النموذج يمثل المرجع الأعلى لتحديد المراد الإلهي.

ومما يؤكد هذه المرجعية التي امتلكها أهل البيت ما نجده في كلام الإمام الصادق عليه السلام في حواره مع أبي حنيفة وبيان أن من له الأهلية لفهم القرآن هو المعصوم، وغير المعصوم لا يملك الفهم الكامل للقرآن الكريم، ففي الرواية عن محمد بن الحسن، بسنده عن شبيب بن أنس، عن بعض أصحاب أبي عبدالله عليه السلام: إن أبا عبدالله عليه السلام قال لأبي حنيفة: أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، قال: يا أبا حنيفة! تعرف كتاب الله حق معرفته؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة! لقد ادّعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وما ورثك الله من كتابه حرفا ـ وذكر الاحتجاج عليه إلى أن قال: يا أبا حنيفة! إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله، ولم تأتِ به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال: أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأيي، فقال: يا أبا حنيفة! إن أول من قاس إبليس الملعون، قاس على ربنا تبارك وتعالى، فقال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) قال: فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة! أيما أرجس؟ البول، أو الجنابة؟ فقال: البول، فقال: فما بال الناس يغتسلون من الجنابة، ولا يغتسلون من البول؟ فسكت، فقال: يا أبا حنيفة أيما أفضل؟ الصلاة، أم الصوم؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي صومها، ولا تقضي صلاتها؟ فسكت»[٢١].

وهناك رواية تشير إلى أن الله فوض إليهم فهم القرآن الكريم، وتفهيمه للناس بحسب استعدادهم وقابلياتهم، ففي الرواية عن الكليني بسنده عن أبي إسحاق النحوي قال: «دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فسمعته يقول: إن الله عز وجل أدب نبيه على محبته فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ثم فوض إليه فقال عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وقال عز وجل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ قال: ثم قال وإن نبي الله فوض إلى علي وائتمنه فسلمتم وجحد الناس فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا ونحن فيما بينكم وبين الله عز وجل، ما جعل الله لأحد خيرا في خلاف أمرنا»[٢٢].

وبسنده عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تبارك وتعالى استكمال حجتي على الأشقياء من أمتك من ترك ولاية علي والأوصياء من بعدك، فإن فيهم سنتك وسنة الأنبياء من قبلك، وهم خزاني على علمي من بعدك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد أنبأني جبرئيل عليه السلام بأسمائهم وأسماء آبائهم»[٢٣].

وممّا تقدم يتبين أن الإنسان غير المعصوم، إنما يدرك من القرآن بمقدار طاقته واستعداده، وهذا الفهم لا يوصله إلى الحقيقة الكاملة، وما نجده عند المعصومين عليهم السلام يمثل أعلى مستويات الفهم، وعليه فلابد من ترجيح قولهم على غيرهم مع مراعاة المنهج العلمي للتعامل مع الروايات.

ثالثاً: قاعدة من المخاطب:

من القواعد المهمة في التفسير هي قاعدة من المخاطب؟ أي: معرفة المقصود بالخطاب الذي وجه له الخطاب، وليس الحديث هنا عن من يفهم الخطاب.

فالقرآن الكريم بوصفه شاملاً وفيه مستويات متعددة من الخطاب، فلابد من معرفة المعنى بالخطاب، فبعض

خطابات القرآن الكريم قد توجه إلى شخص ويراد منها شخص آخر أو مجموعة من الناس، وهذا يفهم في ضوء ما أسسته مدرسة أهل البيت في قاعدة «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فالقاعدة من حيث معناها واضح ففي كثير من استعمالاتنا نستعمل القاعدة في حياتنا اليومية لأغراض التأدب ومراعات البعد النفسي والأخلاقي، وفي مقام التعامل مع القرآن في ضوء هذه القاعدة ستتضح كثير من الإشكاليات التفسيرية ولاسيما ما يتعلق بعصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقد ورد في الرواية أن الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن المقصود بآيات عتاب النبي صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: «هذا ممّا نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله (عز وجل) بذلك نبيه صلى الله عليه وآله وأراد به أمته»[٢٤].

فقد يكون الخطاب موجهاً إلى النبي بوصفه المتلقي الأول للنص، ولكن ليس هو المقصود به، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٢٥]، فقد اجتهد المفسرون في تأويل دلالة الآية الكريمة لكي تنسجم مع مبدأ العصمة فطرحت آراء كثيرة في ذلك منها[٢٦].

أن الذنب المذكور في الآية ليس ذنب النبي، وإنما هو ذنب أمته، وأضيف إليه تجوزاً، من باب إقامة المضاف إليه مقام المضاف المحذوف والتقدير (ليغفر الله ذنب أمتك)[٢٧]، على وفق قاعدة (إياك أعني واسمعي يا جارة) التي تستخدم كثيراً في أساليب الكلام العربي.

فمن خلال هذه القاعدة يمكن دفع الإشكال دون الخوض في تأويل دلالة الآية والآيات الأخرى التي ظاهرها نسبة الذنب للنبي محمد صلى الله عليه وآله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٢٨]، فتلك النصوص بدون تصرف في الدلالة أو عدم فهمها في

ضوء قاعدة «من المخاطب؟» لا يستقيم مع مقام النبوة، فمن خلال هذه القاعدة يمكن أن يكون الخطاب يُقصد به أمة النبي بقاعدة (إياك أعني واسمعي يا جارة).

رابعاً: قاعدة البحث عن قصدية المولى سبحانه:

قبل الخوض في البحث عن ماهية هذه القاعدة وتأسيساتها في ضوء مرويات أهل البيت عليهم السلام لابد من معرفة تقسيمات الكلام عند علماء الأدب، فهم يقسمونه على قسمين هما[٢٩]:

القسم الأول: الكلام التداولي: وهو الكلام الذي نتداوله في حياتنا اليومية كالبيع والشراء ومختلف التعاملات الأخرى، وفي هذا القسم تكون الدلالة في قلب الحدث اللساني، وعليه لابد للرجوع إلى المتكلم لمعرفة قصده ومراده.

القسم الثاني: الخطاب الأدبي: وهو الخطاب الخاص بالنصوص الأدبية، وفيه لابد من التحرر من قيد المتكلم وظروفه الزمانية، لذا يأخذ النص مداه عبر الأزمنة والأمكنة، فيأخذ النص والمتلقي على عاتقيهما مسؤولية الدلالة.

فلو كان النص الأدبي ممّا تتعلق دلالته بمراد المتكلم، لكان النص ميت بموت مؤلفه؛ لأنه يتحدث عن جزئية حدثت في زمان ومكان معينين ومن ثم انتهت فينتهي النص.

ولكن يمكن للنص الأدبي أن تتولد منه دلالات ومعان كثيرة تبعاً لطبيعة التركيبة اللغوية، وتبعاً لمستوى المتلقي من خلال تصوراته الذهنية وانطباعاته النفسية فكل نص يقوم على ثلاثة عناصر هي: المرسل (المتكلم)، والنص نفسه، والمتلقي (القارئ). ويمكن للمتلقي (الناقد الأدبي) أن يتقول على الكاتب أو الأديب من خلال الإيحاءات اللغوية فيحمل النص على غير ما يقصده المتكلم.

ففي الدراسات الأدبية عادةً ما يكون التركيز على الشفرة لا على الدلالة، وبذلك يمكن التحرر من قيد

المؤلف ويبقى عنصرا النص والمتلقي هما مَن ينتجان دلالة النص.

وقد يتساءل بعض المهتمين بالشأن القرآني والأدبي: هل النص القرآني كالنص الأدبي؟، وهل المعنى في النص القرآني معنى نصي؟، أم يمكن اكتشافه من خلال انطباعات المتلقي وتصوراته؟، أم مِن خلال معرفة منشئ النص؟، وهو المولى سبحانه وتعالى، ومقصد المولى يعني الغاية، والمعنى النهائي، أو المراد الجدي كما يعبر عنه في علم الأصول.

وعند الرجوع لنصوص أهل البيت عليهم السلام نجد أنهم يؤكدون قاعدة قصدية المولى سبحانه، فالنص القرآني ليس كالنص الأدبي، فلا يمكن استعمال نظريات النقد الأدبي للبحث عن قصدية النص القرآني. ومن النصوص التي أسست لهذه القاعدة محاورة الإمام الحسن العسكري مع الفيلسوف الكندي، فقد نقل ابن شهرآشوب في مناقب آل أبي طالب: «أن إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه، أخذ في تأليف تناقض القرآن، وشغل نفسه بذلك وتفرد به في منزله، وأن بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام الحسن العسكري، فقال له أبو محمد عليه السلام: أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله القرآن؟، فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟، فقال له أبو محمد: أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم، قال: فَصِرْ إليه وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في ذلك فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها؟، فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟، فإنه سيقول لك: إنه من الجائز؛ لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك

فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعا لغير معانيه. فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد علي، فأعاد عليه، فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملا في اللغة وسائغا في النظر، فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك؟، فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة فعرفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد، فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه»[٣٠].

فالإمام عليه السلام يريد أن ينبه على أمر مهم وهو عدم جواز تفسير القرآن بالذوق الشخصي، وحسب الخلفيات الفكرية، بل لابد من البحث عن مراد المولى حتى يتحرر النص من تصورات الأدباء والنقاد، ولا يمكن للناقد أن يُلقي بضلاله على النص القرآني، فمفسر النص القرآني ليس كناقد النص الأدبي، فالمفسر للنص القرآني لا يتعدى دوره الكشف عن المعنى، بينما الناقد الأدبي يمكن له إنتاج معنى غير الذي قصده المتكلم، وما يؤكد ذلك معنى مفردة (فسر) التي تعني الكشف والبيان[٣١].

ومن الروايات التي أكدت أهمية قاعدة قصدية المولى سبحانه ما روي عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في حديث طويل كجواب لسائل قال: «وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان: فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله به ولا ما عني رسول الله صلى الله عليه وآله، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله»[٣٢].

فالرواية المتقدمة تُشير صراحةً إلى شرط بحث المفسر عن المقصد الإلهي؛ حتى تكون النتائج التي يتحصل عليها

صحيحة ومقبولة من قبل الشارع، ولا يمكن القبول بكل ما ينقدح في الذهن من تصورات، فهي أحياناً تكون تقول على الله خلافاً لما يريد سبحانه.

يبقى أن نشير إلى أمر مهم وهو أن المقصد الإلهي يمكن أن يتحصل من خلال النص نفسه أو من خلال ضم آية إلى أخرى، ويمكن أن يتحصل من خارج النص كالعقل والنقل أو غيرهما من خلال استعمال القواعد التفسيرية الأخرى. إذن، فمدرسة أهل البيت عليهم السلام تؤكد أهمية البحث عن قصد المولى سبحانه، كما أنها ترى شمولية القواعد التفسيرية وتداخلها للحصول على القصد الإلهي أو على أقل تقدير مقاربته.

خامساً: قاعدة منع التفسير بالرأي (الفهم الشخصي):

ورد كثير من الأحاديث التي قد تصل إلى حد التواتر[٣٣] من الفريقين عن النبي والأئمة عليهم السلام تمنع التفسير بالرأي، فعن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب»[٣٤] وعنه صلى الله عليه وآله: «من تكلم بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٣٥].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ خرّ أبعد من السماء»[٣٦].

فبعد أن تبين شدة نهي المعصومين عليهم السلام عن التفسير بالرأي والتحذير منه، كان لزاماً على الباحث توضيح المقصود بالتفسير بالرأي، وتمييزه عن التفسير الاجتهادي، فعند الرجوع للقرآن الكريم نجد في آياته دعوة للتفكر والتدبر وإعمال للفكر للوصول إلى حقائق القرآن كقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٣٧]، وقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[٣٨].

وعليه لابد أن يكون المقصود بالتفسير بالرأي المنهي عنه غير التفسير الاجتهادي.

وقد قسم العلماء التفسير بالرأي على وفق ما تقدم من آيات وروايات إلى:

١. التفسير الجائز: وهو ما يسمى بالتفسير الاجتهادي، ونقصد به (بذل الجهد واستخدام قوة العقل في فهم آيات القرآن ومقاصده)[٣٩] من خلال تتبع ظواهر القرآن أو حكم العقل الفطري مع موافقة القرآن والسنة ومراعاة سائر الشروط[٤٠].

٢. التفسير الممنوع: وهو الذي حذرت منه النصوص المتقدمة، وليس هو ما يقابل المنهج النقلي -كما يرى بعضهم- مما دعاهم إلى رفض المنهج الاجتهادي في التفسير[٤١]، بل المقصود بالتفسير بالرأي المحرم: هو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة، وأصول الشرع، وأصول التفسير الأخرى، أو هو تفسير الكتاب مع الجزم بأن مراد الله تعالى هو كذا من غير برهان قطعي[٤٢].

فالروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام الناهية عن التفسير بالرأي إنما تقصد التفسير بالرأي الممنوع لا التفسير الاجتهادي، وهذا ما يفهم من روايات الأئمة المعصومين في النهي عن التفسير بالرأي، فهم يشيرون إلى التفسير بالرأي الممنوع ليؤسسوا لقاعدة منع التفسير بالرأي؛ لأن التفسير بالرأي لا يمكن أن يكشف عن المراد الإلهي؛ لأنه محض اجتهاد غير قائم على دليل، وهو تقوّل على الله، وابتعاد عن المراد الإلهي.

والتفسير بالرأي موجود في كثير من التفاسير سواء أشعر المفسر بذلك أم لا، وسواء أكان ذلك عن قصد أم لا، وللتفسير بالرأي تطبيقات كثيرة منها:

١- إجراء المصطلح غير القرآني على القرآن، مع أن استعماله في القرآن غير ذلك، فمثلاً مفهوم النسخ فإن استعماله في اللغة وعلم أصول الفقه، يختلف عن الاستعمال القرآني، فلا يمكن إجراء الاستعمال القرآني أو الأصولي على القرآن في هذه الحالة.

فمما جاء في معاجم اللغة أن: «النسخ والاستنساخ: اكتتابك في كتاب عن معارضه، والنسخ إزالتك أمراً كان يُعمل به، ثم ينسخه بحادث غيره: كالآية تنزل في أمر، ثم يخفف، فتنسخ بأخرى، فالأولى منسوخة، والثانية ناسخة»[٤٣]. ولا يمكن حمل معنى النسخ في القرآن على الإزالة؛ لأنّ ذلك يستلزم وجود نقص في القرآن الكريم، ومن ثَمَ القولُ بتحريف القرآن الكريم بالنقيصة، وهذا خلاف إجماع علماء المسلمين على عدم تحريف القرآن لفظياً.

أما تعريف النسخ في علم الأصول، فقد عرفه الغزالي (ت٥٠٥هـ) بقوله: «الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه»[٤٤]. وأما المحقق الحلي (ت٦٧٦هـ) فقد عرّفه بأنه: «عبارة عن الإعلام بزوال مثل الحكم الثابت بالدليل الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه على وجه لولاه لكان الحكم ثابتاً»[٤٥].

ولم يختلف تعريف النسخ عند المفسرين المتقدمين عما جاء في تعريف علماء الأصول، إلا أن الملاحظ أن بعض المفسرين المتأخرين توسعوا بما لم يتوسع به الأصوليون، فلم يقصروا النسخ على الحكم الشرعي كما هو الحال عند أغلب الأصوليين، فوسعوا الدائرة لتشمل التكوينات؛ لذلك نجدهم قد أدخلوا البداء في النسخ، ويمكن أن نلمس تلك القضية عند السيد الطباطبائي والسيد الخوئي، فقد عرف السيد الطباطبائي النسخ بقوله: «المراد بالنسخ هو إذهاب أثر الآية، من حيث أنها آية، أعني إذهاب كون الشيء آية وعلامة مع حفظ أصله، فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله»[٤٦]، ثم يقول العلامة: «إن كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن إتيان مثله، والأحكام والتكاليف الإلهية آيات له تعالى

باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى، والموجودات العينية آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها، وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه، وأنبياء الله وأوليائه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول والفعل وهكذا»[٤٧].

وعليه لابد من التفريق بين مصطلح النسخ عند الأصوليين وعند المفسرين، فلكلٍ اصطلاحٌ خاص به، يلتقيان في شمول النسخ للتشريعات ويختلفان في إمكانية توسعة الدائرة لتشمل التكوينات فيدخل البداء في النسخ، وهذه أهم نقطة للاختلاف بين الاصطلاحين.

٢- تفسير القرآن من دون الرجوع لقواعد فهم النص القرآني، ولاسيما القواعد التي أسسها أهل البيت؛ لأنّ لهم مقام القيمومة على كتاب الله سبحانه، فمن لا يسير على وفق تلك القواعد سيقع حتماً في التفسير بالرأي، أو على أقل تقدير سوف يبتعد عن المراد الإلهي، وقد نجد التنبيه على هذا الأمر، ففي الرواية عن الإمام علي عليه السلام عندما حاور زنديقاً يدعي تناقض القرآن الكريم، قال عليه السلام: «إياك أن تفسر القرآن برأيك، حتى تفقهه عن العلماء، فإنه رُبَّ تنزيل يشبّه بكلام البشر، وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر، كما ليس شيء من خلقه يشبهه، كذلك لا يشبه فعله تعالى شيئا من أفعال البشر، ولا يشبه شيء من كلامه بكلام البشر، فكلام الله تبارك وتعالى صفته وكلام البشر أفعالهم فلا تشبه كلام الله بكلام البشر، فتهلك وتضل»[٤٨].

وفي حديث الإمام الباقر عليه السلام مع قتادة عندما قال له: «يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا، بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك؟

قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾، فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك الله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟، قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت ...»[٤٩].

فالتركيب وإن كان لغوياً، ولكن ليس بالضرورة أن يفهم معناه من اللغة فقط، فمتشابهات القرآن الكريم لا يمكن فهمها على وفق ظاهر اللغة، ولابد من إجراء التأويل فيها، كما في آيات الصفات وغيرها من الآية المتشابهة.

٣- ومن تطبيقات التفسير بالرأي هو فرض القبليات الفكرية والعقدية للمفسر على نصوص القرآن الكريم، فيفسر القرآن الكريم بحسب قبلياته الفكرية والعقدية. وتُمثل القبليات العقدية بوصفها مجموعة المعتقدات التي ترجع إلى المكون الثقافي، والتي توجه مسار البحث لاختيار المعنى المنسجم مع المرتكزات الفكرية[٥٠].

وللقبليات العقدية أثرٌ واضحٌ في تكوين المنظومة المعرفية بشكل عام، وفي مجال التفسير وعلوم القرآن بشكل خاص، فيكون المفسر أسيراً لتلك القبليات وتكون هي الحاكمة على النص، مما يولد رؤية خاطئة يتأسس في ضوئها منهج خاطئ مما يصعب ردّ الإشكالات التي تثار في ضوء ذلك المنهج.

والإشكالية الكبرى في مجال التفسير هو الاعتماد على الأخبار الضعيفة

والموضوعة في تشكيل منظومة معرفية، وإضفاء طابع القداسة على تلك النصوص؛ لكونها وردت في كتب حُكم بصحتها مسبقاً، وهذا ما نراه عند بعض علماء مدرسة الجمهور وبعض الإخباريين من الشيعة الإمامية، وبسبب القبليات العقدية التي افترضت صحة بعض كتب الحديث مع وجود التعارض والتناقض بين رواياتها، ممّا فتح الباب واسعاً للمستشرقين للطعن بالقرآن الكريم ومصدريته، ثم أكدوا ذلك اعتماداً على نصوص روائية وردت في كتب الحديث تنسب التحريف للقرآن الكريم صراحةً، أو من خلال اللوازم التي تتبع القول ببعض قضايا علوم القرآن كنسخ التلاوة أو الأحرف السبعة، وافترضوا صحة كل تلك الروايات؛ لكونها وردت في كتب الصحاح.

ولو أُسس المنهج على وفق رؤية محورية القرآن الكريم التي أكدها الأئمة المعصومون في روايات بلغت حد التواتر المعنوي[٥١]، من خلال الأمر بعرض الرواية على القرآن الكريم، لما أمكن للمستشرقين وغيرهم من الطعن على القرآن الكريم.

٤- فرض النظرية العلمية على القرآن الكريم والاستدلال بالآيات القرآنية لتأييد تلك النظرية، مع أن كل نظرية علمية يمكن أن تتبدل وتتغير، الأمر الذي يجعل الآخرين يشككون في صحة القرآن الكريم وإعجازه العلمي؛ لأن من استدل على النظرية افترض أنها من آيات الإعجاز العلمي.

الخاتمة:

وفي ختام البحث لابد من رصد بعض النقاط المهمة من نتائج البحث وهي:

١- أسس المعصومون عليهم السلام مجموعة من القواعد التي تساعد على فهم النص القرآني ومقاربة مراد المولى تعالى، وإن ذلك يقع ضمن مرجعيتهم في التعامل مع القرآن كقيميين على النص القرآني ومبينين له.

٢- إن على كل مفسر اتّباع قواعد التفسير التي أسسها أهل البيت عليهم السلام، إذا ما أراد المفسر مقاربة مراد المولى تعالى.

٣- إن للإنسان مرجعية في فهم النص القرآني، وإن كان لتلك المرجعية مستويات من الفهم، وعليه لابد من ترجيح الأفضل منها، ومعرفة المقصود بالخطاب فقد يوجه الخطاب لشخص ويراد به غيره.

٤- لابد من مراعاة شروط التفسير وقواعده؛ كي لا يقع المفسر في التفسير بالرأي المنهي عنه في روايات المعصومين، فقواعد التفسير بمجموعها توصل المفسر لمقاربة مراد المولى تعالى.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

١. الأنصاري، مرتضى بن محمد (ت١٢١٤هـ)، فرائد الأصول، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٩هـ

٢. الحر العاملي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بقم المشرفة، ط٢، ١٤١٤هـ

٣. جوادي آملي، عبد الله، تسنيم في تفسير القرآن، دار الإسراء للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٤. خطب الإمام علي، نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، دار الذخائر - قم - إيران، ط١، ١٤١٢هـ

٥. الخوئي، أبو القاسم (ت١٤١٣ هـ)، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي (قدس)، ط ٣٠، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦. الراغب الأصفهاني، حسين (٥٠٢هـ)، مقدمة جامع التفاسير، دار الدعوة، الكويت، ١٤٠٥هـ.

٧. رضائي الأصفهاني، علي، دروس في المناهج والاتجاهات، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٦هـ

٨. الشريف المرتضى، أبو القاسم علي الحسين الموسوي (ت٤٣٦هـ)، تنزيه الأنبياء، انتشارات الشريف بن الرضي، ط١، ١٣٧٦هـ

٩. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة - بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٠. الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط ٢٦، ٢٠٠٥م .

١١. الطباطبائي، محمد حسين (ت ١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د. ط)، (د. ت).

١٢. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي

القرآن (تفسير الطبري)، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، (د. ط)، ١٩٩٥م.

١٣. علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

١٤. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ)، المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٥. الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (ت٦٠٦ هـ)، عصمة الأنبياء، تقديم ومراجعة: محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٦. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ)، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، قم، ط٢، ١٤٠٩هـ

١٧. الكليني، محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥، ١٣٦٣ش.

١٨. المازندراني، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)، مناق آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

١٩. المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار لجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

٢٠. المحقق الحلي، أبو القاسم جعفر بن الحسن، (ت٦٧٦هـ)، معارج الأصول إلى علم الأصول، إعداد: محمد حسين رضوي، ط١، ١٤٠٣هـ

٢١. الميبدي، محمد فاكر، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، إيران، ط١، ٢٠٠٧م.

المجلات والبحوث:

٢٢. الدخيلي، حيدر مصطفى هجر

القبليات وأثرها في التفسير - الفخر الرازي- مثالاً، مجلة مآب القرآنية، العدد ٥، ص٢٩.

٢٣. فوزي، دونقه، التأويل وتعدد المعنى، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٤، ٢٠٠٥-٢٠٠٦م.

الهوامش:

١. الاتجاهات جمع اتجاه والمقصود به هنا تأثير الاعتقادات الدينية، الكلامية، الاتجاهات العصرية وأساليب كتابة التفسير والتي تكون على أساس عقائد واحتياجات وذوق وتخصص المفسر (الأصفهاني، علي رضائي، دروس في المناهج والاتجاهات : ١٩).

٢. وضع البشر لتحاورهم قواعد عرفية للفهم قد تتغير بحسب الزمان والمكان، وبحسب أهمية النص والمبتغى منه؛ لذا تولدت مناهج وقواعد قراءية تعتمد على نسبية التلقي وتفكيكية النص.

٣. إن الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله على وفق عقائد الإمامية هو حديث عن العترة، كونهم حقيقة وجودية واحدة.

٤. جوادي آملي، عبد الله، تفسير تسنيم: ١/ ١٢٤-١٢٥.

٥. سورة النحل: ٦٤.

٦. خطب الإمام علي، نهج البلاغة، شرح: محمد عبده: ٥/٢.

٧. ينظر: فوزي، دونقه، التأويل وتعدد المعنى، مجلة الآداب والعلوم

الانسانية والاجتماعية، العدد ٤، ٢٠٠٥-٢٠٠٦م: ٧.

٨. سورة البقرة: ١٨٥.

٩. سورة النساء: ١٧٤.

١٠.سورة محمد: ٢٤.

١١.سورة آل عمران: ١٣٨.

١٢.المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ٤٥/ ١٦٦.

١٣.الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ١/ ٩٩.

١٤.ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل: ٩٢.

١٥.ينظر: الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن: ١٨.

١٦.نهج البلاغة : ٢/٥٤.

١٧.الحر العاملي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي، وسائل الشيعة: ٢٧/١٩٤.

١٨.الكافي: ٨ / ٣١٢ .

١٩.المصدر نفسه: ١/٢٢٩.

٢٠.المصدر نفسه: ١/٦٠.

٢١.وسائل الشيعة : ٢٧/٤٨.

٢٢.الكافي: ١/٢٦٥.

٢٣.الكافي: ١/١٩٣ .

٢٤.بحار الأنوار: ١٧/٩٠.

٢٥.سورة الفتح:١-٢

٢٦.ذكرت توجيهات كثيرة للآية بما ينسجم مع الاعتقاد بعصمة النبي صلى الله عليه وآله منها:

٢٧.إن صيغة اللفظ تفيد الدعاء، وقد خرج للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ...﴾، فالمغفرة هنا جرت مجرى الجزاء.

٢٨.أوّل بعضهم الذنب في الآية بأنه مخالفة الأولى، فيمكن أن تشمل المغفرة مَن ترك الأولى الذي يترتب عليه فوات مصلحة أو حصول مضرة.

٢٩.يمكن تأويل الآية على وفق نظرية الظهر والبطن، فظاهر الآية يراد به ذنب أمته كما تقدم، وباطنها يراد به النبي صلى الله عليه وآله ولكن بتجريد الذنب عن خصوصياته وعدّ كل قصورٍ عن بلوغ شكر الله ذنباً، فالمقصود بالذنب الذي غفره الله في الآية، هو القصور عن إدراك حقيقة شكر الله، والتي مهما حاول العبد لا يدركها، وليس المقصود

بالذنب التقصير - حاشاه-.

٣٠.يمكن تأويل الآية في ضوء الاستفادة من السياق وأسباب النزول، واللّذين من خلالهما يمكن معرفة العلاقة بين مغفرة الذنب وصلح الحديبية الذي نزلت فيه الآية، ممّا يجعل الآية أكثر وضوحاً، فالمقصود بالذنب في الآية هو الاتهامات والإشاعات والأباطيل التي أطلقها مشركو مكة ضد النبي صلى الله عليه وآله وتصويره بصورة الشخص الطالب للقتال وسفك الدماء. (ينظر: الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء:١٦٣- ١٦٤).

٣١.ينظر: الشريف المرتضى، أبو القاسم علي الحسين الموسوي، تنزيه الانبياء، ١٦٣، وينظر: الفخر الرازي عصمة الأنبياء: ١٠٩.

٣٢.سورة الإسراء: ٧٤

٣٣.ينظر: علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ٨٣-٨٥.

٣٤.المازندراني، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب، مناق آل أبي طالب: ٥٢٦.

٣٥. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين:٧/ ٢٤٨

٣٦. نهج البلاغة: ٢/١٩٠-١٩١.

٣٧. الخوئي، البيان: ٢٦٩ .

٣٨. وسائل الشيعة: ٢٧/١٩٠ .

٣٩. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/٥٥.

٤٠. وسائل الشيعة: ٢٧/٢٠٢ .

٤١. سورة محمد :٢٤.

٤٢. سورة ص: ٢٩.

٤٣. دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن:١١٣ .

٤٤. ينظر: الميبدي، محمد فاكر، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة: ٣٥٨.

٤٥. الأصفهاني، حسين الراغب (٥٠٢هـ)، مقدمة جامع التفاسير: ٩٣.

٤٦. ينظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القران:٢٩١.

٤٧. الفراهيدي، كتاب العين: ٤ / ٢٠١.

٤٨. الغزالي، أبو حامد، محمد، المستصفى: ٦٨ .

٤٩. المحقق الحلي، جعفر بن الحسن، معارج الأصول: ١٦١.

٥٠. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان:١/ ٢٥٠

٥١. المصدر نفسه.

٥٢. بحار الأنوار: ١٠٧/٨٩.

٥٣. الكافي: ٣١١/٨.

٥٤. ينظر: الدخيلي، حيدر مصطفى: هجر القبليات وأثرها في التفسير - الفخر الرازي- مثالاً، مجلة مآب القرآنية، العدد ٥، ص٢٩.

٥٥. ينظر: الأنصاري، مرتضى بن محمد، فرائد الأصول،: ٢٤٧/١.